

العقل المدبر

ماريا كونيكوفا

187 | مكتبة



كيف تفكر
مثل
شارلوك هولمز

ترجمة:
دعاء عليان

KALAMAT

العقل المدبر

«كيف تفكر مثل شارلوك هولمز؟»

● العقل المدبر «كيف تفكر مثل شارلوك هولمز؟»

● ماريا كونيكوفا

دار كلمات للنشر والتوزيع

الطبعة الخامسة - ٢٠١٧

دولة الكويت/ محافظة العاصمة

تلفون: ٩٩١١٩٩٣٤ (٠٠٩٦٥)

تويتر: @dar_kalamat

إنستغرام: dar_kalamat

البريد الإلكتروني: dar_kalamat@hotmail.com

العقل المدبر

«كيف تفكر مثل شارلوك هولمز؟»

Mastermind: How to Think Like Sherlock Holmes

ماريا كونيكوفا

Maria Konnikova

ترجمة:

دعاء عليان

للمزيد والجديد من الكتب والروايات

زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

٢٠١٧



KALEMAT

telegram @ktabpdf

مكتبة الرمحي أحمد

كلمة المترجمة

التميز في التفكير ، وبالتالي في الإنجاز والإبداع ، هو هدف يسعى الكثيرون لتحقيقه لينفردوا عمّن سواهم وليملكوا من أسباب الفخر ما يجعلهم مختلفين .

في هذا الكتاب ، وهو الكتاب الثاني الذي أترجمه لصالح دار كلمات للنشر والتوزيع ، تعلمت الكثير من المصطلحات والمفاهيم والحيل والاستراتيجيات والمعلومات المتعلقة بالتفكير بكافة تفاصيله . وعرفت عن الدماغ ما لم أعرفه من قبل ، فما كان بوسعي إلا أن أقول سبحان الخالق!

كما ورأيت في هذا الكتاب موسوعة لأسماء علماء وأعلام في مواضيع علمية مختلفة ، أهمها تلك ذات الصلة بعلمي الأعصاب والنفس ، وعرفت عن إنجازاتهم في مجالاتهم . كما وجدت تفسيرات للكثير من السلوكيات والتصرفات والأحداث التي كانت تمر بي أو أمر بها وأظنها ضربًا من الخيال أو اللامعقول ، أو تلك التي لم أكن أجد تفسيرات لها .

لكل من يمسك هذا الكتاب ، لن أغتال متعة القراءة التي ستجنيها بعد الانتهاء من القراءة ، ولكنني أنصحك عزيزي القارئ بان تُخضع نفسك للاختبارات والأسئلة الواردة بين ثناياه وأن تتفاعل معها في حينها ، فربما تعرف عن نفسك شيئًا لم تعرفه من قبل

وفي النهاية ، أرجو أن أكون قد وفقت في ترجمة هذا الكتاب
بالغ الأهمية ، وأرجو لكم قراءة ممتعة ورحلة جميلة بين عوالم الواقع
والخيال .

دعاء عليان

٢٠١٧

اختيار الانتباه - أن تنتبه إلى هذا وتتجاهل ذاك- يعتبر للحياة الداخلية كما اختيار التصرف بالنسبة للحياة الخارجية . وفي كلتا الحالتين يعد الإنسان مسؤولاً عن اختياره ، وعليه بالتالي الرضى بالنتائج . وكما قال أورتيجا جاسيت : «أخبرني إلى ماذا تنتبه ، أخبرك من أنت»

ويستن هيو أودن

المقدمة

عندما كنت صغيرة ، كان أبي يقرأ لنا قصص شارلوك هولمز قبل الخلود إلى النوم . وفي الوقت الذي كان فيه أخي يغتنم الفرصة ليغفو حالاً في زاويته على السرير ، كان بقيتنا يستمع إلى أبي باهتمام . واني أتذكر الأريكة الجلدية الكبيرة التي كان يجلس عليها أبي ممسكاً بالكتاب من أمامه بذراع واحدة بينما كانت السنة اللهب المتراقصة والمنبعثة من الموقد تنعكس على نظارته ذات الإطار الأسود . وأتذكر أيضاً الارتفاع والانخفاض في صوته كلما تعاضم التشويق متجاوزاً نقطة الانهيار . وأخيراً يأتي الحل المنطقي بعد طول انتظار ، فأهز برأسي -تماماً كالدكتور واتسون- وأفكر «طبعاً ، الأمر برمته وما يقوله الآن هو أمر في غاية البساطة» . وأذكر كذلك رائحة الغليون الذي كان أبي يدخنه بين الحين والآخر ، حيث كان مزيجاً من النوع الترابي ورائحة الفواكه ، وكانت رائحته تتسرب إلى ثنايا الأريكة الجلدية . وبطبيعة الحال ، كان غليونه دائماً منحنيًا قليلاً تماماً كغليون هولمز . وما أتذكره أيضاً الطريقة التي كان أبي يغلق بها الكتاب بعد الانتهاء من القراءة ، حيث كانت صفحاته السميكة تلتصق ببعضها البعض بين غلافه القرمزيين حين يقول أبي : «يكفي هذا لهذه الليلة» . وبغض النظر عن حجم توصلنا له والحزن الذي يرتسم على وجوهنا ، كنا في نهاية المطاف نستسلم ونصعد إلى أسرتنا في الطابق العلوي .

ويوجد كذلك شيء أقحم نفسه بعمق في دماغي حتى استقر هناك ساخرًا مني لسنوات قادمة حيث تلاشت بقية القصص منذ زمن طويل إلى خلفية غير معروفة ، وأصبحت مغامرات هولمز وبوزويل المخلص له نسيًا منسيًا ؛ إنها الخطوات .

كم عدد الخطوات إلى شارع بيكر ٢٢١ ب؟ إنه السؤال الذي طرحه هولمز على واتسون في «فضيحة في بوهيميا» ، وهو السؤال الذي لم يغب عن بالي للحظة . بينما كان هولمز وواتسون جالسين في مقعديهما المتطابقين ، تحدث المحقق إلى الطبيب عن الفرق بين الرؤية والمراقبة . كان واتسون مرتابًا ، ثم أصبح كل شيء واضحًا وضوح الشمس على حين غرة .

علق واتسون قائلاً : «عندما أسمعك تطرح حججك ، يبدو الأمر دائمًا بالنسبة لي في غاية البساطة ويبعث على السخرية لدرجة أنني أعتقد أنه يمكنني القيام به بنفسني . لكنني على الرغم من ذلك أظل في حيرة من أمري عند كل حجة من حججك حتى توضحها لي . ولكنني مع كل هذا أؤمن بأن عيونني جيدة كعيونك»

أجاب هولمز : «تمامًا» ، ثم أشعل سيجارة وألقى بنفسه على أريكة ، ثم تابع قائلاً : «أنت ترى ولكنك لا تراقب ، والفرق بين الأمرين واضح . على سبيل المثال ، لظالما شاهدت الخطوات التي تؤدي من القاعة لهذه الغرفة»

- كثيرًا .

- كم مرة؟

- حسنًا ، بضع مئات من المرات .

- إذن كم العدد؟

- كم العدد؟! لا أعرف .

- تماماً ، أنت لم تراقب ولكنك شاهدت ، وتلك وجهة نظري .
الآن أنا أعرف أن عدد الخطوات هو سبعة عشر وذلك لأنني رأيت
وراقبت»

عندما سمعت بذلك لأول مرة ذات مساء يملأه دخان الغليون ،
هزني الأمر . حاولت حثيثاً تذكر عدد الخطوات التي في منزلنا ،
ولكن لم تكن لدي أدنى فكرة عن ذلك . وحاولت أيضاً تذكر عدد
الخطوات التي تؤدي إلى الباب الأمامي لمنزلنا ، فكانت النتيجة
فراعماً جميلاً لا سواه . ثم حاولت تذكر عدد الخطوات التي تؤدي
إلى القبو ، أهى عشرة؟ عشرون؟ لم يكن بإمكانني حتى تقدير
عددها . ولفترة طويلة بعد ذلك حاولت عدّ الخطوات والدرجات
حيث أمكنني الاحتفاظ بالعدد الصحيح في ذاكرتي لأستخدمه
حيث يلزم إن طلب مني أحدهم ذلك . سأجعل هولمز فخوراً بي .
بطبيعة الحال ، كنت أنسى بشكل سريع كل عدد أحاول
تذكره باجتهاد ، ولم أدرك حتى وقت متأخر بأنه من خلال التركيز
الشديد على الحفظ ، كنت قد أخطأت الهدف بشكل كامل . لقد
حُكِم على جهودي بالفشل منذ البداية .

ما لم أستطع فهمه هو أنه كان لهولمز أكثر مما يمكن وصفه
بالأفضلية عليّ . فقد أمضى معظم حياته لشحذ وتكوين طريقة
للتفاعل الواعي مع العالم . وما خطوات شارع بيكر إلا طريقة
لإظهار مهارة أصبحت الآن طبيعية بالنسبة له حتى أنها لا تتطلب
أدنى قدر من التفكير . وهي أيضاً تعبير عن عملية كانت تتجلى
بصورة اعتيادية وشبه لا شعورية في عقله النشط بشكل دائم . لقد
كانت خدعة - إن صح التعبير - لا نتائج فعلية لها ، ولكنها مع

ذلك كانت تترك أكثر الآثار عمقاً إن توقفتَ عن النظر فيما جعلها من الممكن حدوثه بمكان . لقد كانت خدعة ألهمتني لكتابة كتاب كامل على شرفها .

إن فكرة تنبيه الذهن بحد ذاتها ليست فكرة جديدة على الإطلاق . ففي وقت مبكر من نهاية القرن التاسع عشر ، كتب ويليام جيمس أبو علم النفس الحديث قائلاً : «إن الجذر الحقيقي لإصدار الأحكام والشخصيات والإرادة هو القدرة على استعادة الانتباه الهائم بشكل طوعي مراراً وتكراراً . والتعليم الذي من شأنه تحسين هذه القدرة هو ذلك الذي يكون ندًا للتمييز» . إن تلك القدرة في جوهرها هي جوهر تنبيه الذهن . ونوع التعليم الذي يقترحه جونسون هو تعليم باستخدام نهج يهتم بالحياة والفكر

في سبعينيات القرن العشرين ، بينت إيلين لانجر أنه يحدث وأن يتجاوز تنبيه الذهن تحسين إصدار الأحكام والشخصيات والإرادة . فالنهج اليقظ يمكنه الذهاب إلى حد جعل البالغين يشعرون ويتصرفون كالصغار ، ويمكنه أيضاً تحسين علاماتهم الحيوية كضغط الدم ، وكذلك وظائفهم الإدراكية المعرفية . وفي السنوات الأخيرة ، أظهرت دراسات أن ممارسة التفكير الذي يشبه التأمل (وهو تمرين في سيكولوجية السيطرة على الانتباه والذي يشكل مركز الذهن) لمدة خمس عشرة دقيقة -على الأقل- يومياً يمكنه تحويل نشاط الدماغ الأمامي إلى نمط يرتبط بحالات انفعالية أكثر إيجابية ومنهجية . فالنظر إلى مشاهد الطبيعة -وإن كان لفترة قصيرة- من شأنه مساعدتنا على أن نصبح أكثر بصيرة وإنتاجية وإبداعاً . ونعرف أيضاً بشكل قاطع أكثر من أي وقت مضى بأن أدمغتنا ليست مبنية لتعدد المهام ، وهو أمر يحول دون تنبيه الذهن

بشكل كامل . فعندما نكون مجبرين على القيام بمهام متعددة في ذات الوقت ، فإننا لا ننجزها بشكل سيء فحسب ، ولكن ذاكرتنا تتقلص أيضاً وتعاني رفاهيتها وسلامتنا العامة من ندوب واضحة .

لكن بالنسبة لشارلوك هولمز يعد الحضور المدرك مجرد خطوة أولى ، وهو وسيلة لتحقيق هدف أكثر امتداداً وعملية وممتعة تثلج الصدر . ويطرح هولمز بدقة ما قاله ويليام جيمس ، أي تعليم لتحسين مقدرتنا على التفكير الواعي واستخدامه لزيادة الإنتاج ، وتحسين التفكير ، واتخاذ القرارات الأفضل . وبتطبيقه الأوسع ، يعد وسيلة لتحقيق اتخاذ القرارات إجمالاً وكذلك القدرة على إصدار الأحكام ابتداءً من لبنة البناء الرئيسية لدماعك .

إن ما يخبر به هولمز واتسون فعلياً عندما يقارن بين المشاهدة والمراقبة هو ألا يخلط بين غفلة الذهن ويقظته ، وهو نهج سلبي يتضمن مشاركة فعالة . فنحن نرى تلقائياً تياراً من المدخلات الحسية التي لا تتطلب جهداً من جانبنا . ونرى كذلك عناصر من العالم لا يمكن التفكير بها ولا عدها واستيعابها ، دون الحاجة بالضرورة إلى معالجة ماهيتها . وربما لا ندرك أيضاً بأننا شاهدنا شيئاً صحيحاً بأم أعيننا . ولكننا عندما نراقب نكون مجبرين على الانتباه . وعلينا الانتقال من التلقي السلبي إلى الوعي النشط ، أي أن علينا الاندماج والانخراط . وهذا الأمر ينطبق على كل شيء ، وليس على النظر فقط ، بل على كل الحواس والمدخلات والأفكار .

في كثير من الأحيان عندما يتعلق الأمر بدمغتنا ، نصير طائشين بلا عقل بشكل مثير للدهشة . حيث نواصل طريقنا بلا مبالاة غير مدركين لحجم خسائرتنا ولقلة ما نفهمه عن معالجة أفكارنا ، وغير منتبهين لما كان بإمكاننا القيام به بشكل أفضل إن

منحنا أنفسنا الوقت الكافي من أجل الفهم والتعبير . وتأملاً
كواتسون ، نحن نواصل طريقنا على ذات السلالم عشرات ومئات
وآلاف المرات ، وربما مرتين يوميًا ، ومع ذلك لا نستطيع تذكر أكثر
التفاصيل بساطة بشأنها (ولن يكون من المفاجئ بمكان بالنسبة لي
إذا سأل هولمز عن اللون بدلاً من عدد الخطوات ووجد واتسون لا
يعرف ذلك أيضاً) .

إن الأمر ليس أننا لا نستطيع القيام بذلك . كل ما في الأمر
أننا لا نختار القيام به . فكر في طفولتك قليلاً ، فإذا طلبت منك
إخباري عن الشارع الذي نشأت فيه ، فإنه من المحتمل بمكان أن
تكون قادرًا على تذكر عدد من التفاصيل كألوان البيوت ، ومراوغات
الجيران ، وروائح الفصول ، والاختلاف بين الشارع في ذلك الوقت
وما هو عليه الآن ، وأين كنت تلعب وتمشي ، وأين كنت تخشى
المشي ، وأراهنك على أن بإمكانك الاستمرار في ذكر أمور تتذكرها
لساعات .

كما الأطفال ، نحن ندرك بشكل لافت للنظر . فنحن نمتص
المعلومات ونعالجها بسرعة لن نقرب من تحقيقها مجددًا . مشاهد
وأصوات وروائح وأشخاص ومشاعر وتجارب جديدة تجعلنا نتعلم عن
العالم وإمكانياته . كل شيء جديد ومدهش ويشير الفضول .
وبسبب الحداثة المتأصلة في محيطنا ، فإننا نكون متأهين بشكل
رائع ومستوعبين لكل شيء . إضافة إلى ذلك ، نحن نتذكر . ولأننا
متحفزون ومنخرطون في العملية (وهما خاصيتين سنعود لهما مرارًا
وتكرارًا) ، فإننا لا نرى العالم بشكل أكثر شمولية مما يمكن تكراره
فحسب ، بل إننا نخزنه للمستقبل . فمن يعرف متى يصبح بمتناول
اليد؟!

كلما كبرنا ازداد عامل اللامبالاة أضعافاً مضاعفة كونك هناك وفعلك لذلك وعدم حاجتك للانتباه لهذا ومتى ستحتاج لمعرفة هذا أو استخدام ذلك . وحتى عندما نريد الانخراط ، فإنه لن يكون بين أيدينا ترف الطفولة . فقد ذهبت الأيام التي كانت مهمتنا الرئيسية فيها هي التعلم والاستيعاب والتفاعل ، ولدينا الآن مسؤوليات أخرى أكثر إلحاحاً (أو هكذا نظنها) وعلى أدمغتنا التعامل معها . ومع ازدياد الأعباء الملقاة على انتباهنا ، يبرز مصدر قلق حقيقي جداً كضغوطات تعدد المهام في العصر الرقمي المتزايد والذي صار على امتداد الوقت ، وبالتالي يتناقص انتباهنا الفعلي ونصبح أقل وأقل قدرة على معرفة أو ملاحظة عادات التفكير الخاصة بنا ، ونسمح لأدمغتنا بأن تلمي علينا قراراتنا وأحكامنا بشكل أكثر بدلاً من العكس . وفي الوقت الذي لا يعد فيه ذلك الأمر بالسيء ، فنحن في حقيقة الأمر سنتحدث مراراً وتكراراً عن الحاجة لأتمتة عمليات معينة تكون في بداية الأمر صعبة ومكلفة معرفياً وتقترب من الغفلة بصورة خطيرة . وبين الكفاءة والطيش خط رفيع علينا الانتباه لثلاثا نعبه .

على الأرجح أنك مررت بتجربة كان يتوجب عليك فيها الانحراف عن روتين ثابت ما لتجد أنك نسيت فعل ذلك نوعاً ما لنقل إنك بحاجة للتوقف عند الصيدلية في طريقك لمنزلك . حينها ستتذكر القيام بذلك طوال اليوم وتدرّب نفسك عليه ، حتى أنك ترسم في مخيلتك صورة للمنعطف الذي عليك تجاوزه للوصول إلى هناك والذي هو مجرد خطوة سريعة عن طريقك المعتاد . ولكن نوعاً ما ، تجد نفسك مرة أخرى عند الباب الأمامي لمنزلك دون أن تكون قد توقفت . لقد نسيت أن تعبر المنعطف حتى أنك لم تتذكر ذلك

على الإطلاق . ما حصل هو أن السلوك المعتاد هو المسيطر هنا ،
وفرض الروتين نفسه على جزء من دماغك كان يعرف أنه يتوجب
عليه القيام بأمر آخر .

والأمر هذا يحدث طوال الوقت . حيث تصبح محصوراً ضمن
إطار محدد حتى أنك تعيش كافة أجزاء يومك في حالة ذهول
طائشة . (فإذا ما كنت لا تزال تفكر بالعمل أو قلقاً بشأن بريد
الالكتروني أو تخطط لتناول العشاء ، فإنك تنسى ذلك) . وما ذلك
النسيان التلقائي وتزايد الروتين والسهولة التي يمكن بها تشتيت
الذهن عن فكرة ما إلا الجزء الأصغر من الموضوع وإن كانت
ملحوظة بشكل خاص ، وذلك لأن لدينا الرفاهية لإدراك أننا نسينا
فعل شيء ما يعد جزءاً من ظاهرة أكبر . يحدث هذا بشكل أكثر
انتظاماً مما يمكننا الإشارة إليه ، وفي كثير من الأحيان فإننا لا نكون
حتى مدركين لغفلة أدمغتنا . فكم من فكرة تدخل رأسك وتخرج
منه دون أن تتوقف لتتميزها؟ وكم فكرة أو رؤية قد غابت لأنك
نسيت الانتباه لها؟ وكم قرار أو حكم قمت باتخاذها دون أن تدرك
كيف أو لماذا قمت بها مدفوعاً بإعدادات افتراضية داخلية جعلت
منك غامضاً . أنت مدرك لذلك؟ وكم يوم قد مر من حياتك
وكنت تتساءل فيه عما كنت تفعله وكيف وصلت إلى ما أنت عليه
الآن .

الهدف من هذا الكتاب هو مساعدتك . حيث يتخذ من
منهجية هولمز وسيلة لاكتشاف وتوضيح الخطوات اللازمة لبناء
عادات تفكير ستسمح لك بالانخراط الذهني مع نفسك ومع
العالم . بالتالي سيتسنى لك أيضاً الإشارة بشكل عابر إلى عدد
الخطوات لتبهر رفيقاً أقل معرفة بذلك .

لذلك ، أشعل تلك النار ، واجلس على تلك الأريكة ، وجهز
نفسك مجدداً للانضمام إلى شارلوك هولمز والدكتور جونسون هـ .
واتسون في مغامراتهما في شوارع لندن المليئة بالجرائم وإلى أعماق
الصدوع الموجودة في الدماغ البشري .

الجزء الأول

فهم نفسك

الفصل الأول المنهج العلمي للدماغ

شيء مشؤوم كان يحدث لحيوانات مزرعة ويرلي الكبيرة . حيث سقطت الأغنام والأبقار والأحصنة واحدة بعد الأخرى ميتة في منتصف الليل . والسبب في ذلك هو جرح طويل وعميق في معداتها سبب نزفاً بطيئاً ومؤلماً . كان المزارعون غاضبين والجماهير مصدومة ، فمن ذا الذي يمكنه التسبب بهكذا ألم لمخلوقات مسالمة؟ ظنّ الشرطة أن لديهم إجابة لذلك . حيث كان قد حكم على جورج إيديلجي الابن نصف الهندي للنائب المحلي ، بالسجن لمدة سبع سنوات مع الأشغال الشاقة في عام ١٩٠٣ وذلك لارتكابه واحدة من الجرائم الستة عشر من جرائم التمثيل بالجثث ، وكان عمره حينها سبعة وعشرون عاماً . حيث ارتكب جريمته بحق مُهر وجدت جثته في حفرة قرب منزل النائب . لم يكن قسم النائب بأن ابنه كان نائماً وقت ارتكاب الجريمة ، ولا استمرار حوادث القتل حتى بعد الدج بجورج في السجن ولا كون الدليل على إدانة جورج مبنياً بشكل كبير على رسائل غامضة قيل بأن جورج كتبها وورط نفسه فيها بارتكاب الجريمة ، لم تكن كل هذه الأمور بأهمية بمكان . فقد كانت الشرطة بقيادة رئيسها في ستافوردشاير الكابتن جورج آنسون متأكدين من أنهم ألقوا القبض على الرجل الصحيح .

بعد مضي ثلاث سنوات ، تم الإفراج عن إيديلجي . حيث

كان هناك عريضتان لإثبات براءته ، واحدة وقعها عشرة آلاف شخص ، والثانية وقعتها مجموعة من ثلاثمئة محامي . وتم إرسال العريضتين إلى وزارة الداخلية للتنويه إلى نقص الأدلة المتعلقة بالقضية . لكن القصة لم تنتهي بعد ، وربما يكون إيديلجي قد تحرر من السجن ، لكنه ظلّ مذنبًا بالاسم . فقبل الزج به بالسجن كان يعمل كاتب عدل ، أما الآن فليس بإمكانه العودة لممارسة عمله

وفي عام ١٩٠٦ ، حصلت لإيديلجي ضربة حظ جيدة ، حيث صار آرثر كونان دويل المبدع المشهور بتأليفه قصص شارلوك هولمز مهتمًا بالقضية . في ذلك الشتاء ، وافق كونان دويل على مقابلة إيديلجي في فندق جراند عند تقاطع تشارلج . وفي الردهة هناك تبذرت أي شكوك كانت لدى السيد آرثر بشأن براءة الشاب ، حيث كتب لاحقًا :

«لقد جاء إلى الفندق الذي أقيم فيه على الموعد ، ولكنني تأخرت ، فأشغل وقته بقراءة الجريدة . لقد عرفته من وجهه الكتيب ، لذا وقفت وراقبته . كان يمسك بالصحيفة قرب عينيه ، مما يثبت أنه لم يكن يعاني من قصر النظر فقط ، بل من لا بؤرية ملحوظة أيضًا . وبالتالي كانت فكرة تمشيط رجل كهذا للحقول واعتداؤه على الماشية مع تجنب الشرطة التي كانت تراقب المكان فكرة مثيرة للسخرية . إذن في ذلك العيب الجسدي الواحد لدى هذا الرجل يكمن اليقين الأخلاقي من براءته»

على الرغم من أن كونان دويل كان مقتنعًا ببراءة إيديلجي ، إلا أنه كان يعلم أن الأمر سيتطلب المزيد والمزيد للفت انتباه وزارة الداخلية ، لذلك سافر إلى مزرعة ويرلي الكبيرة لجمع الأدلة حول القضية . وهناك قابل السكان المحليين ، وحقق في مشاهد الجرائم

والأدلة والظروف الموجودة . والتقى بالكابتن أنسون الذي كان العداء له يزداد شيئاً فشيئاً ، وزار المدرسة القديمة التي درس فيها جورج . كما وراجع سجلات قديمة لرسائل مجهولة المصدر ومقالب ضد العائلة ، وتتبع خبير الخط الذي قال بأن خط إيديلجي يطابق ذلك الذي كتبت به الرسائل مجهولة المصدر ، ثم وضع النتائج التي توصل لها معاً أمام وزارة الداخلية .

كانت شفرات الحلاقة الملطخة بالدم صدئة وقديمة ولا يمكنها بأي حال من الأحوال التسبب بجروح كتلك التي عانت منها الحيوانات . أما التراب الذي كان على ملابس إيديلجي فلم يكن من نوع التراب الموجود في المكان الذي اكتشفت فيه جثة المهر . وخبير الخط سبق وأن أخطأ الحكم على الخطوط بما أدى إلى إصدار أحكام خاطئة . وبطبيعة الحال كانت هناك مسألة النظر ، فهل يمكن لشخص يعاني من قصر النظر واللابؤية أن يتنقل في الحقول ليلاً لتشويه الحيوانات؟

في ربيع عام ١٩٠٧ تمت تبرئة إيديلجي أخيراً من تهمة قتل الحيوانات . ولكن كان ذلك أقل من الانتصار الكامل الذي تمناه كونان دويل ؛ ذلك أن جورج لم يحصل على أي تعويض للمدة التي قضاها في السجن ، ولكن مع ذلك كانت البراءة شيئاً جيداً . عاد إيديلجي إلى عمله . ووجدت لجنة التحري - كما يلخص كونان دويل - أن «الشرطة بدأت وواصلت تحقيقاتها ليس بهدف معرفة المذنب ، ولكن بهدف إدانة إيديلجي الذي كانوا متيقنين من كونه المذنب» . وفي آب من ذات العام ، شهدت بريطانيا تأسيس أول محكمة استئناف وذلك من أجل التعامل مع حالات إخفاق العدالة مستقبلاً بطريقة أكثر انتظاماً ومنهجية . وكانت قضية

إيديلجي أحد الدوافع الرئيسية وراء تأسيسها .

كان أصدقاء كونان دويل معجبين بذلك . ولكن لم يصب كبد الحقيقة كما فعل الروائي جورج ميريديث الذي حدث كونان دويل قائلاً : «عليّ ألا أذكر الاسم الذي لا بد وأنه أصبح متعباً لأذنانك ، ولكن صاحب فكرة المخبر الهاوي الرائع أظهر ما يمكنه القيام به على مدى الحياة» . ربما كان شارلوك هولمز ضرباً من الخيال ، ولكن نهجه الصارم في الفكر كان حقيقياً بالفعل . وإذا ما طبقت بشكل سليم ، يمكن لأساليبه أن تكون واضحة للعيان وتسبب تغييرات إيجابية ملموسة ، ويمكنها أيضاً تجاوز عالم الجريمة .

بما لا شك فيه أنه عند النطق باسم شارلوك هولمز يتبادر إلى الذهن عدد كبير من الصور . الغليون ، ومطارد الغزلان ، والعباءة ، والكممان والمظهر الجانبي الذي يشبه الصقر ، وربما أيضاً ويليام جيليت أو باسل راثيون أو جيرمي بريث أو أي عدد من النجوم الذين لعبوا دور هولمز عبر السنين بما في ذلك الأدوار المعاصرة لبينديكت كومبرباتش وروبرت داووني . ومهما كانت الصور والتفسيرات التي يستحضرها دماغك ، أجازف بالقول بأن كلمة الطبيب النفسي ليست واحدة منها .

صحيح أن هولمز كان محققاً لا يعلى عليه ، لكن اكتشافاته حول العقل البشري تنافس أعظم إبداعاته في مجال العدالة الجنائية . فما يقدمه شارلوك هولمز ليس مجرد طريقة لحل لغز الجريمة ، بل هو منهج كامل للتفكير ، وعقلية يمكن تطبيقها على ما لا يعد ولا يحصى من المغامرات بعيداً عن شوارع لندن الضبابية في العالم السفلي ، عالم الرذيلة والإجرام . وهو نهج منبثق عن المنهج العلمي الذي يتجاوز العلوم والجريمة ، ويمكن أن يكون بمثابة

نموذج للتفكير . لس كذلك فحسب ، بل إنه يعد وسيلة للوجود لا تقل قوتها في وقتنا عما كانت عليه أيام كونان دويل . وإنني أزعم أن ذلك هو السر في ثبات وشمولية وعظمة الطعون القضائية التي كان يقوم بها هولمز .

عندما كتب كونان دويل شارلوك هولمز ، لم يفكر كثيراً في بطله . ومن المشكوك فيه أنه خطط بشكل متعمد لإيجاد نموذج للتفكير واتخاذ القرار وهيكله ووضع وحل المشاكل في عقولنا ، ولكنه فعلياً قام بكل ذلك . حيث ابتدع في الواقع المتحدث المثالي للثورة في العلوم والتفكير والتي انكشفت في العقود الماضية وسوف تستمر حتى فجر القرن الجديد . وفي عام ١٨٨٧ ، أصبح هولمز نوعاً جديداً من المحققين ، أي مفكر لم يسبق له مثيل . حيث وظف عقله بطرق غير مسبوقة . أما اليوم فيمثل هولمز نموذجاً مثالياً لكيف يمكننا التفكير بشكل أفضل من ذلك الذي نقوم به بطبيعة الحال .

كان شارلوك هولمز صاحب بصيرة بطرق عدة . حيث بشرت شروحاته ومنهجيته وكامل منهجه الفكري بتطورات حدثت في علمي النفس والأعصاب على مدى مئة عام من مولده وعلى مدى ثمانين سنة من بعد وفاة مبتدعه . لكن طريقته في التفكير تبدو شبه حتمية نوعاً ما ، حيث أنها منتج جلي لوقتها ومكانها في التاريخ . وإذا كان المنهج العلمي متجهاً نحو قمته في كافة طرق التفكير والفعل من التطور إلى التصوير الإشعاعي ، ومن النسبية العامة إلى اكتشاف الجراثيم والتخدير ، ومن السلوكية إلى التحليل النفسي ، فلماذا لا يكون في مبادئ التفكير نفسها أيضاً؟

حسب تقدير آرثر كونان دويل ، فإن شارلوك هولمز كان من المفترض أن يكون من البداية تجسيداً للعلوم ، أي شخص مثالي

ينبغي لنا أن نطمح لتصير مثله ، هذا إن لم نحاكبه تمامًا (ففي النهاية ، ما فائدة المثل العليا إن لم تكن بعيدة المنال قليلاً؟) لقد كان اسم هولمز بحد ذاته يوحي على الفور بوجود شيء يتجاوز مخبراً بسيطاً من الطراز القديم . فمن المحتمل جداً أن كونان دويل اختاره كتكريم متعمد لواحد من المحبوبين العابرين في طفولته وهو الفيلسوف الدكتور أولفر ويندل هولمز ، والذي عرف بكتاباتاته كما مساهماته في مجال ممارسة الطب . بالمقابل ، كانت شخصية المحقق مصممة على غرار ناصح آخر ، وهو الدكتور جوزيف بيل ، وهو جراح عرف بقدراته في مجال الملاحظة الدقيقة . حيث كان يقال بأن بإمكان الدكتور بيل أن يعرف من لمحة سريعة على مريض بأنه كان ضابط صف في كتيبة المرتفعات ، وبأنه عاد لتوه من الخدمة في باربادوس . كما وعرف عنه بأنه كان يختبر القدرات الإدراكية لطلابه بشكل متكرر مستخدماً أساليب تضمنت التجريب الذاتي باستخدام العديد من المواد السامة . بالنسبة لطلاب هولمز ، ربما كان يبدو كل ذلك طبيعياً . وكما كتب كونان دويل إلى بيل : «لقد حاولتُ بناء رجل يدفع الأشياء بالقدر الذي يمكنها الذهاب إليه وذلك بالاعتماد على الاستنتاج والاستدلال والملاحظة التي سمعتك تُأصلها لدينا» . فبالملاحظة والاستنتاج والاستدلال نتوصل إلى صميم ما جعل هولمز على ما هو عليه متميزاً عن كل المتحرين الذين سبقوه أو حتى الذين سيأتون بعده . إنه المحقق الذي صعد بفن التحري ليصير علماً دقيقاً

وأول ما تتعلم منه عن المنهج الجوهري لشارلوك هولمز هو رواية «دراسة في اللون القرمزي» ، حيث كان فيها الظهور الأول للمحقق أمام الرأي العام والجمهور . وسرعان ما نكتشف أن كل قضية

بالنسبة لهولمز ليست فقط كما تبدو عليه لمسؤولي سكوتلاند يارد «مقر جهاز الشرطة البريطانية». أي أنها ليست مجرد جريمة وبعض الحقائق وبعض الأشخاص المهتمين بالموضوع والتي تتكاتف معاً لجعل المجرم يمثل أمام العدالة ، بل هي شيء أكثر من ذلك وأقل . أكثر كونها ذات جدوى أكبر وأكثر عمومية باعتبارها موضوعاً للتكهنات الواسعة والتحقيق ، أو لغز علمي إذا صح التعبير . كما أن لديها ملامح شوهدت حتماً قبل ذلك في المشاكل السابقة وستكرر بالتأكيد مرة أخرى ، وكذلك مبادئ يمكن تطبيقها على لحظات أخرى ربما لا تبدو من الوهلة الأولى ذات صلة بالموضوع . أما أقل ، فذلك أنها مجردة من أية عواطف وتخمينات مصاحبة - كل تلك العناصر التي تعد خارجة عن وضوح الفكر-وهي تقدم بشكل موضوعي كأي حقيقة غير علمية . وبالتالي تكون النتيجة أنه يتم التعامل مع الجريمة باعتبارها موضوعاً للبحث العلمي الصارم من خلال مبادئ المنهج العلمي ، وخادماً هو العقل البشري

ما هو المنهج العلمي في التفكير؟

عندما نفكر في المنهج العلمي ، فإننا نميل إلى التفكير بمُختبر في مختبره ، ربما يحمل أنبوب اختبار ويرتدي معطفاً أبيض ويتبع سلسلة من الخطوات كالتالي : يأخذ بعض الملاحظات عن ظاهرة ما ، ويضع فرضية لتوضيح هذه الملاحظات ، ويصمم تجربة لاختبار صحة الفرضية ، ثم ينفذ التجربة ويرى إن كانت النتائج توافق توقعاته ، ويعيد صياغة الفرضية إذا توجب الأمر ؛ لكن كيف يمكن الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك؟ هل يمكننا تدريب أدمغتنا على العمل مثل ذلك بشكل تلقائي طوال الوقت؟

يوصي هولمز بأن نبدأ بالأساسيات . وكما يقول في لقائنا الأول معه : « قبل الانتقال إلى تلك الجوانب الأخلاقية والعقلية للمسألة والتي تمثل الصعوبات الأكبر ، دع المستفسر يبدأ بإتقان التعامل مع مشاكل أكثر ابتدائية » . يبدأ المنهج العلمي بأكثر ما يبدو عاديًا ، وهو الملاحظة . فحتى قبل أن تبدأ بطرح الأسئلة التي ستحدد مسار التحقيق في جريمة أو سير تجربة علمية أو اتخاذ قرار بسيط كدعوة صديق ما لتناول العشاء أو عدم دعوته ، عليك بداية أن تستكشف الأرضية الأساسية . وإن تسمية هولمز لأساسيات تحقيقاته بالأولية لم يأتي من فراغ ، ذلك لأنها تمامًا كذلك ، القاعدة الأساسية لكيفية عمل شيء ما وما يجعله على ما هو عليه .

ويعتد ذلك شيئًا لا يقر به كل العلماء بشكل صريح ، مرسخين له بطريقة تفكيرهم . عندما يحلم فيزيائي بتجربة جديدة أو يقرر عالم أحياء اختبار خصائص مركب مستخلص حديثًا ، فإنه لا يدرك دائمًا بأن سؤاله المحدد ، ومنهجه ، وفرضيته ، ووجهة نظره لما يقوم به ستكون من المستحيل بمكان دون وجود المعرفة بالعناصر لديه ، تلك المعرفة التي بناها وراكمها على مدى السنين . في الواقع ، ربما تواجهه صعوبة في إخبارك من أين جاء بفكرة دراسة ما تحديدًا ولماذا ظن أنها قد تكون منطقية .

بعد الحرب العالمية الثانية ، طُلب من عالم الفيزياء ريتشارد فاينمن العمل في لجنة مناهج الدولة من أجل اختيار كتب العلوم للمدارس الثانوية في كاليفورنيا . وقد أثار استياءه أن النصوص بدت وأنها تترك الطلاب أكثر ارتياحًا بدلاً من جعلهم مستنيرين . وكان كل كتاب قام بتفحصه أسوأ من سابقه . وأخيرًا توصل إلى بداية واعدة تتمثل في سلسلة من الرسومات للعبة تعمل بلف

المحرك ، وسيارة ، وولد على دراجة . وتحت كل صورة من هذه الصور كُتب سؤال «ما الذي يجعلها تتحرك؟» ثم فكر أخيراً أن الشيء الذي سيشرح أساس العلوم يبدأ بأساسيات الميكانيكا (اللعبة) والكيمياء (السيارة) والأحياء (الولد) . ولكن بهجته لم تدم طويلاً حيث أنه عندما ظن أنه توصل إلى شروحات وفهم حقيقي ، وجد بدلاً من ذلك ثلاث كلمات «الطاقة تجعلها تتحرك» . لكن ماذا كانت تلك؟ ولماذا تجعلها تتحرك؟ وكيف تجعلها تتحرك؟ لم يكن قد اعترف بهذه الأسئلة من قبل ، ناهيك عن الرد عليها . وكما طرحها فينمن «إن ذلك لا يعني أي شيء ، إنها مجرد كلمة» . وجادل قائلاً : «بدلاً من ذلك ، ما كان عليهم فعله هو النظر إلى اللعبة ورؤية النوابض التي بداخلها ، ثم دراسة النوابض والعجلات وعدم الاهتمام للطاقة لاحقاً ، عندما يعرف الأطفال شيئاً عن آلية عمل اللعبة ، يمكنهم مناقشة المبادئ الأكثر عمومية للطاقة» .

يعد فينمن واحداً من القلائل الذين نادراً ما اتخذت قواعدهم المعرفية على أنها مسلمات ، وقد تذكر دوماً اللبنة الأساسية والعناصر الكامنة وراء كل سؤال ومبدأ . وذلك تماماً ما يقصده هولمز عندما يخبرنا أن علينا البدء بالأساسيات وبهكذا مشاكل بسيطة ربما تبدو دون ملاحظتنا . كيف يمكنك وضع فرضية ما ونظريات قابلة للاختبار إذا كنت لا تعرف ما الذي تلاحظه وكيف وإذا كنت لا تفهم الطبيعة الأساسية للمشكلة المطروحة وصولاً إلى عناصرها الرئيسية؟ (البساطة مخادعة كما سيظهر في الفصلين اللاحقين)

يبدأ المنهج العلمي بقاعدة واسعة للمعرفة ؛ أي فهم للحقائق وملاحم المشكلة التي تحاول معالجتها . ففي حالة هولمز في «دراسة في اللون القرمزي» ، يكمن الغموض وراء جريمة قتل في منزل

مهجور في حدائق لارستون . في حالتك ، ربما يكون تغيير وظيفة من عدمه قرار . بغض النظر عن القضية ، عليك تحديدها وتشكيلها في دماغك بشكل محدد قدر الإمكان ، ثم عليك ملؤها بتجارب سابقة وملاحظات حالية (كما عاتب هولمز ليستر يد وجريجسون عندما فشل المحققان في ملاحظة التشابه بين حالة القتل التي يتم البحث فيها وحالة أخرى مشابهة . «لا شيء جديد تحت الشمس ، كل شيء وسبق وأن حصل في وقت سابق»)

عندها فقط يمكنك الانتقال إلى نقطة توليد الفرضية . إنها اللحظة التي يشغل عندها المحقق خياله مولدًا خطوطًا ممكنة للتحقيق في مجرى الأحداث ولا يلتزم بالاحتمالية الأكثر وضوحًا فحسب - ففي «دراسة في اللون القرمزي» على سبيل المثال ، لم تكن هناك حاجة لتكون «راشي» اختصارًا لـ «راشيل» ، لكنها يمكن أن تدل على الانتقام بالألمانية - أو حيث يمكنك طرح السيناريوهات الممكنة والتي ربما تبرز من السعي للحصول على اتجاه عمل جديد لكنك لا تبدأ بوضع الفرضيات باتجاهات عشوائية فقط ، ذلك أن كل السيناريوهات والشروحات الممكنة تنبع من تلك القاعدة الرئيسية للمعرفة والملاحظة .

فقط بعد ذلك يمكنك اختبار الفرضية . ما الذي توحي به فرضيتك؟ عند هذه النقطة ، سيتفحص هولمز كافة خطوط التحقيق حادفًا واحدًا بعد الآخر حتى يبقى واحد يمثل الحقيقة . ستمر خلال سيناريوهات التغيير الوظيفي محاولاً ربط الانعكاسات باستنتاجاتها الكلية المنطقية ، وذلك أيضاً أمر يمكن التحكم به كما سترى لاحقاً .

ولكن حتى بعد هذا ، فأنت لم تنتهي بعد ذلك أن الوقت

يتغير والظروف كذلك . وتلك القاعدة المعرفية الأصلية يجب تحديثها دومًا . ولأن بيئتنا المحيطة تتغير ، علينا ألا ننسى مراجعة فرضياتنا وإعادة اختبارها . فإذا لم تكن حذرين ، يمكن أن يصبح الجذري غير ذي صلة . وعميق التفكير يمكن أن يصير غافلاً من خلال فشلنا في الحفاظ على الاندماج والتحدي والدفع .

باختصار ، ذلك هو المنهج العلمي : أي فهم المشكلة وتأطيرها ، والملاحظة ، والافتراض أو التخيل ، والاختبار والاستنتاج والإعادة . إن اتباع شارلوك هولمز يعني تعلم تطبيق ذلك المنهج ليس على الأمور الخارجية فحسب ، بل وعلى كافة أفكارك . ثم بعد ذلك أدرها وطبقها على كافة أفكار الآخرين الذين يمكن أن تشملهم خطوة بخطوة .

عندما يضع هولمز المبادئ النظرية لمنهجه ، فإنه يختصره في فكرة واحدة : «كم شخص ملاحظ ربما يتعلم من خلال الفحص الدقيق والمنهجي لكل ما يمر به» و«كل» تلك تتضمن كافة الأفكار ففي عالم هولمز لا يوجد شيء يؤخذ على علته كما الفكرة . وكما لاحظ قائلًا : «يمكن لعالم المنطق أن يستدل على احتمالية الأطلسي أو شلالات نياجارا دون رؤيتها أو السماع بها وذلك من خلال نقطة ماء» . بكلمات أخرى ، بالنظر إلى قاعدتنا المعرفية القائمة ، يمكننا استخدام الملاحظة لاستنتاج المعنى من حقيقة لا معنى لها . ذلك أنه أي نوع من العلماء ذاك الذي يفتقد القدرة على تخيل وافتراض الجديد والمجهول وغير المختبر بعد؟

إن هذا هو المنهج العلمي في أبسط صورته . ويذهب هولمز خطوة إلى ما وراء ذلك ، حيث يطبق ذات المبادئ على الكائنات البشرية . فالتلميذ الهولمزي «سوف يتعلم عند لقائه بكائن بشري

وبلمحة سريعة ربط تاريخ هذا الإنسان بالتجارة أو المهنة التي يقوم بها . ورغم أن هذه العملية تبدو صبيانية ، إلا أنها تشحذ القدرة على الملاحظة ، وتعلم الإنسان إلى أين ينظر وعن ماذا يبحث» فكل ملاحظة وكل تمرين وكل استنتاج بسيط مشتق من حقيقة بسيطة سيقوي قدرتك على الانخراط في مكائد أكثر تعقيداً ، وسوف يضع الأساس لعادات جديدة من التفكير ستجعل من هكذا ملاحظة طبيعة ثانية

إن ذلك تماماً ما علمه هولز لنفسه-ويمكنه الآن تعليمنا إياه- ذلك أنها في أبسط صورها ، أليست مناقشة المحقق؟ فهو لا يستطيع حل أصعب الجرائم فحسب ، لكنه يقوم بذلك مستخدماً منهجاً يبدو جيداً وأساسياً عندما تستخدمه بالشكل الصحيح . وهذا المنهج مستقر في العلوم وفي خطوات محددة وعادات التفكير التي يمكن تعليمها وحصادها وتطبيقها

يبدو كل ذلك جيداً من الناحية النظرية ، لكن كيف تبدأ؟ فالتفكير بشكل علمي دائماً يبدو مصدراً للإزعاج غير المتحمل ، أي أن يكون عليك دوماً الانتباه وتحليل الأشياء والملاحظة والافتراض والاستنتاج والقيام بكل الخطوات التي بينها . حسناً ، إن الأمر كذلك وليس كذلك على السواء . فمن ناحية ، لدى غالبيتنا طريق طويل لنقطعه . وكما سنرى ، فإن عقولنا غير مصممة للتفكير مثل هولز بشكل افتراضي . لكن من ناحية أخرى ، يمكن تعلم وتطبيق عادات التفكير الجديدة ، فعقولنا بارعة بشكل ملحوظ في تعلم طرق جديدة للتفكير . وروابطنا العصبية مرنة بشكل كبير حتى عند التقدم في العمر . وبتتبع تفكير هولز في الصفحات التالية ، سنتعلم كيفية تطبيق منهجه على حياتنا اليومية ، وكيف

نكون حاضرين ومنتبهين وتعامل مع كل اختيار ومشكلة وحالة
بالقدر من الاهتمام الذي تستحقه . سيبدو الأمر غير طبيعي في
البداية ، ولكن مع مضي الوقت ومواصلة الممارسة سيصبح طبيعة
ثانية لنا كما هو لهولز .

مأزق الدماغ غير المدرب

واحد من الأشياء التي تميز تفكير هولز والمثالية العلمية هو
وجود الشكوك الطبيعية والفضول إزاء العالم . فالأمور لا تؤخذ
بظواهرها ، وكل شيء قابل للتمحيص والتدريس ليتم قبوله أو
رفضه . ولسوء الحظ ، فإن أدمغتنا في وضعها الافتراضي تنفر من
هكذا نهج . ولأجل أن نفكر مثل شارلوك هولز ، علينا بداية التغلب
على نوع من المقاومة الطبيعية التي تسيطر على الطريقة التي نرى
بها العالم .

حاليًا ، يتفق غالبية علماء النفس على أن دماغنا يعمل على
أساس ثنائي النظام . النظام الأول سريع وبديهي وتفاعلي رجعي ،
أي مع وجود نوع من الحرب المستمرة أو يقظة الذهن وهو لا يتطلب
الكثير من الفكر الواعي أو الجهد والمهام كنوع من الحالة الراهنة .
أما النظام الثاني فهو أكثر بطئًا وتأنٍ وشمولية ومنطقية من الأول ،
لكنه أيضًا أكثر تكلفة من الناحية الإدراكية ، فهو يحب أن يضع
الأشياء جانبًا طالما كان في وسعه فعل ذلك ، ولا يتدخل ما لم
يكن على فناعة بأنه تدخله من الضرورة بمكان .

وبسبب التكلفة الذهنية لذلك النظام العاكس البارد ، فإننا
نمضي غالبية وقت تفكيرنا في النظام الانعكاسي الحار ، وذلك
بشكل رئيسي من أجل ضمان أن حالة مراقبنا الطبيعي تتخذ مزايا

ذلك النظام ، أي تلقائياً وحدثياً (وليس دائماً على حق) ، ورجعياً وسريع الحكم . وبطبيعة الحال ، نمضي نحن في هذا الطريق فقط عندما يلفت شيء ما انتباهنا بحق ، أو يجبرنا على التوقف وإلا يهزنا لنبدأ بالمعرفة متحولين إلى أكثر الصدف انعكاساً وعمقاً

سأتحدث عن ألقاب الأنظمة الخاصة بي : نظام واتسون ونظام هولز ، وبإمكانك أن تخمن عن أيهما أتحدث مفكراً في نظام واتسون كأنفسنا الساذجة حيث نعمل بواسطة عادات التفكير الكسولة التي نملكها - أي تلك التي تأتي بشكل طبيعي والمسماة بالطريق الأقل مقاومة- والتي نمضي حياتنا كاملة لاكتسابها . وفكر في نظام هولز كأنفسنا الطموحة ، تلك التي سنكونها عندما ننتهي من تعلم كيفية تطبيق منهجه في التفكير على حياتنا اليومية ، وبفعل هذا يتم الخروج عن عادات نظام واتسون لدينا مرة وللأبد .

عندما نفكر في أمر اعتيادي ، فإن ادمغتنا تكون مضبوطة مسبقاً لتقبل كل ما يأتي إليها . ففي البداية نصدق ، ثم يحدث وأن نتساءل عن هذه المدخلات . بعبارة أخرى ، إن الأمر كما لو كانت أدمغتنا ترى العالم في البداية على أنه اختبار صحيح/خاطئ ؛ إجابته الافتراضية دائماً هي صحيح . وبينما لا يتطلب الأمر أي نوع من الجهد للبقاء في وضعية «صحيح» ، فإن الانتقال بالإجابة إلى «خاطئ» يتطلب يقظة ووقتاً وطاقة .

يصف عالم النفس دانييل جيلبرت هذا الأمر كما يلي : على أدمغتنا أن تؤمن بالشيء قبل معالجته ، حتى ولو لجزء من الثانية تخيل أنني أطلب منك التفكير بفيلة زهرية اللون . أنت تعرف أن الفيلة الزهرية غير موجودة فعلاً ، لكنك عندما تقرأ العبارة ، يكون عليك للحظة أن ترسم صورة لفيل زهري في رأسك . وحتى تدرك

أن الفيل الزهري غير موجود ، عليك أن تصدق للحظة أنه موجود . ونحن نفهم ونصدق بذات الطريقة . وقد كان بينديكت دي سبينوزا أول من اعتقد بهذه الحاجة للقبول من أجل الاستيعاب . وقبل مئة عام من جيلبرت ، شرح ويليام جيمس المبدأ كالتالي : «إن كافة الطروحات ، وصفية كانت أم وجودية ، يمكن تصديقها إذا أمكن تصورها» . وبعد حدوث التصور يحدث عدم تصديقنا لشيء ما ، وكما يشير جيلبرت فإن ذلك الجزء من العملية يمكن أن يكون بعيداً كل البعد عن التلقائية .

في حالة الفيلة الزهرية ، فإن عملية النقص بسيطة ولا تتطلب الكثير من الجهد أو الوقت رغم أنها تتطلب من الدماغ جهداً أكثر لمعالجتها من ذلك الذي تتطلبه إن قلت لك فيلاً رمادياً ، وذلك لأن المعلومات المغايرة تتطلب تلك الخطوة الإضافية للقيام بالتحقق من صحة المعلومة . لكن ذلك ليس صحيحاً دائماً ، فليس كل شيء واضحاً كما الفيل الزهري . الأمر يعتمد على مدى تعقيد مفهوم أو فكرة ، ومدى وضوح صحتها من عدمه . (لا توجد أفاعي سامة في ولاية ماين . صح أم خطأ؟ لكن حتى هذا يمكن التحقق منه في الواقع . ماذا بالنسبة لجملة : عقوبة الإعدام ليست قاسية كالسجن مدى الحياة . ماذا الآن؟) ، إن الأمر يتطلب جهداً أكبر هنا . ولا تتطلب العملية الكثير لتعطل أو لتحدث بشكل كلي متكامل ، مما يعني أن ذلك أمر من السهل بمكان . فإذا قررنا مثلاً أن العبارة تبدو معقولة بما فيه الكفاية كما في (بالتأكيد ، لا توجد أفاعي سامة في ماين ، لم لا؟) ، فإننا نكون أكثر عرضة لثلاثا نسمح للأمر بالمرور . كذلك الأمر إذا كنا مشغولين أو متوترين أو مشتتين أو مستنزفين عقلياً ، فربما نبقي على شيء ضمن تصنيف «صحيح» دون منح

أنفسنا الوقت للتحقق منه . فعندما تواجهنا مطالب متعددة ، فإن قدراتنا العقلية تكون ببساطة محدودة للغاية لتكون قادرة على التعامل مع كل شيء في ذات الوقت ، وعملية التحقق هي واحدة من الأشياء الأولى التي يجب القيام بها . عندما يحدث ذلك ، نظل في مواجهة المعتقدات غير المصححة ، تلك الأشياء التي سنتذكرها لاحقاً على أنها صحيحة بينما تكون في حقيقة الأمر خاطئة . (هل توجد أفاعي سامة في ماين؟ نعم ، على سبيل الحقيقة توجد . لكن إذا تم سؤالك خلال سنة ، فمن يعرف إذا كنت ستتذكر كذلك أو العكس ، خاصة إذا كنت متعباً أو مشتتاً عند قراءتك لهذه الفقرة)

الأكثر من ذلك هو أن ليس كل شيء أبيض وأسود - أو وردياً وأبيض ، كما قد تكون الحالة مع الفيل . وليس كل شيء يخبرنا حدسنا أنه أبيض وأسود يكون كذلك في الحقيقة ، فمن السهل بكان الخطأ في ذلك . في حقيقة الأمر ، إننا لا نصدق كل ما نسمعه فحسب ، على الأقل مبدئياً ، ولكن حتى عندما يتم إخبارنا بكل وضوح أن عبارة ما خاطئة قبل أن نسمعها ، فإنه من المحتمل أن نتعامل معها على أنها صحيحة . على سبيل المثال ، في شيء يعرف بتحيز المراسلات (وهو مفهوم سنعود له بالتفصيل) ، فإننا نفترض أن ما يقوله شخص ما هو ما يؤمن به فعلاً ، ونتمسك بذلك الافتراض حتى وإن تم إخبارنا بكل وضوح بأنه ليس كذلك ، حتى أنه من المحتمل أن نحكم على المتحدث في ضوء ذلك . بالعودة إلى الفقرة السابقة ، هل تعتقد أن ما كتبتة عن عقوبة الإعدام هو اعتقادي الشخصي؟ ليس لديك أي أساس لتعتمد عليه في إجابة ذلك السؤال ، فأنا لم أعطيك رأبي ، ولكن

تبقى الفرصة أنك تعاملت مع عبارتي على أنها رأيي الشخصي .
الأكثر إزعاجاً هو أنه حتى عندما نسمع شيئاً منفيًا - على سبيل
المثال ، ليس ل جو علاقة بالمافيا ، وربما ينتهي بنا المطاف بسوء تذكر
العبرة كفقدان أداة النفي ، وبالتالي ينتهي بنا الأمر بالاعتقاد بان ل
جو علاقة بالمافيا . وحتى إن لم نفعل ذلك ، فإنه من المحتمل أن
تتكون لدينا صورة سلبية عن جو . حتى أننا ربما نوصي بسجنه
لفترة طويلة إن تم وضعنا في لجنة تحكيم . إن ميلنا للتأكيد والاعتقاد
بسهولة بالغة غالباً له نتائج وانعكاسات حقيقية علينا وعلى
الآخرين .

تمثل حيلة هولز في التعامل مع كل فكرة وتجربة وملاحظة
بالطريقة التي يتم التعامل بها مع الفيل الزهري . بعبارة أخرى ، ابدأ
بجرعة صحية من الشكوك بدلاً من سرعة التصديق المتأصلة في
دماغك . لا تفترض فقط أي شيء بالطريقة التي هو عليها ، بل
فكر في كل شيء كما لو كان غريباً ولا معقول كحيوان لا توجد
احتمالية لوجوده في الطبيعة . إنها مسألة صعبة - خاصة التعامل
مع كل ذلك مرة واحدة- ، فبعد كل شيء إنه ذات الشيء كالطلب
من دماغك أن ينتقل من حالة الاستراحة الطبيعية إلى حالة من
النشاط المستمر مستهلكاً بذلك طاقة مهمة حتى حيثما يتشاءب
في الوضع الطبيعي . قل حسناً وانتقل إلى الشيء التالي ، ولكن
ليس شيئاً مستحيلاً خاصة إذا كان شارلوك هولز إلى جانبك .
ذلك أنه ، ربما أفضل من أي شخص آخر ، يمكنه أن يكون بمثابة
رفيق موثوق ونموذج دائم الحضور لكيفية إنجاز ما قد يبدو مهمة
عسيرة من النظرة الأولى إليه .

وبمراقبة هولز أثناء العمل ، سنصبح أفضل في مراقبة عقولنا

«كيف عرف ذلك الشيطان أنني من أفغانستان؟»، سأل واتسون ستامفورد ، الرجل الذي قدمه لهولمز المرة الأولى .

يبتسم ستامفورد بشكل محير مخبراً واتسون : «إنها مجرد خصوصيته . الكثيرون أرادوا معرفة كيف يرى الأمور» .

لقد زادت تلك الإجابة من فضول واتسون . إنه الفضول الذي لا يمكن تلبيته إلا عبر ملاحظة طويلة ومفصلة يأخذها على عاتقه فوراً .

بالنسبة لشارلوك هولمز ، أصبح العالم فيلاً زهرياً بشكل افتراضي . بكلمات أخرى ، إنه عالم يتم فيه اختبار كل مدخل بذات الاهتمام والشك الصحي الذي يتم به اختبار أكثر الحيوانات لا معقولية . وفي نهاية هذا الكتاب ، إذا سألت نفسك السؤال البسيط التالي : ماذا كان شارلوك هولمز سيعتصر في هذه الحالة ؟ ، فإنك ستجد أن عالمك الخاص في طريقه ليكون واحداً أيضاً . وتلك الأفكار التي لم يسبق لك وأن أدركت وجودها ، يتم التوقف عندها والتشكيك بها قبل السماح لها بالتسلل إلى دماغك . وتلك الأفكار ذاتها والمصفية بشكل صحيح ، لا يمكنها أن تؤثر ببراعة على تصرفك دون معرفتك . فمثلاً ، لن تعتقد على الإطلاق بأنك تعد في الوقت الذي تقوم فيه فعلياً بهذا الشيء .

تماماً كعضلة لم تكن تدرك بأنها موجودة لديك - بدأت فجأة بالتسبب بألم يزداد ويتطور عندما تبدأ باستخدامها في ممارسة تمارين جديدة-سيرى دماغك من خلال الممارسة أن الملاحظة الدائمة والتدقيق اللامنتهي ستصبح أكثر سهولة . (في الحقيقة ، وكما ستتعلم لاحقاً في هذا الكتاب ، إنها فعلياً كعضلة وستصبح طبيعة ثانية كما هي لشارلوك هولمز . ستبدأ بالاستشعار والاستنتاج

والتفكير كأمر طبيعي ، وستجد أنه لن يعد عليك إعطاء الأمر المزيد من الجهد المقصود)

لا تعتقد ولو للحظة أنه لا يمكن القيام بهذا . فقد يكون هولمز خياليًا ، لكن جوزيف بيل كان واقعياً للغاية ، وكذلك الأمر بالنسبة لكونان دويل (ولم يكن جورج إيدلجي المستفيد الوحيد من نهجه . فالسيد آرثر عمل أيضاً على نقض أحكام الإدانة الصادرة بحق أوسكار سلانتر والذي تم حبسه زوراً) .

ربما يكون شارلوك هولمز يستولي على عقولنا لسبب بسيط هو أنه يجعل من الممكن بمكان التفكير بطريقة تجعل الشخص العادي منهكاً دون بذل جهد كبير في ذلك . فهو يجعل أكثر المناهج العلمية في التفكير صرامة تبدو سهلة المنال . لذلك لم يأتي التعجب الدائم لواتسون بعد أن يعطيه هولمز توضيحاً لمناهجه من فراغ حين كان يعلن أن ذلك الشيء الذي كان يتحدث عنه كان لا يمكن توضيحه بشكل أكبر على الإطلاق . رغم ذلك ، وعلى العكس من واتسون ، يمكننا تعلم رؤية الوضوح قبل الحقيقة .

التنبية الذهني والتحفيز

لن يكون هذا من السهل بمكان . وكما يذكرنا هولمز ، «ككل الفنون الأخرى ، إن علم الاستنتاج والتحليل هو علم يمكن اكتسابه من خلال دراسة طويلة متأنية رغم أن الحياة ليست طويلة بما فيه الكفاية للسماح لأي كائن بشري بالحصول على أعلى درجات الكمال فيها» . ولكن الأمر أيضاً أكثر من مجرد وهم ، فبالأساس يتعلق الأمر بصيغة واحدة بسيطة : الانتقال من نظام واتسون إلى نظام هولمز ، فالتفكير المحكم يتطلب التحفيز والتنبية الذهني

(والكثير من الممارسة) . إن تنبيه الذهن ، بمعنى الوجود المستمر للذهن ، أي يقظته ، وكذلك الانتباه الضروري جداً لتحقيق ملاحظة حقيقية ونشطة للعالم . أما التحفيز فيكمن في المشاركة الفعالة والرغبة

عندما نقوم بأشياء غير ملحوظة كوضع المفاتيح في غير موضعها أو فقدان نظاراتنا لنجدها على رأسنا ، فإن الملام هو نظام واتسون . ذلك أننا نذهب في نوع من الطيران الآلي دون أن نلاحظ أفعالنا أثناء قيامنا بها . ولهذا فإننا غالباً ما ننسى ما الذي كنا نقوم به إذا قاطعنا أحدهم ، أو لماذا نقف في منتصف المطبخ متسائلين عن سبب دخولنا إياه . يقدم نظام هولمز نوعاً من الرجوع بالخطوات يتطلب تذكرًا بانتباه . لذلك فإننا نقطع الطيران الآلي ونتذكر أين ولماذا قمنا بما قمنا به . ونحن غير متحفزين ولا يقظين طوال الوقت ، وهذا الأسر لا يهم عادة . إننا نقوم بالأشياء عن غفلة منا لنحافظ على مواردنا الذهنية لأشياء أكثر أهمية من تذكر مكان المفاتيح

وللانفصال عن وضع الطيران الآلي ، علينا أن نكون متحفزين للتفكير بطريقة يقظة وعلى أتم الجاهزية ، وأن نبذل جهداً على ما يجري في رؤوسنا بدلاً من الانجراف مع التيار . وللتفكير مثل شارلوك هولمز علينا أن نرغب حقاً بالتفكير مثله . في حقيقة الأمر ، إن التحفيز مهم للغاية حتى أن الباحثين كثيراً ما عبروا عن استيائهم من صعوبة الحصول على مقارنات دقيقة للأداء فيما يتعلق بالمهام الإدراكية للمشاركين الكبار والصغار . لماذا؟ لأن الكبار عادة ما يكونون أكثر دافعية للأداء الجيد . إنهم يحاولون بجد ، وينخرطون في العملية بشكل أكبر ، وهم أكثر جدية وحضوراً واندماجاً . بالنسبة لهم ، يعد الأداء من الأهمية بمكان ، فهو يعكس

قدراتهم العقلية ، وهم يسعون لإثبات أنهم لم يفقدوا لمساتهم مع تقدم العمر بهم . أما الشباب الأصغر سنًا فهم ليسوا كذلك ، وليس هناك حاجة للمقارنة بين الفئتين . فكيف يمكنك مقارنة المجموعتين بدقة؟ ذلك هو السؤال الذي يواصل اقتحام البحوث في مجال الشيخوخة والوظائف الإدراكية .

لكن ذلك ليس المجال المهم الوحيد . فالمتحفزون يتفوقون دائمًا على سبيل المثال ، يكون أداء الطلاب المتحفزين أفضل في شيء يبدو غير قابل للتغيير كاختبار الذكاء ، وهو بالمعدل بما يصل إلى انحراف معياري أفضل بـ ٠,٠٦٤ ، ليس كذلك فحسب ، لكن التحفيز يتنبأ بأداء أكاديمي أعلى ، وإدانات جنائية أقل ، ومخرجات توظيفية أفضل . أما الأطفال الذين لديهم «شهوة الإتقان» - وهو مصطلح ابتدعته إيلين وينير لوصف الدوافع الذاتية لإتقان مجال محدد- يكونون أكثر احتمالية ليكونوا ناجحين في أي عدد من المساعي التي يقومون بها ، من الفنون حتى العلوم . وإذا لم تكن متحفزين لتعلم لغة ، فإن احتمالية نجاحنا في تحقيق هذا المراد تكون كبيرة . لذلك ، عندما نتعلم أي شيء جديد ، فإن تعلمنا يكون أفضل إذا كنا متعلمين متحفزين . حتى ذاكرتنا تعرف فيما إذا كنا متحفزين أم لا ، فنحن نتذكر بشكل أفضل إذا كنا متحفزين في الوقت الذي شكلت عنده الذاكرة ، وهذا يسمى بالترميز المحفز .

ثم وبطبيعة الحال توجد تلك القطعة الأخيرة من اللغز ، إنها الممارسة ، الممارسة ، الممارسة . حيث يتوجب عليك دعم حافظيتك بالتدريب المكثف لآلاف الساعات . لا توجد وسيلة أخرى لذلك . فكر في ظاهرة المعرفة المتخصصة ، فالخبراء في كل الحقول من

لاعبى الشطرنج المميزين إلى المحققين المميزين لديهم ذاكرة متفوقة في حقولهم . فمعرفة هولز بالجريمة ، مثلاً ، تحت تصرفه . ولاعب الشطرنج عادة ما يحمل مئات الألعاب بكل الحركات الخاصة بها في رأسه ويكون على استعداد للوصول السريع لها . يقول عالم النفس ك . أندرز إريكسون أنه حتى الخبراء يرون العالم بطريقة مختلفة ضمان مجال خبرتهم ، فهم يرون أشياء غير مرئية للمبتدئين ، وهم قادرون على التمييز بين الأنماط من الوهلة الأولى ، والتي تكون غير واضحة للعين. غير المدربة . إنهم يرون التفاصيل كجزء من كل ، ويعرفون مباشرة ما هو ضروري من ذلك العرضي . وحتى هولز لم يكن بإمكانه بدء حياته مع نظام هولز جاهزاً أمامه . وكن على يقين بأنه ولد في عالمه الخيالي كما نولد نحن مع وجود واتسون مسيطراً . ما حدث هو أنه لم يسمح لنفسه بالبقاء هناك ، حيث أخذ نظام واتسون ودرسه ليصير يعمل وفق قانون هولز ، فارضاً بذلك فكراً عاكساً حيث يفترض أن يكون فعل انعكاسي .

في أغلب الأحيان ، يعد نظام واتسون النظام الاعتيادي . لكن إذا كنا مدركين لقدرته ، فيمكننا ضمان ألا يكون في مجال السيطرة بقدر ما كان سيكونه . كما يدون هولز غالباً ، لقد جعل من دمج نظامه في كل لحظة من لحظات الحياة اليومية عادة من عاداته . بفعل هذا ، يكون قد درب واتسون الداخلي الخاص به ، والذي هو متسرع في إصدار الأحكام ، على أداء مهامه بالطريقة التي يقوم بها هولز الخارجي ، وهذا التدريب كان بطيئاً . ومن خلال القوة المطلقة للعادة والإرادة - قام بتدريس أحكامه الفورية اتباع قطار الفكر لنهج أكثر انعكاسية بكثير . ولأن هذا الأساس موجود فعلاً ،

فقد استغرق الأمر منه بعض ثوانٍ فقط لإبداء ملاحظاته الأولية عن شخصية واتسون . ولذلك يسميها هولمز بالبديهة . فالبديهة الحقيقية هي التي يمتلكها هولمز ، وهي مبنية على التدريب لساعات وساعات . ربما لا يدرك أي خبير دائماً وعن وعي من أين تأتي ، لكنها تأتي من بعض العادات ، مرثية كانت أم لا . ما قام به هولمز هو توضيح العملية ، كيف يمكن أن يصبح الساخن بارداً ، والانعكاسي عاكساً؟ وهذا ما يسميه اريكسون بالمعرفة المتخصصة ؛ أي تلك القدرة التي تولد من ممارسة موسعة ومكثفة وليس من العبقرية الفطرية . ليس الأمر أن هولمز ولد ليكون المحقق المستشار ولينتهي كافة الاستشارات العالقة في مجال التحقيق ، بل إنه مارس منهجه اليقظ على العالم ، وتمكن بمرور الوقت من إتقان فنه إلى المستوى الذي نجهده .

ومع اقتراب قضيتهما المشتركة الأولى على الانتهاء ، يمدح الدكتور واتسون رفيقه الجديد لإنجازهِ البارِع قائلاً : «لقد جعلت التحري يقترب من أن يكون علماً دقيقاً . إنها مجاملة كبيرة في الواقع ، وستتعلم في الصفحات التالية كيف تقوم بتطبيق نفس الشيء على كافة أفكارك من بداياتها الأولى كما فعل آرثر كونان دويل في دفاعه عن جورج إيديلجي ، وكما فعل جوزيف بيل في تشخيصه للمرضى .

جاء شارلوك هولمز في وقت كان فيه علم النفس لا يزال في بداياته ، ونحن مجهزون بشكل أفضل مما كان يمكن أن يكون في أي وقت مضى .

الفصل الثاني علية الدماغ: ما هي؟

وماذا ينطوي تحتها؟

إن واحدة من أكثر الأفكار انتشاراً عن شارلوك هولمز هي تجاهله المفترض لنظرية كوبرنيكوس . حيث قال مخاطباً واتسون في (دراسة في اللون القرمزي) : «أي لعنة تلك التي يشكلها النظام الشمسي بالنسبة لي؟ أنت تقول إننا ندور حول الشمس . فإذا ما درنا حول القمر فإن ذلك لن يشكل فرقاً بالنسبة لي ولعملي» . ووعده قائلاً : «سأفعل ما بوسعي لنسيانها» .

إنه من الممتع حقاً شحذ ذلك التناقض بين التحري الذي يفوق طاقة البشر والإخفاق في فهم حقيقة في غاية البساطة حتى أن بإمكان الطفل فهمها . ويعتبر الجهل بالنظام الشمسي شيئاً يتم تجاوزه تماماً بالنسبة لشخص ربما يستوعب أمراً كنموذج المنهج العلمي . أليس كذلك؟ وحتى سلسلة بي بي سي ، فإن شارلوك لا يستطيع إلا وأن يستخدمها كنقطة محورية في واحدة من فصولها .

لكن هناك شيئين حول ذلك يتحملان المزيد من الإشارة لهما . الأول أنه ليس صحيحاً بالمعنى الدقيق للكلمة . فراقب مثلاً إشارة هولمز المتكررة لعلم الفلك في القصص المستقبلية . ففي «طقوس موسغريف» نجده يتحدث عن «مخصصات للمعادلات الشخصية كما يتلقاها علماء الفلك» ، وفي «الترجم الإغريقي»

يتحدث عن «انحراف مسار الشمس» ، وفي «خطط بروس-
بارتينغتون» يتحدث عن «كوكب يغادر مداره» . في الواقع ،
يستخدم هولمز فعليًا تقريبًا كل المعرفة التي ينفي وجودها في
المراحل الأولى من صداقته مع دكتور واتسون . وتنتهي سلسلة بي
بي سي بملاحظة عن الانتصار العلمي : بعد كل شيء ، هولمز
يعرف علم الفلك ، وهذه المعرفة توفر الوقت وتنقذ حياة صبي
صغير)

في حقيقة الأمر ، يمكنني أن أزعم بأنه يبالي في تجاهله على
وجه التحديد من أجل أن يلفت انتباهنا لثانية لأمر ما . إن رفضه
المفترض لإلزام النظام الشمسي بالذاكرة يساعد في توضيح قياس
للعقل البشري والتي ستثبت أنها مركزية لتفكير هولمز ولقدرتنا على
محاكاة منهجه . وكما يخبر هولمز واتسون بعد لحظات من حادثة
كوبرنيكس : «أعتبر أن دماغ الإنسان في الأصل عليّة صغيرة
فارغة ، وعليك حشوها بالأثاث الذي تختاره»

عندما سمعت مصطلح «عليّة الدماغ» للمرة الأولى -في أيام
ضوء النار والغلاف القرمزي القديم- ، كان كل ما استطعت تصوره
في رأسي ذي الأعوام السبعة هو غلاف كتاب شيل سلفرستين
بالأبيض والأسود والذي كان موضوعًا بشكل واضح على رف
الكتب الخاص بي . حيث كان يظهر وجهه غير المتوازن والذي
يبتسم نصف ابتسامة وجبهته المنتفخة بثلاث التجاعيد التي
تجتاحها ، ومن خلف مصراع النافذة يطل وجه صغير على العالم
هل ذلك ما قصده هولمز؟ غرفة صغيرة ذات جوانب مائلة وكائن
غريب بوجه مضحك ينتظر سحب الحبل وتشغيل الضوء أو
إطفاءه .

وكما يتضح ، لم أكن بعيدة عن الخطأ . بالنسبة لشارلوك هولمز ، إن عليّة الدماغ لشخص ما هي شيء ملموس بشكل لا يصدق ، أي أنه فضاء مادي ربما يكون له مدخنة وربما لا . ولكن أيّا كان الأمر ، إنه فضاء في رأسك مصمم خصيصاً لتخزين أكثر الأشياء تبايناً . نعم ، يوجد حتماً حبل يمكنك سحبه من أجل إضاءة الضوء أو إطفائه متى ما شئت . وكما يوضح هولمز لواتسون : «يأخذ الجاهل كل سقط المتاع من شيء يصادفه ، وهكذا تزدهم المعرفة التي ربما تكون مفيدة خارجاً أو في أحسن الأحوال تندمج مع الكثير من الأشياء الأخرى ، ذلك أن لديه صعوبة في وضع يديه عليه . والشخص الماهر في حقيقة الأمر حذر جداً فيما يتعلق بما يضعه في عليّة دماغه» .

كما يتبين ، تلك المقارنة دقيقة تماماً . وكما ستري قريباً ، أثبتت أبحاث لاحقة حول تشكيل الذاكرة واستبقائها واسترجاعها نفسها أنها قابلة لتشبيهه العلية . في الفصول اللاحقة ، سنتعقب دور عليّة الدماغ من بدايتها حتى تتويج عملية التفكير مستكشفين كيف تعمل هيكليتها ومحتواها عند كل نقطة ، وما الذي يمكننا القيام به لتحسين ذلك العمل على أساس منتظم .

وبشكل عام ، يمكن تجزئة عليّة الدماغ إلى مكونين رئيسيين : الهيكلية والمحتوى . إن هيكلية عليّة الدماغ هي الكيفية التي يعمل بها دماغنا : أي كيف يستوعب المعلومات ويعالجها ويصنفها ويخزنها للمستقبل . وكذلك كيف يمكنه اختيار فيما إذا كان سيدمجها أم لا بالمحتويات الموجودة فعلياً في فضاء العلية . وعلى العكس من العلية المادية ، إن هيكلية عليّة الدماغ ليست ثابتة بالإجمال . حيث يمكنها التوسع وإن كان ذلك التوسع إلى أجل غير

مسمى ، أو يمكنه الانكماش ؛ بناء على كيفية استخدامنا له (بكلمات أخرى ، إن ذاكرتنا ومعالجة المعلومات يمكن أن تصبح أكثر أو أقل فعالية) . حيث يمكنها تغيير وضع استرجاع المعلومات الخاص بها (فكيف أستعيد معلومات قمت بتخزينها؟) ويمكن للذاكرة تغيير نظام التخزين الخاص بها (كيف يمكنني إيداع معلومات قمت باستيعابها : أين ستذهب؟ كيف يمكن تمييزها؟ وكيف يمكن دمجها؟) في نهاية المطاف ، لا بد لها أن تبقى ضمن حدود محددة - وكل علية دماغ هي ، مرة أخرى ، مختلفة عن العليات الأخرى وتخضع لمحدداتها الخاصة-ولكن ضمن هذه الحدود يمكنها استيعاب أي عدد من التشكيلات ، بناء على كيفية تعاملنا معها .

من ناحية أخرى ، محتويات علية الدماغ هي تلك الأشياء التي أخذناها من العالم الذي نعيش فيه ، أي ذكرياتنا وماضينا وقاعدتنا المعرفية والمعلومات التي نبدأ بها كل مرة يواجهنا فيها تحدي جديد . وكما أنه يمكن للمحتويات المادية لعية الدماغ أن تتغير مع مرور الوقت ، تواصل العلية استيعاب وتجاهل العناصر حتى النهاية . عندما تبدأ عملية التفكير ، يتحد أثار الذاكرة مع هيكلية العادات الداخلية والظروف الخارجية من أجل تحديد أي البنود سيتم استردادها من التخزين عند أي نقطة . أصبح تخمين محتويات علية الدماغ لشخص ما من مظهره الخارجي واحداً من أضمن الطرق التي يستخدمها شارلوك لتحديد هوية الشخص وما يقدر على فعله .

كما رأينا سابقاً ، غالبية الاستيعاب الأصلي يكون خارج سيطرتنا . مثل أنه علينا تصور فيل زهري لنذكر أنه غير موجود .

فليس بوسعنا إلا وأن نصبح على بينة - حتى ولو لأشد اللحظات
اختصاراً - من طريقة عمل النظام الشمسي أو كتابات كارليل
والتي يختار واتسون ذكرها لنا . ويمكننا-على الرغم من ذلك-تعلم
إتقان العديد من معالم هيكلية علية دماغنا متخلصين من الخردة
التي تم دخولها بالخطأ (كما يعد هولمز بنسيان كوبرنيكوس في أقرب
فرصة ممكنة) مع إعطاء الأولوية لتلك الأشياء التي نريد استيعابها
ودحر تلك التي لا نريدها ، وتعلم كيفية اتخاذ الملامح العامة لعلية
الدماغ الفريدة بعين الاعتبار بحيث لا تؤثر علينا بصورة غير
ملائمة .

في حين أننا ربما لا نصبح بارعين تماماً كما الخبير فيما يتعلق
بالتكهن بالأفكار الأعمق لإنسان ما من عالمه الخارجي ، فإننا في
تعلم فهم تصميم عليات دماغنا ووظائفها نأخذ الخطوة الأولى
لنصبح أفضل في استغلال خصائصه إلى أقصى إمكاناتها .
وبكلمات أخرى ، تعلم كيفية تحسين عملية التفكير لأقصى درجة
ممكنة بحيث نبدأ في أي قرار أو تصرف بقصارى جهدنا . إن
هيكلية ومحتويات علية دماغنا ليست موجودة لأنه يتوجب علينا
التفكير بتلك الطريقة ، ولكن لأننا تعلمنا على مر الزمن وبالممارسة
المتكررة (غالباً غير معروفة ، ولكنها مع ذلك ممارسة) بالتفكير بتلك
الطريقة . لقد قررنا ، عند مستوى معين ، بأن الانتباه الواعي لا
يستحق كل هذا الجهد . واخترنا الفعالية على العمق ، وقد يستغرق
هذا الأمر طويلاً ، ولكن يمكننا تعلم التفكير بطريقة مختلفة

قد تكون البنية الأساسية موجودة من أجل الخير ، لكن يمكننا
تعلم تبديل روابطها الدقيقة ولبناتها الأساسية ، وذلك التبديل
سيعيد فعلياً بناء علية الدماغ ، وإذا جاز التعبير سيتم تجديد روابطنا

العصبية ونحن نغير عادات التفكير الخاصة بنا . وكما هو الحال مع أي عملية ترميم ، فإن بعض الإصلاحات الكبرى ربما تستغرق بعض الوقت . فلا يمكنك إعادة بناء عليّة الدماغ في يوم واحد ، لكن بعض التغييرات البسيطة من المحتمل أن يبدأ ظهورها خلال أيام وحتى ساعات . وسيتم هذا الأمر بغض النظر عن عمر عليّة دماغك والمدة التي مرت منذ أن حصلت على التنظيف السليم . بكلمات أخرى ، بإمكان أدمغتنا تعلم مهارات جديدة بشكل سريع - ويمكنها الاستمرار بذلك طوال حياتنا ، وليس فقط عندما كنا صغاراً . أما بالنسبة للمحتويات ، فلأن بعضها وجد ليدوم ، يمكننا أن نكون انتقائيين إزاء ما نحافظ عليه في المستقبل -ويمكننا تعلم تنظيم عليّة الدماغ بحيث تكون المحتويات التي نريدها هي الأسهل للوصول ، وتلك ذات القيمة الأقل بالنسبة لنا أو التي نريد تجنبها ننتقل إلى الزوايا . ربما لا نخرج بعليّة دماغ مختلفة تماماً . لكن يمكننا بكل تأكيد الخروج بواحدة تشبه عليّة هولز بشكل كبير .

أثبات الذاكرة

في ذات اليوم الذي تعلم فيه واتسون لأول مرة عن نظريات صديقه حول الاستنتاج - كل تلك الشلالات الناتجة من قطرة ماء وهلم جرا- قُدم له دليلاً أكثر إقناعاً عن قوتها ، وهو تطبيقها على جريمة قتل محيرة . بينما كان الرجلان جالسين يناقشان مقالة هولز ، قاطعتهما رسالة من الشرطة البريطانية طلب فيها المفتش توبياس جريجسون رأي هولز بشأن لغز قضية . فقد وجد رجل ميتاً ومع ذلك «لم يكن هناك سرقة ولا أي دليل عن كيفية موت الضحية . كانت هناك آثار دم في الغرفة ، ولكن لم تكن هناك آثار

جروح على جسد الميت» ويتابع جريجسون التماسه قائلاً: «إننا في حيرة شديدة بشأن كيفية قدومه إلى المنزل الفارغ . في الواقع ، القضية كلها لغز» . ودون المزيد من افتعال الضجة ، يغادر هولمز إلى حدائق لاريستون وواتسون برفقته

هل القضية غريبة بذلك القدر؟ يبدو أن جريجسون وزميله المفتش ليستر يدعتقدان ذلك . يقول ليستر يد : «إن هذا يخالف أي شيء رأيته ، ولكنني لست خائفاً .» لا توجد أدنى فكرة تلوح في الأفق ، ولكن مع ذلك لدى هولمز فكرة ، حيث يخبر رجلي الشرطة قائلاً : «بطبيعة الحال ، إن هذا الدم لشخص آخر ربما يكون القاتل إذا تم ارتكاب جريمة قتل . إنه يذكرنا بالظروف المصاحبة لوفاة فان جانسين في مدينة أوترينخت في العام ٣٤ ، هل تتذكر القضية يا جريجسون؟» جريجسون يعترف بأنه لا يتذكر ذلك .

يقول هولمز : «اقرأ الأمر بتمهل ، عليك فعل ذلك . فلا شيء جديد تحت الشمس ، كل شيء سبق وأن حدث مسبقاً» .

لماذا يتذكر هولمز فان جانسين بينما لا يفعل جريجسون؟ ربما يكون الرجلان وعند نقطة معينة قد اطلعا على ذات الظروف -فبعد كل شيء ، جريجسون قد خضع لتدريب مكثف لمنصبه الحالي - ومع ذلك احتفظ واحد منهما بها لأجل استخدامه بينما تبخرت لدى الآخر لتختفي للأبد .

يتعلق كل الأمر بطبيعة عليا الدماغ . فنظام واتسون الافتراضي لدينا بشأن عليا الدماغ قد اعتراه الوهن وصار غير ذي قيمة إلى حد كبير . ربما يكون جريجسون قد عرف عن فان جانسين ذات مرة ولكنه افتقر إلى الحافز المطلوب والحضور للاحتفاظ به . لماذا عليه الاكتراث للقضايا القديمة؟ مع ذلك يتخذ هولمز خياراً واعياً

لتذكر قضايا ماضية لا يعرف متى تتكرر . وفي علية الدماغ بالنسبة له ، فإن المعرفة لا تضيع . لقد اتخذ قراراً متعمداً بأن هذه التفاصيل تهم بينما لم يفعل جريجسون . وبدوره أثر ذلك القرار على كيف ومتى وماذا يتذكر .

إن ذاكرتنا بدرجة كبيرة هي نقطة البداية لكيفية تفكيرنا ، وكيفية تشكل خياراتنا ، وكيفية اتخاذنا القرارات . وما يميز دماغاً منظماً بطريقة ما عن واحد مطابق آخر هو محتوى علية الدماغ . وما يعنيه هولمز عندما يتحدث عن تزويد علية دماغك بالأثاث المناسب هو الحاجة للاختيار الحذر للتجارب والذكريات وجوانب حياتك التي تود الإبقاء عليها إلى ما بعد لحظة حدوثها (عليه أن يعرف أنه لم يكن ليوجد كما نعرفه ما لم يستذكر آرثر كونان دويل تجاربه مع الدكتور جوزيف بيل في خلق محققه الخيالي) . وهو يعني أنه بالنسبة لمفتش الشرطة سيكون من الجيد تذكر القضايا السابقة حتى تلك التي تبدو غامضة ، فأليست تعتبر بطريقة أو أخرى أكثر القواعد المعرفية أهمية لمهنته؟

في بدايات البحث ، كان يعتقد أن الذاكرة تملأ بما يسمى الانغرامز ، وهي آثار الذاكرة الموضوعية في أجزاء محددة من الدماغ . ولتحديد موقع انغرام - للذاكرة من متاهة - ، فإن عالم النفس كارل لاشلي علم الفئران كيفية الركض في متاهة ، ثم استأصل أجزاء عديدة من نسيجها الدماغى وأعادها إلى المتاهة . على الرغم من تراجع الوظائف الحركية للفئران حتى أنه كان على بعضها الزحف أو المشي بعرج في طريقها خلال التحولات والانعطافات ، إلا أنها لم تنسى طريقها ؛ بما قاد لاشلي للتوصل إلى نتيجة مفادها أنه لم يكن هناك مكان واحد خزن ذاكرة معينة . بدلاً من ذلك

كانت الذاكرة موزعة على نطاق واسع في شبكة عصبية متصلة - شبكة تبدو اعتيادية بالنسبة لهولمز .

أما اليوم فإنه من المتفق عليه عمومًا أن الذاكرة مقسمة إلى نظامين : أحدهما قصير المدى والآخر طويل المدى ، وبينما تبقى الآليات الدقيقة للنظامين نظرية ، فإن وجهة نظر تشبه عليه الدماغ - وإن كان نوع العلية هذه محددًا جدًا - ربما لا تكون بعيدة عن الحقيقة . عندما نرى شيئًا ما ، يقوم الدماغ بداية بترميزه ثم تخزينه في الحُصين - فكر فيه على أنه أول نقطة دخول لعلية الدماغ حيث تضع كل شيء قبل أن تعرف فيما إذا كنت ستحتاج لاستعادته أم لا . من هناك ستنتقل الأشياء التي ربما تعتبرها مهمة أو تلك التي يقرر دماغك بأنها تستحق التخزين ، بناء على تجارب سابقة وتوجهاتك الماضية (على سبيل المثال ، تلك التي تعتبرها مهمة في الوضع الطبيعي) ، ستنتقل إلى صندوق محدد في علية الدماغ ، وإلى مجلد محدد في حجرة محددة موجودة في القشرة المخية - الجزء الأكبر من المساحة التخزينية لعلية دماغك ، ذاكرتك طويلة المدى . ويسمى هذا بالاندماج . عندما تحتاج إلى تذكر شيء محدد تم تخزينه ، فإن دماغك يتوجه نحو الملف الصحيح ويسحبه للخارج . ويحدث أحيانًا أن يقوم الدماغ بسحب الملف المجاور له أيضًا مفعلاً بذلك محتويات الصندوق بأكمله أو كل ما يجاوره ، وهذا هو التفعيل الترابطي . يحدث أحيانًا أن ينزلق الملف ، وفي الوقت الذي تخرجه فيه إلى الحقيقة ، تكون محتوياته قد تغيرت منذ اللحظة الأولى التي وضعتها عندها بداخله ، وربما لا تكون مدركًا لهذا التغيير الذي حصل . على أي حال ، فإنك تلقي نظرة ، ثم تضيف أي شيء جديد يبدو على صلة بالموضوع ، ثم تضعه في

مكانه بشكله المتغير . تسمى هذه الخطوات باسترجاع المعلومات وإعادة الوحدة ، على التوالي .

إن التفاصيل ليست بأهمية الفكرة العامة . فبعض الأشياء يتم تخزينها ، وبعضها الآخر يتم التخلص منها قبل وصولها على الدماغ الرئيسية . أما ما يتم تخزينه فيتم تنظيمه بناء على نظام ترابطي - حيث يقرر دماغك المكان الأفضل لذكرى معينة . لكن إذا كنت تعتقد أنك ستسترجع نسخة طبق الأصل مما قمت بتخزينه ، فأنت مخطئ . فالمحتويات تنتقل وتتغير ويعاد تشكيلها مع كل هزة للصندوق الذي تم تخزينها فيه . على سبيل المثال ، ضع كتابك المفضل من الطفولة . إن لم تكن حذرًا ، ربما تكون الصورة التي تريد رؤيتها عندما تسترجعه قد أفسدها الماء . أو ارمي عددًا من ألبومات الصور هناك ، حينها ربما تختلط الصور معًا بحيث تندمج صور رحلة ما مع صور رحلة أخرى . أما إذا كنت تصل إلى جسم ما في كثير من الأحيان ، فإن الغبار لا تتراكم عليه . حيث يظل في المقدمة جاهزًا للمستك القادمة (ومع ذلك من يعرف ما الذي قد يأخذه معه في رحلته القادمة نحو الخارج) . أما إن أبقيته غير ملموس ، فسيتراجع أكثر فأكثر حتى يصير ركامًا ، وربما يتم إقصاؤه من خلال حركة مفاجئة في جواره . وإذا ما نسيت شيئًا ما لفترة طويلة ، فإنه بحلول الوقت الذي تذهب فيه للبحث عنه ، ربما يكون قد ضاع في مكان لا يمكنك الوصول إليه . إنه حتمًا لا يزال في مكان ما ، ربما في قاع صندوق في زاوية مظلمة ربما لا تجده فيها مجددًا . مكتبة الرمحي أحمد

ولغرس معرفتنا بفاعلية ، فإنه علينا أن ندرك أنه يتم دفع العناصر في عليّة دماغنا عند كل فرصة ممكنة . في حالتنا

الافتراضية ، فإننا لا ننتبه لها غالبًا ما لم يلفت انتباهنا جانب محدد ، ولكن ذلك لا يعني أنها لم تجد طريقها إلى عليّة دماغنا وإن لم تكن حذرين فإنها تتسلل ، يحدث ذلك حين نأخذ المعلومات بطريقة سلبية فقط دون القيام بجهد واع للتحكم بانتباهنا (وهو شيء سندرسه لاحقًا) ، خاصة إذا كانت أشياء تثير انتباهنا بشكل طبيعي : أي مواضيع ذات فائدة عامة ، وأشياء لا يمكن إلا وأن نلاحظها ، وأشياء تثير بعض المشاعر فينا أو أشياء تجذبنا من خلال بعض جوانب الطرافة أو الملاحظة .

إنه من السهل بمكان أن تجعل العالم يدخل إلى فضاء عليّة دماغك دون تدخل ، مالتًا إياها بأي مدخلات ربما تعترض طريقها أو بأية أشياء تستولي على انتباهك بشكل طبيعي بسبب اهتمامك بها أو صلتها المباشرة معك . عندما نكون في وضعية نظام واتسون الافتراضي ، فإننا لا «نختار» أي الذكريات سنخزن . فهي إما أن تخزن نفسها أو لا تفعل كما قد يكون الحال . هل حدث وأن وجدت نفسك تستعيد ذكرياتك مع صديق - حين طلب كلاكما مثلجات الايس كريم بدلاً من الغداء ثم أمضيتما الظهيرة تمشيان في المدينة وتراقبان الناس عند النهر- لتجد أن صديقك ليس لديه فكرة عما تتحدث قائلاً : « بالتأكيد أنت تتحدث عن شخص آخر ، لست أنا . كما أنني لست من محبي الثلجات » . أنت وحدك تعرف أنه هو بعينه الشخص المقصود . على العكس من ذلك ، هل سبق وأن كنت على الطرف المتلقي من تلك القصة ، أي أنه كان هناك من يستذكر تجربة أو لحظة أو حدثًا لا تتذكر أنت عنه شيئًا؟ يمكنك الرهان على أن شخصًا ما متيقن تمامًا كما كنت أنت من الأمر كما يتذكره .

يحذر هولز قائلاً إن تلك سياسة خطيرة . قبل أن تعرفها ، سيكون دماغك محشواً بأشياء عديمة الفائدة حتى أن المعلومات التي سبق وأن كانت مفيدة قد دفنت عميقاً جداً ولا يمكن الوصول لها ؛ حتى أنه ربما لا يكون لها وجود بعد ذلك . من المهم أن نبقى على شيء واحد بعين الاعتبار : إننا نعرف فقط ما نستطيع تذكره عند أي نقطة معينة . بكلمات أخرى ، لن ينقذنا أي قدر من المعلومات إن لم نستطع تذكره عندما نحتاج إليه . فلا يهم إن كان هولز الحديث يعرف شيئاً عن علم الفضاء إن لم يكن باستطاعته تذكر توقيت النيزك الذي يظهر في لوحة معينة في اللحظة الحاسمة . سيموت ولد وسيقلب بينديكت كومبرباتش توقعاتنا لا يهم إن سبق وأن عرف جريجسون فان جانسن ومغامراته في أوترينخت . حيث إن لم يستطع تذكرها في حدائق لاريستون ، فلن تفيده على الإطلاق .

عندما نحاول تذكر شيء ما ، فإننا لا نستطيع فعل ذلك إن لم يكن هناك الكثير من الأشياء المتكدسة في الطريق . بدلاً من ذلك ، ستتنافس الذكريات لجذب انتباهنا . ربما أحاول تذكر ذلك النيزك الحاسم وأفكر بدلاً من ذلك بمساء رأيت فيه نيزكاً ، أو بما كانت ترتديه معلمة مادة علم الفلك عندما شرحت لنا عن المذنبات لأول مرة . كل الأمر يعتمد على تنظيم عليّة دماغي ، وكيف قمت بترميز الذاكرة لأبدأ بها ، وعلى الإشارات التي تحفز على استرجاعها الآن ، وعلى مدى منهجة وتنظيم عملية التفكير لدي من البداية حتى النهاية . ربما قمت بتخزين شيء ما في عليّة دماغي ، ولكن إذا ما كنت قد فعلت ذلك بدقة وبطريقة تجعل من السهل الوصول إلى ما قمت بتخزينه في الوقت المناسب أم لا هو

سؤال مختلف تماماً . فالأمر ليس بتلك السهولة التي أستخرج بها شيئاً منفصلاً عندما أحتاجه لأنني وضعته في مكان ما هناك .
لكن لا يلزم أن يكون الأمر كذلك دوماً ، فما هو غير مرغوب فيه سيتسلل إلى العلية . ومن المستحيل بمكان أن نكون يقظين تماماً كما كان هولمز (ستعرف لاحقاً أنه ليس صارماً تماماً . ربما ينتهي المطاف بغير المرغوب به وغير المفيد ليصبح مفيداً في ظروف معينة) لكن من الممكن تأكيد مزيد من السيطرة على الذكريات التي يتم ترميزها

إذا أراد واتسون أو جريجسون -حسب الحالة- اتباع منهج هولمز ، فعليه أن يعمل بشكل جيد وباجتهاد ليدرك الطبيعة التحفيزية للترميز : حيث أننا نتذكر أكثر عندما نكون مهتمين ومتحفزين . والاحتمالات هي أن واتسون كان قادراً على الإبقاء على تدريبه الطبي والدخول في تفاصيل مغامراته الرومانسية . كانت هذه الأشياء ذات صلة به وجذبت انتباهه . بكلمات أخرى ، لقد كان متحفزاً ليتذكر .

يسمي عالم النفس كريم قسام هذا الأمر بتأثير سكوتر ليبي . حيث أنه خلال محاكمته عام ٢٠٠٧ ، ادعى لويس سكوتر ليبي أنه لا يتذكر أنه ذكر هوية موظف محدد من وكالة المخابرات المركزية لأي صحفيين من الحكومة ، لكن هيئة المحلفين لم تصدق ذلك ، فكيف لا يتذكر أمراً مهماً كهذا؟ ببساطة ، لم تكن مهمة في ذلك الوقت كما كانت في الماضي . ويكون التحفيز أكثر أهمية عند اللحظة التي نخزن فيها الذكريات في علية أدمغتنا لنبدأ بها ، وليس بعد ذلك . إن التحفيز من أجل التذكر يكون أكثر أهمية عند الترميز ، ولا يكون فعالاً عند استرجاع المعلومات إذا لم تكن

المعلومات مخزنة بشكل جيد لنبدأ بها . وعلى صعوبة تصديق الأمر ، ربما كان ليبي يقول الحقيقة .

يمكننا الاستفادة من التحفيز من أجل التذكر من خلال تفعيل نفس العمليات بوعي عندما نحتاجها . عندما نريد فعلاً تذكر شيء ما ، فإننا يمكن أن ننتبه له عند نقطة معينة ولنقول لأنفسنا : «أريد تذكر هذا .» ومن الممكن أيضاً ترسيخه بأسرع ما يمكن ، سواء أكان من خلال وصف تجربة لشخص آخر أو لأنفسنا إن لم يكن هناك من نشاركه التجربة (إن الأمر في جوهره هو التدريب عليها من أجل المساعدة في ترسيخها) وربما يكون التلاعب بالمعلومات والتحدث عنها وجعلها حية من خلال القصص والإشارات أكثر فعالية في إدخالها إلى علية الدماغ حينما تريد ذلك بشكل أكبر من الاكتفاء بمحاولة التفكير بها مراراً وتكراراً .

في إحدى الدراسات ، كان أداء الطلاب الذين قاموا بشرح المواد الرياضية بعد قراءتها مرة واحدة في اختبار أفضل من أداء أولئك الذين قاموا بتكرار تلك المادة لعدة مرات . الأكثر من ذلك هو أنه كلما زاد عدد الإشارات التي لدينا ، كلما كانت احتمالية الاستعادة الناجحة أكثر . فلو أن جريجسون ركز فعلياً على كل التفاصيل في أوترينخت في اللحظة التي علم بها عن القضية ، كالمناظر والروائح والأصوات وكل ما كان في الورقة في ذلك اليوم ، ولو أنه حاول فهم القضية بطرق مختلفة ، لكانت احتمالية تذكره لها الآن أكبر . وبالمثل ، لو أنه ربطها بقاعدته المعرفية الموجودة - بكلمات أخرى ، بدلاً من نقل صندوق أو مجلد جديد إلى علية دماغه ، لو أنه قام بدمجه مع واحد آخر ذي صلة كمشاهد الجرائم الدموية حيث الجثث الشاحبة ، أو قضايا من ١٨٣٤ أو أي شيء

آخر-لسهل الارتباط لاحقاً لتجاوب سريع لسؤال هولمز . وهنا نقصد أي شيء لتمييزها وجعلها أكثر شخصية وصلة ، والأكثر أهمية جعلها قابلة للتذكر . فهولمز يتذكر التفاصيل التي تهمة وليست تلك التي لا تهمة . وعند أي لحظة ، فإنك تعتقد أنك تعرف ما تعرف . لكن ما تعرفه فعلياً هو ذلك الذي تستطيع تذكره . لذلك ، ما الذي يحدد ما نستطيع وما لا نستطيع تذكره عند نقطة معينة؟ بكلمات أخرى ، كيف يتم تفعيل محتوى عليّة بيت دماغنا من خلال هيكليتها؟

لون التحيز، البنية الافتراضية لعليّة الدماغ

إنه خريف ١٨٨٨ ، وشارلوك هولمز يشعر بالملل . فلم تعبر دربه قضية منذ شهور عديدة . لهذا يأخذ المحقق ما يعتبره عزاء لسواه والذي يمثل بالنسبة له حلاً بنسبة ٧٪ وهو الكوكايين . بالنسبة لهولمز ، يحفز الكوكايين دماغه وينقيه ، وهي حاجة ضرورية حين لا يتوفر للفكر غذاء آخر

يحاول واتسون التفكير بشكل منطقي مع رفيقه في الشقة قائلاً : «احسب التكلفة . كما تقول ، ربما يكون دماغك مثاراً ومتحمساً ، ولكنها عملية مرضية ورهيبة تتضمن زيادة في تغير النسيج وربما تترك ضعفاً أبدياً على الأقل . أنت تعرف أيضاً أي رد فعل أسود يقع عليك . وبالتأكيد ، بالكاد تستحق هذه اللعبة كل هذا العناء» .

لا يزال هولمز غير مقتنع ، فيقول : «أعطني مشاكل ، أعطني عملاً ، أو أكثر النباتات اللازهرية إبهاماً ، أو أكثر التحليلات تعقيداً وأنا في مزاجي المناسب لأستغني عن المنشطات الصناعية . إنني

لا أستسيغ الروتين الممل للوجود». لا شيء من أفضل الحجج الطبية للدكتور واتسون سيصنع أدنى فرق (على الأقل حالياً) على الرغم من ذلك، ولحسن الحظ، فهما لا يحتاجان لفعل ذلك في هذا المثال تحديداً. ضربة رقيقة على الباب وتدخل صاحبة السكن الأنسة هدسون معلنة أن فتاة شابة اسمها الأنسة ماري مورستان قد وصلت لرؤية شارلوك هولمز يصف واتسون دخول ماري قائلاً:

«دخلت الأنسة مورستان الغرفة بخطوات ثابتة ورباطة جأش كانت سيدة شابة شقراء، صغيرة الحجم، جميلة، وترتدي قفازاتها الجميلة بشكل رائع، أما ملابسها فكانت الأكثر مثالية. على الرغم من ذلك، كانت هناك بساطة ورزانة في زيها توحي بمحدودية إمكانياتها كان ثوبها رمادياً قاتماً غير مقصوص الجوانب، وكانت ترتدي ترباناً صغيراً (قبعة نسوية تشبه العمامة) من نفس درجة اللون المملة تخفف من كآبتها ريشة بيضاء على الجانب. لم تكن لوجهها ملامح منتظمة ولا بشرة جميلة، ولكن تعبيراتها كانت جميلة وودية. وكانت عيناها الزرقاوان الكبيرتان روحانيتين ومتعاطفتين بشكل فريد. في تجربتي بالنساء والتي شملت العديد من الدول وثلاث قارات منفصلة، لم يسبق لي وأن نظرت إلى وجه وكان أكثر صفاء وحساسية من وجهها. لم أستطع منع نفسي من ملاحظة ذلك بينما كانت تجلس على الكرسي الذي أحضره لها شارلوك هولمز. كانت شفتها ترتجفان ويدها ترتعشان، وبدت عليها علامات الانفعال الداخلي الكثيف».

من قد تكون هذه المرأة؟ وماذا تريد من المحقق؟ شكل هذان السؤالان نقطة البداية لـ«علامة الأربعة»، وهي مغامرة ستأخذ

واتسون وهولمز إلى الهند وجزر أندامان حيث يعيش الأقزام والناس بأرجل خشبية . ولكن قبل ذلك كله ، توجد تلك المرأة بنفسها من هي؟ وماذا تمثل؟ وأين ستؤدي بهما وبالأمر؟ في صفحات قليلة ، سنبحث في المواجهة الأولى بين ماري وهولمز وواتسون ونقارن بين الطريقتين المختلفتين اللتين يتصرف بهما الرجلان مع ضيوفهما . لكن قبل ذلك لنعد إلى الوراء قليلاً لنرى ماذا يحدث في علية دماغنا عندما ندخل حالة ما للمرة الأولى أو كما في «علامة الأربعة» عندما نواجه شخصاً كيف يتم فعلياً تفعيل هذه المحتويات التي ذكرناها للتو؟

من البداية يكون تفكيرنا محكوماً بهيكلية علية الدماغ ؛ أي أوضاعه الاعتيادية في التفكير والعمل والطريقة التي تعلمنا بها عبر الزمن النظر إلى العالم المحيط وتقييمه ، وكذلك الانحيازات والاستدلالات التي تشكل إدراكنا البديهي والمباشر للواقع كما رأينا ، على الرغم من أن الذكريات والتجارب المخزنة في علية الدماغ تختلف بشكل كبير من شخص إلى آخر ، إلا أن النماذج العامة للتفعيل والاستعادة تبقى متشابهة بشكل عام ، أي تلوين عملية التفكير لدينا بطريقة متوقعة ومميزة . وإذا كانت هذه الأنماط المعتادة تشير إلى شيء ما فهو يتمثل في أن أدمغتنا لا تحب شيئاً كما القفز إلى الاستنتاجات .

تخيل للحظة أنك تقف في حفلة مع مجموعة من الأصدقاء والمعارف وتحدث إليهم بسعادة ممسكاً بمشروبك في يدك ، وعندها ترى شخصاً غريباً يقحم نفسه في المحادثة . في الوقت الذي كان فيه قد فتح فمه - حتى قبل أن يصل إلى محيط الجماعة - كنت قد شكلت عنه انطباعات أولية مكونة صورة كاملة إلى حد ما ، ربما

تكون غير دقيقة ، عن مَنْ يكون هذا الغريب كشخص . كيف يرتدي جو ملابسه؟ هل يضع قبعة البيسبول؟ أنت تحب/ تكره البيسبول . إن هذا الشخص يجب أن يكون رائعاً / مملأً كيف يمشي ويحمل نفسه؟ كيف يبدو؟ هل بدأ يعاني من الصلع؟ ياله من عامل مهدئ! هل يعتقد فعلياً أن باستطاعته التعلق بشخص في مثل عمرك؟ كيف يبدو ، مثل من؟ ربما تكون قد قيمت أوجه الشبه والاختلاف بينكما . هل أنتما من ذات الجنس؟ العرق؟ الخلفية الاجتماعية؟ الوضع الاقتصادي؟ وربما تكون بالتالي قد ألصقت شخصية أولية به . كأن تصفه بالخجول أو المنفتح أو العصبي أو الواثق من نفسه . وذلك كله بناء على مظهره وسلوكه فقط . وربما يكون جو في الأصل والحقيقة هو جين وقد صبغت شعرها بنفس درجة الأزرق التي استخدمتها صديقتك المفضلة في الطفولة قبل أن تتوقفا عن الحديث مع بعضكما البعض . وأنت دائماً تعتقد بأن الشعر هو العلامة الأولى لانقطاعك الوشيك . والآن فجأة تغلق كل هذه الذكريات سرايين منحك وتلون الطريقة التي ترى بها هذا الشخص ، جين البريثة . حتى أنك لا ترى أي شيء آخر .

عندما يبدأ جو أو جين الحديث ، ستقوم أنت بملء التفاصيل وربما إعادة ترتيب بعضها وتضخيم بعضها الآخر أو حتى حذف بعضها بشكل كامل . ولكنك بالكاد ستغير انطباعتك الأولى ، أي ذلك الذي بتشكيل جو أو جين الثاني الذي يمشي في طريقك . ولكن على ماذا بني ذلك الانطباع؟ هل تم ذلك بناء على شيء جوهري فعلاً؟ لقد تذكرت صديقك المفضل السابق فقط ، على سبيل المثال ، بسبب خط الشعر .

عندما نرى جو أو جين ، فإن كل سؤال نسأله لأنفسنا وكل تفصيل يدخل إلى أدمغتنا يعوم إذا جاز التعبير من خلال النافذة الصغيرة لعلية الدماغ مالمَّا عقولنا من خلال تفعيل ارتباطات محددة . هذه الارتباطات تقودنا إلى تكوين حكم عن شخص لم نقابله أصلاً ناهيك عن الحديث إليه

ربما تريد الإبقاء بنفسك فوق هكذا تحيزات ، لكن خذ بعين الاعتبار أن اختبار رابطة الضمنية (IAT) يقيس المسافة بين اتجاهاتك ومواقفك الواعية - تلك التي تدرك القيام بها-وتلك غير الواعية -أي تلك التي تشكل الإطار غير المرئي لعلية دماغك ، ما وراء وعيك المباشر . ويمكن لهذا المقياس اختبار التحيز الضمني نحو أي عدد من المجموعات (على الرغم من أن أكثرها شيوعاً يختبر التحيزات العنصرية) وذلك من خلال النظر إلى أوقات رد الفعل للترابطات بين الصفات الإيجابية والسلبية وصور لمثلي المجموعة . في بعض الأحيان ، الإيجابيات النمطية يمثلها ذات المفتاح . على سبيل المثال ، «أمريكي أوروبي» و«جيد» يرتبطان بمفتاح ، لنقل الـ«أي» ، و«افريقي أمريكي» و«سيء» يرتبطان بمفتاح ، لنقل الـ«إي» . وأحياناً تمثلها مفاتيح أخرى . الآن الـ«أي» لـ«افريقي أمريكي» و«جيد» بينما «الأوروبي الأمريكي» قد انتقل إلى مفتاح «إي» السيء . إن السرعة التي تقوم بها بالتصنيف في كل من هذه الظروف تحدد تحيزك الضمني . لنأخذ المثال العرقي ، إذا كنت أسرع في تصنيف متى يشارك «أوروبي أمريكي» و«جيد» مفتاحاً ما ، و«افريقي أمريكي» و«سيء» مفتاحاً ، فإن هذا دليل على وجود تحيز عرقي ضمني .

إن النتائج قوية وتكرر على نطاق واسع . فحتى أولئك

الأشخاص الذين يسجلون أدنى مستويات على الإطلاق في التدابير المبلغ عنها ذاتيًا في المواقف النمطية (على سبيل المثال ، على مقياس من ٤ يتراوح من أنثى بشدة إلى ذكر بشدة ، هل تقوم عادة بربط المهنة بذكر أو أنثى؟) عادة ما يظهرون اختلافًا في وقت رد الفعل على مقياس (IAT) ، مما يوحي بأمر مختلف . في وجهات النظر المتصلة بالعرق على اختبار IAT ، أظهر حوالي ٦٨٪ مما يزيد عن مليوني ونصف المليون مشارك وجود نمط متحيز لديهم ف فيما يتعلق بالعمر ، على سبيل المثال ، أظهر ٨٠٪ من المشاركين أنهم يفضلون الشباب على كبار السن . وفيما يتعلق بالإعاقة ، قال ٧٦٪ من العينة بأنهم يفضلون الأشخاص الذين لا يعانون من إعاقات أما فيما يتعلق بالميل الجنسي ، فقد أظهر ٦٨٪ بأنهم يفضلون الأشخاص العاديين على الشواذ جنسيًا . وبالنسبة للوزن فإن ٦٩٪ من المشاركين يفضلون الأشخاص النحيفين على البدينين ، والقائمة تطول . وهذه التحيزات بدورها تؤثر على اتخاذنا للقرارات الطريقة التي نرى بها العالم تؤثر على استنتاجاتنا وعلى التقييمات التي نقوم بها والخيارات التي نتخذها عند أي نقطة .

هذا لا يعني أننا سنتصرف بطريقة متحيزة بالضرورة ، فنحن قادرون على مقاومة الرغبات الرئيسية لأدمغتنا . ولكنه يعني بأن التحيزات موجودة عند مستوى رئيسي للغاية . احتج بالقدر الذي تستطيعه على أن الأمر لا ينطبق عليك ، ولكنه بالفعل ليس كذلك . فلا يكاد يوجد شخص محصن تمامًا

إن أدمغتنا تميل لإصدار الأحكام المتسريعة ، وهي مجهزة بطرق خلفية ومختصرة تبسط مهمة أخذ المعلومات وتقييم المدخلات التي لا تعد ولا تحصى والتي ترمينا بها البيئة المحيطة كل ثانية . إنه

أمر طبيعي . فإذا تأملنا كل عنصر بحق ، فإننا سنضيق ونصبح عالقين ، ولن نكون قادرين على تجاوز ذلك الحكم التقييمي الأول . في حقيقة الأمر ، ربما لا نكون قادرين على اتخاذ أي حكم على الإطلاق . وسيصبح عالمنا أشد تعقيداً من الآن وبسرعة كبيرة جداً . وكما يصيغها ويليام جيمس : «إذا تذكرنا كل شيء ، فعلىنا أن نكون كما لو أننا لم نتذكر شيئاً» .

إن طريقتنا بالنظر إلى العالم والتفكير به صعبة التغيير ، وتميزاتها شائكة ولزجة بشكل ملحوظ . لكن «صعبة ولزجة» لا تعني أنها ثابتة وغير قابلة للتغيير . حتى الـ IAT ، كما يتضح ، يمكن اختباره بعد تدخلات وتمارين عقلية تستهدف التحيزات التي تختبرها . فعلى سبيل المثال ، إذا أريتَ بعض الأفراد صوراً لسود يستمتعون برحلة قبل أن يخضعوا لاختبار IAT العرقي ، فإن درجة التحيز تنقلص بصورة ملحوظة .

شخص مثل هولمز وآخر مثل واتسون ربما يعطيان أحكاماً فورية ، لكن الاختصارات التي يستخدمها دماغهما لا يمكن أن تكون أكثر اختلافاً . وبينما يلخص واتسون الدماغ الافتراضي وبنية الروابط في دماغنا عندما تكون في حالتها الاعتيادية والسلبية إلى حد كبير ، فإن هولمز يرينا ما هو ممكن ؛ أي كيف يمكننا إعادة مد أسلاك تلك الهيكلية للالتفاف على ردود الفعل الفورية تلك والتي تمنعنا من الإدلاء بأحكام أكثر موضوعية وشمولية عن محيطنا

على سبيل المثال ، لنفكر في استخدام IAT مع الأطباء . في البداية ، عرض لكل طبيب صورة لرجل في الخمسين من عمره . في بعض الصور كان الرجل أبيضاً وفي بعضها الآخر أسوداً . ثم طلب من الأطباء أن يتخيلوا الرجل في الصورة على أنه مريض جاء

إليهم يعاني من أعراض تشبه أعراض النوبة القلبية ، فكيف سيعاملونه؟ وبمجرد أن يعطوا إجابة ، يخضعون لامتحان IAT العنصري .

من ناحية ، كانت الإجابات نموذجية . حيث أظهر غالبية الأطباء درجة من التحيز على IAT . لكن بعد ذلك حصل شيء مثير للانتباه ، حيث لم يترجم التحيز في الاختبار بالضرورة إلى تحيز في علاج المريض المفترض . بالمتوسط ، قال الأطباء أنهم سيصفون الدواء الضروري للسود كما البيض ، والغريب جداً أن الأطباء الذين بدوا أكثر تحيزاً قاموا فعلياً بعلاج المجموعتين بتساوي أكثر من ذلك الذي قام به الأطباء الأقل تحيزاً .

إن ما تقوم به أدمغتنا على مستوى الحدس وما نقوم به فعلياً ليسا ذات الشيء . فهل يعني هذا أن التحيزات اختفت وبأن أدمغتهم لم تقفز إلى الاستنتاجات من ارتباطات ضمنية حدثت عند المستوى الأكثر أساسية للمعرفة؟ بالكاد يكون ذلك . لكن هذا يعني بأنه يمكن للتحفيز الصحيح أن يتصدى لهكذا تحيز ويجعله غير ذي أهمية فيما يتعلق بالتصرف الفعلي . فكيفية قفز دماغنا إلى الاستنتاجات لا يعني كيف قدر لنا بأن نتصرف . ففي نهاية المطاف لنا السيطرة على سلوكنا إذا أردنا فعل ذلك .

إن ما حدث عندما رأيتَ جو في الحفلة هو ذات الشيء الذي يحصل حتى مع شخص بارع في الملاحظة كالسيد شارلوك هولمز . ولكن تماماً كما الأطباء الذين تعلموا مع مرور الوقت أن يتخذوا أحكامهم بناء على أعراض محددة ويستثنون أعراض أخرى لأنها غير ذات صلة ، فإن هولمز تعلم أن يقوم بترشيح المواهب الطبيعية لدماغه إلى مجموعة يجب أن تلعب دوراً في تقييمه لشخص

مجهول وأخرى يجب ألا تفعل .

ما الذي يمكن هولمز من القيام بهذا؟ لنلاحظ العملية بشكل فعلي ، دعنا نعود إلى تلك المواجهة الأولية في «علامة الأربعة» عندما ظهرت السيدة الغامضة ماري مورستان ظهورها الأول . هل رأى الرجلان ماري بذات الطريقة؟ ليس كذلك على الإطلاق . فكان أول ما لاحظته واتسون هو مظهر تلك المرأة ، حيث يقول إنها امرأة جذابة . أما هولمز فكان على النقيض تمامًا ، حيث يقول : «إنه من الأهمية بمكان ألا تسمح لحكمك أن يكون متحيزاً لسماوات شخصية . فالعميل بالنسبة لي مجرد وحدة ، وعامل في مشكلة ما . أما السماوات العاطفية فهي تتنافى مع الاستدلال الواضح السليم . أؤكد لك بأن أكثر النساء اللواتي عرفتهن سحرًا قد تم شنقها لأنها قامت بسم ثلاثة أطفال للحصول على تعويض التأمين الخاص بهم . وحسب معرفتي ، فإن أكثر الرجال مطاردة هو محسن أنفق ما يقارب ربع المليون على فقراء لندن» .

لكن واتسون لم يفهم ذلك ، حيث قاطع قائلاً : «لكن في هذه الحالة-» ، يهز هولمز رأسه . «لاني لا أقوم باستثناءات ، فالاستثناءات يفند القاعدة» .

إن نقطة هولمز واضحة بما فيه الكفاية . فالموضوع ليس أنك لن تجرب المشاعر ، ولا أنك من المحتمل أن تكون قادرًا على التوقف عن الانطباعات التي تتشكل بشكل شبه تلقائي في دماغك . (حيث يقول بشأن الأنسة مورستان : «أعتقد أنها واحدة من أكثر الشابات اللواتي قابلتهن سحرًا») لكن ليس عليك أن تدع هذه الانطباعات تعترض الاستدلال الموضوعي . يضيف هولمز مباشرة لاعترافه بسحر ماري قائلاً : «لكن الحب شيء عاطفي ، وكل ما هو عاطفي يخالف

ذلك المنطق الصحيح البارد الذي أضعه فوق كل شيء» يمكنك التعرف على وجودها ، ثم تلقي بها بكل وعي جانبا . ويمكنك أن تعترف بأن جين تذكرك بذلك الشخص الذي كان يدعي أنه صديقك في المدرسة الثانوية ، ثم تتجاوزها . تقريبا ، إن تلك الأمتعة العاطفية لا تهتم بالقدر الذي تعتقده . ولا تعتقد بأن هناك استثناء ، فهو ليس كذلك .

لكن يعد تطبيق أي من هذين المبدئين (أي اقتطاع المشاعر أو الحاجة إلى عدم القيام بأي استثناءات) أمرا صعبا ، بغض النظر عن مدى رغبتك بفعل ذلك في الواقع . فواتسون يريد باستماتة أن يصدق الأفضل بشأن المرأة التي أسرتها ، وأن يعزي كل ما هو غير محبب بشأنها إلى ظروف غير مواتية . ويستمر عقله غير المنضبط في اختراق كل قواعد هولمز بشأن المنطق السليم والإدراك من القيام باستثناء إلى السماح للعواطف إلى الفشل الكامل في بلوغ ذلك الحياء الذي يتخذ منه هولمز شعارا له

من البداية ، يميل واتسون إلى التفكير جيدا بضيفتهما . فبعد كل شيء ، هو في مزاج مستريح وسعيد متبادلا المزاج مع المحقق بطريقة غمطية عادية . وخطأ كان الأمر أم صوابا ، فإن ذلك المزاج سينتقل إلى حكمه مؤثرا عليه ، وهذا ما يسمى بالتأثير الإرشادي ؛ أي أننا نفكر كيفما نشعر . فحالة السعادة والاسترخاء التي يعيشها الإنسان تجعل النظرة إلى العالم أكثر قبولا وأقل حراسة ؛ فحتى قبل أن يعرف واتسون أن أحد ما سيصل قريبا ، كان فعليا مجهزا ليحب ذلك الزائر .

وماذا بمجرد دخول الزائر؟ إن الأمر تماما كتلك الحفلة ، حيث أننا عندما نرى شخصا غريبا ، فإن دماغنا يجرب نموذجًا متوقعًا من

التحفيز حددته تجاربنا الماضية وأهدافنا الحالية التي تتضمن تحفيزنا وحالة وجودنا . عندما تدخل الأنسة ماري مورستان شارع بيكر ٢٢١ ب ، يرى واتسون «شابة شقراء صغيرة الحجم وجميلة وترتدي قفازاتها الجميلة بطريقة جيدة وترتدي ملابسها بطريقة مثالية . على الرغم من ذلك كان هناك بساطة وفتامة في ملابسها توحى بمحدودية الموارد المالية لديها» . على الفور تثير الصورة ذكريات في رأسه عن نساء شقراوات أخريات كان واتسون قد عرفهن . تذكر أنهن نساء عاديات وبسيطات ومتساهلات لا يواجهنك بجمالهن مباشرة ، بل يقدمنه بثوب ذي لون بني فاتح كثيب غير مهذب الأطراف . ولذلك «يصبح تعبير ماري لطيفاً ومودياً وعيناها الكبيرتان روحانية ومتعاطفة بشكل متفرد» . ويختتم واتسون أنشودة الشكر الافتتاحية بـ«في تجربتي بالنساء والتي شملت العديد من الدول وثلاث قارات منفصلة ، لم يسبق لي وأن نظرت إلى وجهه وكان أكثر صفاء وحساسية من وجهها» .

على الفور انتقل الطبيب الجيد من لون البشرة والشعر وغط الزي إلى حكم أكثر بعداً في الحكم على الشخصية . فمظهر ماري يوحي بالبساطة ؛ ربما يكون ذلك . ولكن الحلاوة؟ اللطف؟ الروحانية؟ التعاطف؟ التهذيب والحساسية؟ ليس لدى واتسون أساس ليبنى عليه أياً من هذه الأحكام . فماري لم تنبس ببنت شفة في حضوره ، وكل ما فعلته هو دخول الغرفة ، ولكن هناك فعلياً مجموعة من التحيزات الحاضرة والتي تتنافس مع بعضها البعض لخلق صورة كاملة عن هذه الإنسنة الغريبة .

في لحظة واحدة ، استدعى واتسون خبرته ذائعة الصيت من المخازن الضخمة في علية دماغه والتي تحمل اسم «نساء عرفتهن»

وذلك ليضع التفاصيل الخاصة بمعرفته الجديدة . فبينما ربما تكون معرفته بالنساء قد امتدت على ثلاث قارات منفصلة ، إلا أنه ليس لدينا سبب لنعتقد أن تقييمه هنا دقيق ما لم يتم إخبارنا بأن واتسون قد نجح فعلياً في الماضي بالحكم على النساء من اللمحة الأولى . وإنني أشك نوعاً ما في أن ذلك قد حدث فعلياً ، فواتسون ينسى بسهولة المدة التي استغرقها لمعرفة رفاقه في الماضي -على افتراض أنه عرفهم جميعاً . (فكر في أن واتسون أعزب عاد لتوه من الحرب مصاباً وبلا أصدقاء كثير . كيف ستكون حالته التحفيزية المزمنة؟ الآن تخيل أنه بدلاً من ذلك متزوج وناجح ومن نخبة المدينة ، وأعد تقييمه لماري وفقاً لذلك)

إن هذا الميول أمر شائع وقوي ويعرف بالتوفر الإرشادي ؛ أي أننا نستخدم ما هو متاح للدماغ عند أي نقطة زمنية . وكلما كان الأمر أسهل للتذكر ، كلما ازدادت ثقتنا في إمكانية تطبيقه وصحته . واحد من الشروحات الكلاسيكية لهذا التأثير هو أن الأشخاص الذين قاموا بقراءة أسماء غير شائعة في سياق عابر ، حكموا لاحقاً على هذه الأسماء بأنها مشهورة - وذلك فقط بناء على سهولة تذكرهم لتلك الأسماء - وكانوا بالتالي أكثر ثقة بدقة أحكامهم . بالنسبة لهم ، كانت سهولة الألفة بهذه الأسماء دليلاً كافياً . فهم لم يتوقفوا للتفكير بأن ذلك التوفر المبني على تعرض سابق ربما يكون الجاني على مشاعر السهولة لديهم . وقد أظهرت التجارب مراراً وتكراراً بأنه عندما يكون شيء ما ، سواء أكان صورة أو شخصاً أو كلمة ، بمثابة الشيء الرئيسي ، فإن الأفراد يكونون أكثر قدرة على الوصول إلى مفاهيم ذات صلة به . بكلمات أخرى ، هذه المفاهيم أصبحت أكثر توفراً ، ومن المحتمل أن يستخدم هؤلاء

الأشخاص هذه المفاهيم كإجابات موثوقة ، سواء أكانت دقيقة أم لا . فقد أثار مظهر ماري سيلاً من ارتباطات الذاكرة في دماغ واتسون والذي خلق بدوره صورة ذهنية لماري تتكون من كافة الارتباطات التي حدثت وقامت بتنشيطها ، ولكن ذلك لا يمثل بالضرورة «ماري الحقيقية» . وكلما اقتربت ماري من الصور التي تم استدعاؤها -أي الاستدلال التمثيلي- كلما كان الانطباع أكثر قوة ، وكلما كان واتسون أكثر ثقة في موضوعيته .

انسَ كل شيء آخر ربما يعرفه واتسون أو لا يفعل ، إن المعلومات الإضافية غير مرحب بها . وهنا يوجد سؤال واحد ربما لن يسأله الطبيب الشجاع لنفسه : كم العدد الفعلي للنساء اللواتي قابلهن واللواتي انتهى بهن المطاف أن يكنّ ذوات شخصية مصقولة ، وحساسات ، وروحانيات ، ومتعاطفات ، وجميلات ولطيفات في ذات الوقت؟ وما مدى نمطية ووجود هذا النوع من الناس إذا ما نظرت إلى السكان بصورة عامة؟ أجرؤ على التخمين بأنه ليس ذلك القدر الكبير من النساء حتى إذا شملنا الشعر الأشقر والعيون الزرقاء ، والتي هي بلا شك علامات القداسة . وكم امرأة بالمجمل يتذكرها عندما يرى ماري؟ واحدة؟ اثنتان؟ مئة؟ ما هو الحجم الكلي للعينة؟ مرة أخرى ، أراهن على أن العدد ليس كبيراً ، والعينة التي تم اختيارها متحيزة بجوهرها .

بينما لا نعرف الارتباطات الدقيقة التي تمت إثارتها في رأس الطبيب عندما رأى الأنسة مورستان للمرة الأولى ، فإنني أراهن على أكثرها حداثة (تأثير الحدائة) وعلى أكثرها بروزاً (تلك الملونة وسهلة التذكر ؛ كل أولئك الشقراوات ذوات العيون الزرقاء اللواتي انتهى بهن المطاف ليصرن رتيبات وغير مثيرات للإعجاب . إنني

أشك في أنه يتذكرهن الآن ، وهن بدورهن ربما لم يكن لهن وجود بالأصل) ، وعلى أكثرها ألفة (تلك التي عاد لها دماغه عادة) ، ومرة أخرى ، من المرجح أنها ليست الأكثر تمثيلاً) ، وأولئك الذين نظروا إلى وجهة نظره بما يري منذ البداية على أنها متحيزة . من هذه النقطة فصاعداً ، إن الأمر يتطلب زلزلاً. أو ربما ما هو أكثر من ذلك لزعة واتسون عن تقييمه الأولي .

سيكون ثباته هو الأقوى بسبب الطبيعة الفيزيائية للمشير الأول ؛ فربما تكون الوجوه هي المفتاح الأقوى المتوفر لدينا ، وأكثرها احتمالية لحد ارتباطات وأفعال لن ترحل .
لترى قوة الوجه ، انظر إلى هاتين الصورتين :



أي الوجهين أكثر جاذبية؟ وأي الشخصين أكثر كفاءة؟
لو عرضت عليك هاتين الصورتين لفترة قصيرة جداً ، مثلاً واحد على عشرة من الثانية ، فإنه من المحتمل جداً أن يوافق رأيك الأحكام التي أصدرها المثات من الذين أريتهم هاتين الصورتين بنفس الطريقة . لكن ذلك ليس كل شيء ؛ فهذان الوجهان اللذان

نظرت لهما لتوك لم يتم اختيارهما عشوائياً . إنهما وجهان لمرشحين سياسيين متنافسين خاضا انتخابات مجلس الشيوخ الأمريكي في ولاية ويسكونسن عام ٢٠٠٤ . والتقييم الذي أعطيته لكفاءةتهما (مؤشر للقوة والجدارة بالثقة) سيكون تنبؤياً للغاية بشأن الفائز الفعلي (إنه الرجل الذي على اليسار؛ هل تطابق تقييمك للكفاءة؟) في حوالي سبعين بالمئة من الحالات تنبأ بتقييمات الكفاءة المعطاة في زمن تعرض يقل عن الثانية الواحدة بالنتيجة الفعلية للسباقات السياسية . والقدرة على التنبؤ تلك تنطبق على الانتخابات من الولايات المتحدة إلى بريطانيا ، ومن فنلندا إلى المكسيك ، ومن ألمانيا إلى استراليا . فمن قوة الذقن وأثر الابتسامة تقرر أدمغتنا أي الأشخاص سيخدمنا بشكل أفضل . (فقط انظر إلى النتيجة : وارن جي . هاردينغ ، الرئيس صاحب أفضل فك مربع الشكل على الإطلاق) . إننا مولعون بالقيام بما لا يجب علينا القيام به ؛ أي القفز إلى الاستنتاجات بناء على إشارة خفية باطنية لسنا واعين بها أصلاً ، وتمتد التداعيات إلى حالات أكثر جدية من ثقة واتسون الزائدة بجمال عميل . وما دام غير مهياً ، فإنه ليس لديه فرصة للنجاح في المنطق الحقيقي القاسي الذي يتمكن منه هولمز .

كما أن بإمكان انطباع عابر عن الكفاءة أن يشكل أساس التصويت السياسي ، إذن التقييم الأولي والإيجابي للغاية الذي قام به واتسون لما ري يضع الأساس لاتخاذ المزيد من الإجراءات التي تعزز ذلك الرأي الأولي . فأحكامه من الآن وصاعداً ستتأثر بشكل كبير بتأثيرات الصدارة-أي القوة المتواصلة للانطباعات الأولى .

بعينيه المظللتين بتوهج وردي ، واتسون الآن أكثر احتمالاً لأن يقع فريسة لتأثير الهالة (فإذا كان عنصر ما ، هنا المظهر الجسدي ،

أدهشك على أنه إيجابي ، فإنك من المحتمل أن ترى العناصر الأخرى إيجابية أيضاً ، وكل شيء لا يتناسب سيتم تفسيره بعيداً وبكل سهولة) كما أنه سيكون عرضة لتحيز المراسلات الكلاسيكية ؛ أي أن كل شيء سلبي عن ماري سينظر إليه على أنه نتيجة لظروف خارجية - كالتوتر والإجهاد وسوء الحظ وما إلى ذلك- وكل شيء إيجابي من شخصيتها ، ستحصل على رصيد له هذا وتحمل البيئة المسؤولية واللوم عن كل ما هو سيء . الفرص والحظ؟ ، لا يهم . إن المعرفة التي نحن علينا كقاعدة عامة تعتبر سيئة جداً في القيام بأي نوع من التنبؤ بالمستقبل سواء أكان حدثاً أو تصرفاً . في حقيقة الأمر ، وعلى الخلاف من هولمز ، من المحتمل أنه لم يأخذ تلك الاحتمالية بعين الاعتبار ، أو أنه قام بتقييم كفاءته الخاصة .

من المحتمل أن يظل واتسون غير مدرك تماماً للأطواق التي يقفز من خلالها دماغه للحفاظ على انطباع متماسك عن ماري ، وليشكل سرداً بناء على مدخلات منطقية منفصلة تروي قصة حدسية جذابة ، وفي نبوءة تحقق ذاتها ويحتمل أن يكون لها عواقب ضارة ، فإن تصرفه كان من الممكن أن يحفز ماري على التصرف بطريقة تثبت انطباعه الأولي عنها . فهو لو تصرف مع ماري كما لو كانت قديسة جميلة ، فإنها من المحتمل أن تتجاوب معه بابتسامة قديسة . ابدأ بالتفكير في أن ما تراه هو الصحيح ، سينتهي بك الأمر في الحصول على ما توقعته . طوال الوقت يمكنك البقاء بسعادة غير واع بأنك قمت بأي شيء عدا عن البقاء عقلانياً وموضوعياً تماماً . إنه وهم كامل عن سريان المفعول ، وأثره من الصعب بمكان زعزعته حتى في الظروف التي يكون فيها المنطق

ضده . (فعلى سبيل المثال ، اعتبر أن الصحفيين يميلون لاتخاذ قراراتهم عن مرشح ما خلال الدقائق الأولى من مقابلتهم ، وأحياناً أقل من ذلك . إذا كان السلوك اللاحق للمرشح يرسم صورة مختلفة ، فإنه لا يزال من غير المرجح تغيير رأيهم ، بغض النظر عن مدى إدانة الأدلة)

لنتخيل أن عليك اتخاذ قرار حول جدارة شخص ما ، ولتكن إيمي ، فيما إذا كانت تصلح لتكون زميلة مشتركة لك في فريقك . لأخبرك القليل عن إيمي ، بداية إنها ذكية ومجتهدة .

قف هناك ؛ الاحتمال الآن أنك تفكر . حسناً ، نعم ، عظيم . فهي ستكون شخصاً عظيماً للعمل معه . فالذكاء والاجتهاد صفتان أفضل وجودهما في شريككي . لكن ماذا لو تابعت جملتي قائلاً : «حسودة وعنيدة»؟ لم تعد جيدة ، أليس كذلك؟ لكن تحيزك المبدئي سيكون قوياً بدرجة كبيرة . ستزداد احتمالية استبعادك للخصائص الأخيرة ووزنك للسابقة بشكل أكبر ، كل ذلك بسبب حدسك الأولي . اعكس الاثنين وسيحصل العكس ؛ فلا يمكن لأي قدر من الذكاء والاجتهاد أن ينقذ شخصاً ما رأيته مبدئياً على أنه حسود وعنيد . أو فكر في الوصفين التاليين لشخص ما .

ذكي ، ماهر ، كادح ، ومستجيب ، عازم ، عملي ، حذر .
ذكي ، ماهر ، كادح ، لا يمكن السيطرة عليه ، عازم ، عملي ، حذر .

إذا نظرت إلى القائمتين أعلاه ، ربما تكون لاحظت أنهما متطابقتان ما عدا في كلمة واحدة «مستجيب ، ولا يمكن السيطرة عليه» ومع ذلك ، عندما سمع المشاركون في الدراسة واحداً من الوصفين ثم طلب منهم اختيار أي الصفتين تصف الشخص بشكل

أفضل (في قائمة من ثمانية عشر زوجًا من الصفات عليهم اختيار صفة واحدة من كل زوج) ، كان الانطباع الأخير الذي خرجت به المجموعتان مختلف تمامًا . من المحتمل أن ترى العينة الشخص الأول على أنه كريم ، والثاني على العكس تمامًا . يمكنك القول نعم ، ولكن الكرم جانب متأصل في الدفء . أفليس من الطبيعي أن تتخذ ذلك الحكم؟ دعنا نفترض أن تلك هي الحالة . لكن المشاركين خطوا خطوة أخرى في حكمهم ؛ حيث قيموا الشخص الأول بشكل إيجابي أكثر اتساقًا من الشخص الثاني ، وذلك بناء على صفات لا تربطها بالدفء علاقة . لم يقف الأمر عند أنهم وجدوا أن الشخص الأول اجتماعي النزعة ومقبول بما فيه الكفاية بشكل أكبر من الثاني فحسب ، بل إنهم اعتقدوا أنه حكيم ، وسعيد ، وذو طبيعة جيدة ، وظريفًا ، وإنسانيًا ، وحسن المظهر ، ويتحلى بالإيثار ، وواسع الخيال .

ذلك هو الفرق الذي يمكن لكلمة واحدة أن تصنعه ؛ فرما تلون تصورك الكامل عن شخص ما حتى لو ظلت كل نقطة وصفية أخرى نفسها . وذلك الانطباع الأول سيدوم ، تمامًا كما أن ولع واتسون بشعر وعيون وملابس الأنسة مورستان سيتسمر لتلوين تقييمه لها باعتبارها كائنًا بشريًا ، وكذلك فهمه لما هي قادرة على القيام به وما هي غير قادرة على القيام به . إننا نحب أن نكون ثابتين على مبدأ ، ونكره أن نكون مخطئين . لهذا فإن انطباعاتنا المبدئية لها أثر كبير بغض النظر عن الأدلة التي تتبع ذلك

ماذا بالنسبة لهولمز؟ فحين غادرت ماري وقال واتسون : «يا لها من امرأة جذابة جدًا!» ، كان رد هولمز بسيطًا ، حيث قال : «أهي كذلك؟ لم ألاحظ ذلك ، ويتبع ذلك عتابه ليكون حذرًا لئلا تتفوق

الصفات الشخصية على حكمك» .

هل يقصد هولمز حرفياً أنه لم يلاحظ؟ على العكس تماماً . لقد لاحظ هولمز ذات التفاصيل الجسدية والمادية التي لاحظها واتسون وربما أكثر . إن ما لم يقم به هولمز هو إصدار حكم كما فعل واتسون ، أي أنها امرأة جذابة جداً . بتلك العبارة ، انتقل واتسون من الملاحظة الموضوعية إلى الرأي الشخصي ، صابغاً الحقائق المادية بالصفات العاطفية ، وذلك تماماً ما حذر هولمز منه . ربما يقر هولمز بالطبيعة الموضوعية لجاذبيتها (رغم أنك إن تذكرت ما حصل ، بدأ واتسون بالقول بأنه لم يكن لدى ماري انتظاماً في الملامح ولا جمالاً في البشرة ،) لكنه يتجاهل الملاحظة غير ذات الصلة تقريباً في نفس السياق كما يدركها

إن هولمز وواتسون لا يختلفان في حشوة عليّة دماغيهما فحسب -ففي إحدى العليتين ، تم الحصول على الأثاث عن طريق مخبر انطوائي نصب نفسه بنفسه ، ويحب الموسيقى والأوبرا ودخان الغليون والتدريب على الرماية في الأماكن المغلقة ، أي أعمال باطنية مقصورة على فئة معينة وتعمل على الكيمياء والنهضة المعمارية . أما العلية الأخرى ، فهي لجراح من الحرب وزير نساء يحب تناول وجبة عشاء دسمة وقضاء أمسية لطيفة خارجاً-ولكن الاختلاف أيضاً في الطريقة التي ينظم بها دماغهما ذلك الأثاث . يعرف هولمز تحيزات عليّة دماغه بدقة ، كما يعرف ظهر يده وأوتار كمانه . وهو يعرف أنه إذا ركز على شعور جميل ، فسوف يتوقف عن الحذر في مشاركة أفكاره ومشاعره . وهو يعرف أنه إذا سمح لميزة مادية عرضية بالانتقال إليه ، فسواجبه خطر فقدان الموضوعية في بقية ملاحظته . وأنه إذا أصدر حكماً سريعاً ، فسوف يفقد

الكثير من الأدلة وينتبه بشكل أكبر إلى العناصر التي في صالحه ويعرف أيضاً كم سيكون من الصعب الجاذبية للتصرف بناء على حكم مسبق .

لذلك يختار أن يكون انتقائياً بشأن تلك العناصر التي يسمح لرأسه بالبدء بها . ذلك يعني أنه مع الأثاث الموجود فعلياً وذلك المحتمل والذي يتنافس على تجاوز بوابة الحصين وشق طريقه نحو تخزين طويل الأمد . وعلينا ألا ننسى أبداً ان أي تجربة أو أي معلم من معالم العالم الذي نتبه له سيكون ذكري مستقبلية جاهزة للتكون ، وقطعة جديدة من أثار عليّة الدماغ ، وصورة جديدة ستتم إضافتها إلى الملف ، وعنصرًا جديدًا سيدخل إلى عمليات دماغنا المحشوة أصلاً . إننا لا نستطيع إيقاف أدمغتنا عن تشكيل أحكام رئيسية ، ولا نستطيع التحكم بكل جزء من المعلومات التي نحتفظ بها . لكننا نستطيع معرفة المزيد عن المرشحات التي تحرس إجمالاً مدخل عليّة دماغنا ، وأن نستعمل تحفيزنا للتعامل مع الأشياء المهمة لأهدافنا بشكل أكبر ، ونعطي تلك التي لا تهمننا وزناً أقل من التحفيز .

إن هولمز ليس إنساناً كلياً كما يصفه واتسون عندما يفشل في مشاركة حماسه بشأن ماري معه . (وهو أيضاً سيصف امرأة بالميزة ذات يوم-أيرين أدلر . ولكن ذلك فقط بعد أن تفوقت عليه في معركة دهاء ، مظهرة نفسها على أنها الخصم الأكثر قوة الذي واجهه في حياته ، ذكراً كان أم أنثى . إنه يفهم ببساطة أن كل شيء هو جزء من مجموعة ، ويمكن أن ينبع من الشخصية كما الظروف بغض النظر عن التكافؤ ؛ وهو يعرف بأن فضاء عليّة الدماغ ثمين ، وبأنه علينا أن نفكر بحذر بما نضيفه إلى الصناديق التي تخط عقولنا

لنعد إلى جو أو جين . كيف كانت المواجهة ستتم بشكل مختلف إذا ما تبيننا نهج هولز كدليل لنا؟ إنك ترى قبعة البسيبول التي يرتديها جو أو الشريط الأزرق الذي تضعه جين ، والارتباطات -إيجابية كانت أم سلبية- تتراجع خارجًا . وأنت تشعر كما لو كان هذا الشخص الذي تريد أو لا تريد أن تقضي بعض الوقت لمعرفته لكن قبل أن يفتح هذا الغريب فمه ، فإنك تأخذ لحظة لتخطو إلى الورا من نفسك ، أو بالأحرى أن تخطو أكثر إلى نفسك . أدرك أن الأحكام في رأسك يجب أن تأتي من مكان ما - وهي تفعل ذلك دومًا- وألقي نظرة أخرى على الشخص الذي يشق طريقه نحوك . من ناحية موضوعية ، هل يوجد شيء تبني عليه انطباعك المفاجيء؟ هل جو عبوس؟ هل دفعت جين شخصًا ما من الطريق؟ لا . إذن فنفورك يأتي من مكان آخر . ربما لو فكرت للحظة واحدة ، فإنك ستدرك أنه نابع من قبعة البسيبول أو الشريط الأزرق . وربما لن تفعل . في كلا الحالتين ، ستقر أولاً أنك قد جعلت نفسك تميل إلى حب أو عدم حب شخص ما لم تقابله من قبل ، وثانيًا بأنك اعترفت بأن عليك تصحيح انطباعك . من يدري ؛ ربما يكون الأمر صحيحًا . ولكن على الأقل إذا وصلت لهذه النقطة مرة ثانية ، فسيكون حكمك مبنياً على حقائق موضوعية ، وسيأتي بعد أن تكون قد أعطيت جو أو جين فرصة للحديث . بإمكانك الآن استخدام المحادثة لتقوم بالملاحظة الفعلية للتفاصيل المادية والسلوكيات والكلمات . إن الثروة من الأدلة التي ستتعامل معها مستخدمًا المعرفة الكاملة التي قررتها ، تمنح وزنًا أكثر لبعض الإشارات ثم لأخرى ستحاول إعادة وزنها بناء على ذلك .

ربما تكون جين لا تشبه صديقتك بأي شكل من الأشكال .

حتى أنه ربما لا تشارك أنت وجو ذات الحب للبيسبول . إنها في الواقع شخص كنت تريد معرفته ، أو أنك ربما كنت على صواب طوال الوقت . والنتيجة النهائية ليست بأهمية كونك توقفت أم لم تتوقف لمعرفة أنه لا يوجد حكم -بغض النظر إن كان إيجابياً أو سلبياً ، وإن كان مقنعاً أو لا يمكن المساس به- يبدأ بلائحة بيضاء تماماً . بدلاً من ذلك ، في الوقت الذي يصل فيه حكم ما إلى وعينا ، تكون قد تمت تصفيته بشكل كامل من خلال تفاعل عليات أدمغتنا مع البيئة . لا نستطيع إجبار أنفسنا بوعي على إيقاف هذه الأحكام من التشكل . لكن يمكننا تعلم فهم عليات أدمغتنا وانحرافاتنا وميولها وخصوصياتها ، والمحاولة بأفضل ما يمكننا لتعيين نقطة البداية مرة أخرى إلى واحدة أكثر حياداً ، سواء أكانت بالحكم على شخص ما أو ملاحظة حالة ما أو القيام باختيار .

بيئة أولية: سلطة العرضية

في حالة ماري مورستان أو جو وجين ، حفزت عناصر المظهر الجسدي تميزاتنا ، وكانت هذه العناصر جزءاً جوهرياً من الحالة في بعض الأحيان على الرغم من ذلك ، تحفز تميزاتنا بعوامل لا ترتبط بما نفعله على الإطلاق ؛ ولكنها مخادعة قليلاً . وحتى لو أنها ربما تكون خارج وعينا بشكل كامل -في الحقيقة بسبب ذلك السبب- وغير مرتبطة على الإطلاق بما نفعله ، فإنها يمكن أن تؤثر على حكمنا بسهولة وعمق .

عند كل خطوة ، تشير البيئة جلدنا . ففي «منزل الأشجار النحاسية» ، يستقل واتسون وهولمز قطاراً إلى البلاد . وبينما يمران في ألدرشوت ، حينها يلمح واتسون المنازل من خلال النافذة ويصرخ

قائلاً: «ألست منعشة وجميلة؟» لكن هولمز هز برأسه بشكل شديد وقال: «هل تعرف يا واتسون أن واحدة من اللعنات لعقل بمنعطف كعقلي أن عليّ النظر لكل شيء بالنظر إلى موضوعي الخاص أنت تنظر إلى هذه المنازل المبعثرة معجباً بجمالها . بينما أنا أنظر إليها ، والفكرة الوحيدة التي تراودني هي شعور بعزلتها والحصانة التي يمكن أت ترتكب بها الجريمة هناك» .

ربما يكون هولمز وواتسون ينظران فعلياً إلى ذات المنازل ، ولكن ما يرياه مختلف تماماً . وحتى لو أن واتسون نجح في اكتساب كل مهارة هولمز في الملاحظة ، فإن تلك التجربة الأولية ستكون مختلفة بالضرورة . ذلك أنه ليست ذكريات وعادات واتسون فقط وحدها التي تختلف عن تلك الخاصة بهولمز ، ولكن كذلك الأمر بالنسبة للمحفزات البيئية التي لفتت انتباهه وجعلت دماغه يفكر على امتداد طريق محدد .

لوقت طويل قبل أن يهتف واتسون بجمال المنازل ، كان دماغه مهيباً بواسطة بيئتها للتفكير بطريقة محددة وملاحظة أشياء محددة . فبينما لا يزال يجلس بصمت في القطار ، نجده يلاحظ جاذبية المشهد ؛ «يوم ربيعي مثالي ، والسماء الزرقاء تنقطها غيوم صوفية بيضاء تتحرك من الغرب إلى الشرق» . كانت الشمس مشرقة ، ولكن يوجد «قرصة مبهجة في الجو والتي تضع حداً لطاقة الإنسان» . وهناك ، وسط أوراق الربيع الجديدة والمنعشة تقع المنازل . فهل لا يزال الأمر مدهشاً أن واتسون يرى عالمه يسبح في وهج زهري سعيدي؟ إن سحر الأشياء المحيطة به تجعله يعيش في عقلية إيجابية

لكن تلك العقلية ، كما يحدث ، غريبة تماماً عن تشكيل

أحكام أخرى . فالمنازل كانت ستبقى ذاتها حتى لو كان واتسون حزينًا ومكتئبًا ؛ ولكن تصوره بشأنها كان سيتغير (ربما لا تظهر وحيدة وقائمة) . في هذه الحالة تحديدًا ، لا يهم كثيرًا إن كان واتسون يرى المنازل على أنها قريبة من النفس أم لا . ولكن ماذا لو ، لنقل ، كان يشكل حكمه كنوع من التمهيد للاقتراب من واحد منها ، سواء لاستخدام هاتف أو تعبئة استمارة أو التحقيق في جريمة؟ فجأة ، يصبح أمان المنازل مهمًا للغاية . هل تريد حقًا طرق باب أحد المنازل بنفسك إذا كانت هناك احتمالية بأن سكان ذلك المنزل أشرار وربما يرتكبون جريمة ويفلتون من العقاب؟ إن حكمك على المنزل . من الأفضل أن يكون صحيحًا ، وليس نتيجة التأثير بيوم مشرق . لكن علينا أن نعرف أن العليات الداخلية لأدمغتنا تؤثر على حكمنا خارج وعينا ، وكذلك علينا أن نكون مدركين لتأثير العالم الخارجي على تلك الأحكام . فعدم وجود شيء ما في علية أدمغتنا لا يعني أنه لا يمكن أن يؤثر على المرشحات الخاصة بعلية دماغنا بطرق واقعية وحقيقية جدًا .

لا يوجد شيء من هذا القبيل كالبيئة «الموضوعية» . يوجد فقط إدراكنا لها ، ذلك الإدراك الذي يعتمد جزئيًا على طرق اعتيادية في التفكير (نزعة واتسون) وبجزء آخر على الظروف المباشرة (اليوم المشرق) . ولكن من الصعب علينا أن ندرك مدى تأثير مرشحات علية أدمغتنا على تفسيرنا للعالم . عندما يتعلق الأمر بالاستسلام لليوم الربيعي المثالي ، فإن واتسون غير المستعد بالكاد وحده ، وبالكاد يلام على ردة فعله . أما الطقس فهو أمر في غاية الأهمية ، وهو يؤثر علينا بانتظام على الرغم من أنه ربما تكون لدينا فكرة بسيطة عن تأثيره . لنأخذ مثالاً ؛ في الأيام المشمسة

يقول الناس أنهم يكونون أكثر سعادة وبأن رضاهم العام عن الحياة يفوق ذلك الذي يكون لديهم في الأيام الممطرة . وهم مع ذلك ليس لديهم فكرة عن العلاقة بين هذا وذاك ، حيث أنهم فعليًا يعتقدون أنهم أكثر استقرارًا ووفاء كأفراد عندما يشاهدون الشمس المشرقة في السماء الزرقاء ، وهذا يشبه ما رأه واتسون من النافذة .

ويتجاوز التأثير القرارات عن الذات ليشمل القرارات الأكثر أهمية . ففي الأيام الممطرة ، يولي الطلاب الباحثين عن كلية محتملة للالتحاق بها اهتمامًا أكبر للأكاديميين أكثر مما يفعلون في الأيام المشمسة ، فكل انحراف معياري يسبب زيادة في الغطاء السحابي في يوم زيارة الكلية يزيد احتمالية التحاق الطالب بتلك الكلية ٩٪ . عندما يتحول الطقس إلى رمادي ، فإن احتمالية اتخاذ التجار لقرارات تجنب المخاطر تزداد ، ومع دخول الشمس ، تزداد خيارات التماس الخطر . ويقوم الطقس بما هو أكثر من تشكيل مشهد جميل ، فهو يؤثر على ما نراه مباشرة وعلى ما نركز عليه وعلى كيفية تقييمنا للعالم . ولكن هل تريد فعلاً أن تضع قاعدة لاختيار الكلية ، وهو حكم يتعلق بسعادتك الكاملة (وسأكون فضوليًا لمعرفة إذا ما كانت المزيد من حالات الطلاق أو الانفصال تحصل في الأيام الممطرة أكثر من المشمسة) أو أنك تتخذ قرارًا يتعلق بعمل تجاري تود القيام به بناء على حالة الجو؟

من الناحية الأخرى ، يغفل هولمز عن الطقس ، فقد كان مستغرقًا في قراءة الجريدة طوال الرحلة . أو بالأحرى لم يكن غافلاً تمامًا ، ولكنه يدرك أهمية تركيز الانتباه ويختار أن يتجاهل اليوم كما تجاهل جاذبية ماري بقوله : «لم ألاحظ» . وبطبيعة الحال ، فهو يلاحظ ذلك . ويبقى السؤال فيما إذا كان لاحقًا سيهتم أو ينتبه لما

يراه ، وبالتالي يسمح لمحتويات عليّة دماغه بالتغير بأي طريقة نتيجة لذلك . فمن يعرف كيف كانت الشمس ستؤثر عليه إذا لم تكن لديه قضية وسمح لوعيه بأن يهيم . لكن كما هو الحال ، فإنه يركز على تفاصيل مختلفة تمامًا وسياق مختلف كليًا . وعلى الخلاف من واتسون ، فهو قلق ومشغول البال لأسباب مفهومة . وبعد كل شيء ، استدعته امرأة شابة قالت بأنها ضاقت ذرعًا بما يحصل معها وأنها غير قادرة على اتخاذ قرار . أما هو فمكتئب ويبتلع التفكير ، ومستهلك بالكامل من التفكير باللغز الذي على وشك أن يواجهه فهل من المفاجئ بمكان بعد هذا أنه يرى في المنازل ما يذكره بالحالة التي كانت تشغل باله؟ ربما لا يكون هذا الأمر العرضي بأهمية الطقس لواتسون ، ولكنه يبقى مع ذلك مهمًا

لكنك قد تجادل (محقًا) بأنه ألم يتعرض واتسون إلى ذات الرسالة من قبل العميلة القلقة؟ في الواقع لقد حصل ذلك . لكن بالنسبة له هذه المسألة بعيدة كل البعد عن العقل . وذلك هو الشيء بخصوص العوامل الرئيسية ، فتأثيرها عليك يختلف عن تأثيرها علي . تذكر النقاش السابق حول البنية الداخلية لعلية الدماغ وتمييزاتنا المعتادة وأنماط تفكيرنا . وعلى أنماط التفكير الاعتيادية تلك أن تتفاعل مع البيئة من أجل تحقيق التأثير الكامل للتأثيرات الخفية وطليلة الشعور على عملية التفكير لدينا لترسخ ، وهذه الأشياء هي التي تؤثر على ما نلاحظه بشكل كبير وتجعل ذلك العنصر يعمل في طريقه إلى أدمغتنا .

تخيل أنني عرضت عليك مجموعات من خمس كلمات وطلبت منك تشكيل جملة من أربع كلمات من كل مجموعة ربما تبدو الكلمات غير مؤذية بما فيه الكفاية ، ولكن يختبئ بينها ما

يسمى بمحفزات الهدف ؛ فكلمات مثل وحيد ، حذر ، فلوريدا ، عاجز ، متماسك ، وساذج . هل تذكرك بشي؟ إذا جمعتهما كلها معاً فربما تذكرك بشكل جيد بعمر الشيخوخة ، ولكن وزعها على ثلاثين مجموعة من تركيبات من خمس كلمات ، سيكون التأثير أقل لفتاً للنظر . حتى أقل من ذلك بكثير ، في حقيقة الأمر لا يوجد مشارك واحد شاهد الجمل -من عينة من ستين في الدراستين الأصليتين التي تتكون كل منهما من ثلاثين كلمة- وقد أدرك بأن لها أي ترابط موضوعي . لكن نقص الوعي ذلك لا يعني نقص التأثير .

إذا كنت واحداً من مئات الأشخاص الذين استخدمت معهم هذه المهمة منذ أن تم عرضها عام ١٩٩٦ ، فإن أشياء كثيرة قد حصلت . ستمشي الآن بشكل أبطأ مما كنت عليه سابقاً ، وربما حتى يحدوب ظهرك قليلاً (كل من الدليل على التأثير الفكري الحركي للعامل الرئيسي أو أثرها على الحركة الجسدية الفعلية . وسيكون أداؤك سيئاً في سلسلة من المهام الإدراكية ، كما وستكون أبطأ في التجاوب لأسئلة معينة ، حتى أنك ربما تشعر بأنك مرهق وأكبر من عمرك الفعلي . لماذا؟ لقد تعرضت إلى تأثير فلوريدا ؛ أي سلسلة من صور نمطية مرتبطة بالعمر قامت عن غير وعي منك بتفعيل سلسلة من العقدة والمفاهيم في دماغك ، والتي بدورها حفزتك على التفكير والتصرف بطريقة معينة .

أي العقد تم لمسها تحديداً وكيفية انتشار التفعيل يعتمد على علية دماغك وخصائصها الخاصة . فعلى سبيل المثال ، إذا كنت من ثقافة تثنى حكمة كبار السن بشكل كبير ، بينما تكون لا تزال تبطن مشيك ، ربما تكون قد أصبحت أسرع قليلاً في ذات المهام الإدراكية . ولكن من الناحية الأخرى ، لو كنت تحمل موقفاً سلبياً

من كبار السن ، فإنه من المحتمل أن تكون مررت بتأثيرات جسدية كانت معاكسة لتلك التي يظهرها الآخرون ؛ فربما تكون مشيت بشكل أسرع ووقفت مستقيماً قليلاً ، لتثبت أنك لست مثل العامل المستهدف تلك هي النقطة . فالعامل الرئيسي لا يوجد في الفراغ ، ونتائجه تختلف ، وعلى الرغم من أن الأفراد ربما يتجاوبون بشكل مختلف ، إلا أنهم سيتجاوبون .

ذلك في الأصل هو التفسير لماذا يمكن أن تعني ذات الرسالة شيئاً مختلفاً لهولمز عما تعنيه لواتسون . بالنسبة لهولمز ، فهي تدرج تحت النمط المتوقع المرتبط بعقلية وجدت بشكل معتاد لحل الجرائم . أما بالنسبة لواتسون ، فإنه بالكاد يهم ، وسرعان ما تتفوق عليه السماء الجميلة والطيور المفردة . وهل ذلك أمر مفاجئ؟ بشكل عام ، أعتقد أنه من الأمن بمكان الافتراض بأن واتسون يرى العالم على أنه مكان أكثر ودية مما يراه هولمز . وهو عادة ما يظهر ذهولاً حقيقياً فيما يتعلق بشكوك هولمز وخشيته فيما يتعلق بالكثير من استنتاجاته القائمة . فحيثما يرى هولمز النوايا الشريرة بسهولة ، يرى واتسون وجهاً جميلاً ومتعاطفاً . وبينما يحمل هولمز معرفته السابقة حول الجرائم ويطبق المعرفة من الماضي على الحاضر ، فإنه ليس لدى واتسون ذلك المخزون لتذكره ، وعليه الاعتماد على ما يعرفه ؛ أي الطب والحرب وإقامته المؤقتة مع المحقق . أضف إلى ذلك توجه هولمز عندما يكون في قضية قائمة ؛ حيث يسعى لتجميع تفاصيلها ، والانجرف إلى عالم عقله الخاص عازلاً نفسه عن المشتتات الخارجية غير ذات الصلة بالموضوع المتناول بالمقارنة بواتسون الذي يكون سعيداً بملاحظة جمال يوم ربيعي ونداء التلة المنحدرة . هنا لديك عليتان للدماغ تختلفان في البنية والمحتوى ومن

المحتمل أنهما ستقومان بترشيح أي مدخل تقريباً بطريقة متميزة .
علينا ألا ننسى تحليل عوامل ومكونات العقلية الاعتيادية ؛ أي
التفكير المعتاد . فكل حالة هي مزيج من أهداف ومحفزات اعتيادية
وأخرى لحظية تتعلق بهذه اللحظة ؛ أي بنية عليية دماغنا وحالتها
الراهنة إذا جاز التعبير . ويمكن أن يحفز العامل الرئيسي أفكارنا في
اتجاه معين ، سواء أكان هذا العامل يوماً مشرقاً أو رسالة مقلقة أو
قائمة من الكلمات . لكن ما يحفزه وكيف يحفزه يعتمد على ما هو
داخل عليية دماغنا وكيف تم استخدام بنية العلية على مدى
الوقت .

لكن هنا الأخبار الجيدة : يتوقف العامل الرئيسي عن كونه
كذلك عندما نكون مدركين لوجوده . دراسات الطقس والمزاج مثلاً؟
يختفي التأثير إذا كان الأفراد مدركين بوضوح لليوم الماطر ؛ أي إذا تم
سؤالهم عن الطقس قبل الحديث عن مستوى سعادتهم ، فلا يعد
للطقس تأثير . في دراسات حول تأثير البيئة على المشاعر إذا كان
هناك سبب غير عاطفي ، يتم القضاء على تأثير العامل الرئيسي
بالمثل . على سبيل المثال ، في واحدة من الدراسات الكلاسيكية
عن المشاعر ، إذا أعطيت جرعة من الأدرينالين ثم تفاعلت مع
شخص يظهر شعوراً قوياً (إيجابياً كان أم سلبياً) ، فإنك من المحتمل
أن تعكس ذلك الشعور . ولكن إذا تم إعلامك بأن الجرعة التي
ستأخذها ستثير لديك أثراً جسدية ، فإن الانعكاس سيخف . في
الواقع ، يمكن للدراسات هذه أن تكون صعبة التكرار ؛ مثلاً اهتم
بالية العناصر الرئيسية ، وسيكون من المحتمل أن تجد التأثير يتناقص
حتى يصل الصفر . عندما نكون مدركين لسبب تصرفنا ، فإنه
يتوقف عن التأثير علينا ؛ حيث لدينا الآن شيء آخر نعزي إليه

المشاعر والأفكار التي ربما تم تفعيلها أياً كانت . ولهذا فإننا لا نعود نقتنع بأن الدافع ينبع من أدمغتنا ، وذلك نتيجة لإرادتنا الخاصة

تحفيز سلبية أدمغتنا

إذن ، كيف ينجح هولمز في تخليص نفسه من الأحكام الفورية والسابقة للانتباه لعلية دماغه؟ وكيف ينجح في عزل نفسه عن التأثيرات الخارجية التي تمارسها البيئة على دماغه عند أي لحظة؟ إن تلك المعرفة والوجود هما المفتاح . لقد وصل هولمز إلى مرحلة سلبية من امتصاص المعلومات كإسفنجة راشحة .

على أبسط المستويات ، يدرك - كما تفعل أنت الآن- كيف تبدأ عملية التفكير لدينا ولماذا من المهم الانتباه جيداً من البداية . إذا أوقفته وشرحت لك كل سبب لانطباعاتك ، فإنك ربما لا تغيرها («لكنني طبعاً لا أزال على صواب») ولكنك على الأقل ستعرف من أين أتت . وتدريبياً ربما تجد نفسك تتأني قليلاً قبل أن يصدر دماغك الحكم ؛ وفي هذه الحالة ستكون أكثر عرضة للاستماع إلى حكمته إن هولمز لا يأخذ أي شيء حتى ولو كان انطباعاً مفرداً على أنه من المسلمات . وهو لا يسمح لأي محفز يحصل بأن يلفت انتباهه ليملي ما سيدخل إلى عليه دماغه وما سوف لا يدخل إليها وكيف أن محتويات العلية سيتم تفعيلها أو سوف لا يتم . ويظل هولمز دائماً نشيطاً وحذراً خشية أن يظل العامل الرئيسي طائشاً وضالاً طريقه إلى جدران فضاء دماغه النقية . وفي الوقت الذي ربما يكون فيه ذلك الانتباه الدائم مرهقاً ، في الحالات التي يكون فيها الجهد مهماً ويستحق كل هذا العناء ، فإننا ربما نجد مع مرور الوقت أنه يصبح أقل وأقل إجهاداً .

في الحقيقة ، إن كل ما يتطلبه الأمر هو أن تسأل نفسك ذات الأسئلة التي يطرحها هولمز على أنها من المفروغ منه بمكان . هل هناك ما هو في متناول اليد وغير ضروري للمسألة ولكنه يؤثر على حكمي عند أي نقطة كانت؟ (ستكون الإجابة غالبًا نعم) . إذا كان الأمر كذلك ، كيف يمكنني ضبط إدراكي وفقاً لذلك؟ ما الذي أثر على انطباعي الأول ، وهل أثر ذلك الانطباع بدوره على الانطباعات الأخرى؟ إن الأمر ليس أن هولمز غير سريع التأثير بالعوامل الرئيسية ، بل إنه يعرف قدرتها حق المعرفة . لذا نجد أنه حيثما يطرح واتسون حكماً حول امرأة أو منزل ، فإن هولمز يصحح انطباعه دائماً بقوله : «نعم ، ولكن» . إن رسالته بسيطة ؛ وهي لا تنسى أبداً أن الانطباع الأولي هو ذلك فقط ، وخذ وقتك لتفكر ملياً في سببها وفيما قد يكون مهماً لهدفك العام . سيقوم دماغنا بأشياء محددة بطبيعة الحال ، سواء أردنا ذلك أم لم نرد . إننا لا نستطيع تغيير ذلك ، ولكننا نستطيع تغيير فيما إذا كنا سنأخذ ذلك الحكم المبدئي على أنه من المسلمات أم لا ، أو نتحقق منه حتى العمق .

وعلينا ألا ننسى ذلك الاتحاد الفعال بين تنبيه الذهن والتحفيز . بكلمات أخرى ، شكك في نفسك وفي دماغك . ارصد الأشياء بفاعلية متجاوزاً السلبية التي هي حالتنا الافتراضية . فهل كان ذلك نتيجة سلوك فعلي موضوعي (قبل أن تطلق على ماري صفة القديسة ، هل راقبتها وهي تتصرف بطريقة أو تقوم بشي من شأنه أن يقودك إلى التفكير بما فكرت به؟) أم أنه رأي شخصي (حسناً ، لقد بدت جميلة بشكل لا يصدق) ؟

عندما كنت في الكلية ، ساعدت في إدارة نموذج مؤتمر عالمي للأمم المتحدة . كنا كل سنة نسافر إلى مدينة مختلفة وندعو طلاب

جامعات من كل الأنحاء للمشاركة في عملية محاكاة . كان دوري رئيسة لجنة ؛ حيث أجهز المواضيع وأدير النقاشات ، وفي نهاية المؤتمر أمّنع الجوائز للطلاب الذين أعتقد بأن إنجازهم كان الأفضل . كان دوراً بسيطاً للغاية ؛ إلا عندما يتعلق الأمر بالجوائز .

في عامي الأول في هذا العمل ، لاحظت أن جامعتي أوكسفورد وكامبردج قد عادتاً بعدد غير متكافئ من جوائز المتحدثين بالمقارنة مع الجامعات الأخرى . هل كان أولئك الطلاب ببساطة أفضل إلى هكذا حد أم أنه كان هناك أمر آخر؟ شككت في الأخيرة . فبعد كل شيء ، كان هناك ممثلون لأفضل الجامعات في العالم قد شاركوا في المؤتمر ، وبينما كانت جامعتنا أوكسفورد وكامبردج استثنائيتين فعلياً ، إلا أنني لم أعرف بأنه من الضرورة بمكان أن ممثليها هم الأفضل . ما الذي كان يجري؟ هل كان زملائي مقدمو الجائزة متحيزين نوعاً ما؟

في السنة التالية ، قررت أن أرى إن كان بإمكانني معرفة ذلك . حاولت مراقبة ردة فعلي على كل طالب أثناء حديثه ملاحظة انطباعاتي والنقاشات التي تتم إثارته ومدى نجاح هذه النقاط ونقاشات الطلاب في الإقناع ؛ وهنا وجدت أمراً مثيراً للقلق . بالنسبة لأذني ، بدا طلاب أوكسفورد وكامبردج أكثر ذكاء . ضع طالبين إلى جانب بعضهما البعض واطلب منهما أن يقولوا ذات الشيء ، بالنسبة لي سأحب الطالب الذي يتحدث اللهجة البريطانية أكثر . ليس لهذا الأمر معنى على الإطلاق ، لكن ما حصل في دماغي هو أن تلك اللهجة قد حفزت نوعاً من الصور النمطية والتي بدورها أدت إلى التحيز في بقية الأحكام . مع اقترابنا من نهاية المؤتمر واقتراب موعد اتخاذ القرار بشأن تسليم

الجوائز ، كنت على يقين بأن المندوبين البريطانيين هم الأفضل على الإطلاق ؛ وكان إدراكي غير مرضٍ .

كانت الخطوة اللاحقة التي قمت بها هي مقاومة ذلك الشعور ، فحاولت التركيز على المضمون وحده ؛ أي ما كان يقوله كل طالب وكيف كان يقوله . هل أضاف شيئاً إلى النقاش؟ هل أثار نقاطاً بحاجة أن تثار؟ من ناحية أخرى ، هل أعاد تشكيل ملاحظة شخص آخر ، أم أنه فشل في إضافة أي شيء موضوعي؟

أكون كاذبة لو قلت إن العملية كانت سهلة . محاولة بكل جهدي ، وجدت نفسي متورطة بالنبرة واللهجة ، أي بإيقاع الجمل لا بمضمونها . وهنا أصبح الأمر مخيفاً حقاً ؛ ففي النهاية لا تزال لدي الرغبة في منح جائزة أفضل متحدث لمثلة جامعة أكسفورد والتي كانت حقاً الأفضل . وجدت نفسي أقول ألا أصبح الأمر بعيداً جداً في الاتجاه الآخر لو فشلت في الاعتراف ، وبالتالي أعاقبها فقط لكونها بريطانية؟ لم أكن أنا المشكلة . وجوائز مستحقة بجدارة حتى ولو لم تذهب لطالب من جامعة أكسفورد . لقد كان الآخرون جميعاً متحيزين .

إن مندوبة جامعة أكسفورد لم تكن الأفضل ؛ حيث عندما نظرت إلى ملاحظاتي المضمينية ، وجدت أن هناك العديد من الطلاب الذين تفوقوا عليها على الدوام . كانت ملاحظاتي وذاكرتي وانطباعي على خلاف كامل . وفي نهاية المطاف ، اعتمدت الملاحظات . لكنه كان نضالاً حتى اللحظة الأخيرة ، وحتى بعد ذلك لم أتمكن من التخلص من الشعور الملح بأن الطالبة الممثلة لجامعة أكسفورد حرمت من شيء تستحقه .

إن حدسنا قوي حتى عندما يكون غير دقيق تماماً . لذلك من

الضروري أن نسأل عندما نكون في قبضة حدس عميق (سواء أكان شخصاً رائعاً أم منزلاً جميلاً أو جهداً كبيراً أو مجادلاً موهوباً) على أي أساس بنيت حدسي؟ وهل أستطيع الثقة به حقاً أم أنه مجرد نتيجة لأعيب ذهني؟ إن التحقق الخارجي الموضوعي، مثل ملاحظات اللجنة الخاصة بي، هو عامل مساعد، ولكنه غير ممكن دائماً. أحياناً نحتاج فقط لنذكر أنه حتى ولو كنا على يقين، فإننا غير متجيزين بأي طريقة كانت. ولا شيء عرضي يؤثر على أحكامنا واختياراتنا، وتكون الفرص بأننا لا نتصرف بطريقة عقلانية أو موضوعية تماماً. وبذلك الإدراك - أنه من الأفضل غالباً بالآ تثق بحكمك الخاص - يكمن المفتاح لتحسين حكمك إلى الحد الذي يصبح عنده موثوقاً. الأكثر من ذلك أننا إذا كنا متحفزين لنكون دقيقين، فإن الترميز الأولي الذي ربما نقوم به قد تكون فرصته أقل للخروج عن نطاق السيطرة.

لكن حتى ما بعد الإدراك، تكمن الممارسة المستمرة للشيء والحدس الدقيق ما هو إلا ممارسة، والسماح للمهارة أن تحل محل الاستدلال المتعلم. وكما أننا لسنا يقظون للبدء به، فإننا لا نولد وقد قدر لنا أن نتصرف بما يتماشى مع عادات التفكير الخاطئة الخاصة بنا. وينتهي بنا المطاف أن نقوم بذلك بسبب التعرض المستمر والممارسة، ونقص ذات الانتباه اليقظ الذي يحرص هولز على منحه لكل فكرة يفكر بها. ربما لا ندرك أننا أعدنا تعزيز أدمغتنا لتفكر بطريقة معينة، لكن ذلك في الحقيقة هو ما قمنا به وهذه الأخبار جيدة وسيئة في ذات الوقت؛ حيث أننا إذا قمنا بتعليم أدمغتنا، يمكننا أيضاً ألا نقوم بذلك أو أن نقوم به بشكل مختلف. وأية عادة يمكن تغييرها إلى عادة أخرى. ومع مرور الوقت

يمكن للمهارة أن تغير الكشف عن مجريات الأمور . وكما يصيغها هيربرت سيمون ، وهو واحد من مؤسسي ما نسميه اليوم بمجال الأحكام وصنع القرارات ، «الحدس ليس أكثر ولا أقل من الإدراك» .

لقد قام هولز بألاف ساعات الممارسة علينا . وتشكلت عاداته من خلال فرص لا تعد ولا تحصى امتدت لأربعة وعشرين ساعة في اليوم و٣٦٥ يوم في السنة وذلك لكل سنة منذ طفولته . من السهل أن نصبح محبطين في حضور هولز ، ولكن في النهاية ربما نكون أكثر إنتاجية من أجل أن نصبح ملهمين به بدلاً من ذلك . وإذا كان بإمكانه القيام بذلك ، فإنه بإمكاننا أيضاً وإن كان الأمر سيستغرق بعض الوقت . إن العادات التي تطورت على امتداد هكذا فترة زمنية حتى شكلت نسيج أدمغتنا لا يمكن تغييرها بسهولة

إن الوعي هو الخطوة الأولى ، فبالنسبة لهولز مكنه الوعي الذي امتلكه من تجنب الكثير من الأعطال التي ابتلي بها واتسون والمفتشون وعملاؤه وخصومه . ولكن كيف ينتقل من الوعي إلى شيء أكثر من ذلك ، شيء قابل للتنفيذ؟ تبدأ العملية بالملاحظة ؛ فبمجرد أن نفهم كيف تعمل عليـة دماغنا ومن أين تنشأ عملية التفكير لدينا ، نكون في موضع لتوجيه انتباهنا إلى الأشياء التي نهم بعيداً عن تلك التي لا نهم ، وهنا فإننا ننتقل إلى مهمة الملاحظة الواعية .

**الجزء الثاني؛
من الملاحظة إلى التخيل**

الفصل الثالث التخزين في عليية الدماغ

سلطة الملاحظة

كانت ليلة أحد ، وقد حان الوقت ليقوم أبي بقراءة المساء . في وقت سابق من الأسبوع كنا قد أنهينا رواية الكونت دي مونت كريستو وذلك بعد رحلة مؤلمة استغرق إتمامها عدة أشهر كانت فيها التوقعات والجهود المبذولة منا عالية . وهناك ، بعيداً عن قلاع فرنسا وحصونها وكنوزها ، وجدت نفسي وجهاً لوجه مع رجل بإمكانه النظر إلى شخص تعرف عليه لتوه وللمرة الأولى معلناً بيقين مطلق : «لقد كنت في أفغانستان كما أرى» ، ويجيب واتسون : «كيف عرفت ذلك برب السماء؟» كان ذلك تماماً ما شعرت به ؛ أي كيف عرف ذلك . لقد كان جلياً لي أن المسألة تجاوزت الملاحظة البسيطة للتفاصيل .

لقد فعلتها؟ عندما يتساءل واتسون كيف يمكن لهولمز أن يعرف عن خدمته العسكرية فإنه يفترض بأن أحدهم أخبر المحقق مسبقاً . فببساطة ، من المستحيل أن يعرف أحد ما حقيقة كهذه من النظر فقط .

يقول هولمز : «لا شيء من هذا القبيل ؛ فالأمر ممكن برمته» . ويتابع قائلاً :

«لقد عرفت أنك قادم من أفغانستان . فقد عبر قطار الأفكار

من دماغي بسرعة حتى وصلت الاستنتاج دون أن أدرك الخطوات الوسيطة والتي كانت فعليًا موجودة . مشى قطار المنطق . هنا رجل من نمط طبي ولكن بمظهر عسكري . بالتالي من الواضح بمكان أنه طبيب عسكري . لقد عاد لتوه من المناطق المدارية وذلك لأن وجهه غامق اللون ، وهذا ليس اللون الطبيعي لجلده ، فرسغاه مختلفا اللون . وقد جرب المصاعب والمرض كما يوحى وجهه الشاحب بوضوح . وذراعه اليسرى قد جرحت ، فهو يسيطر عليها بصعوبة وبطريقة غير طبيعية . فأين يمكن لرجل إنجليزي طبيب أن يرى هكذا صعوبة ويواجه جرحًا في يده إذا كان في المناطق المدارية؟ من الواضح أنه في أفغانستان . إن قطار الأفكار هذا برمته لم يستغرق ثانية واحدة ، ثم قلت إنك جئت من أفغانستان ، وأنت اندهشت بدورك»

عن المؤكد أن نقطة البداية هي الملاحظة ، وبكل بساطة ووضوح . ينظر هولمز إلى واتسون ودفعة واحدة يكتشف تفاصيل مظهره الجسدي وسلوكه وتصرفاته . ومن هذه الأمور يكون صورة للرجل ككل ، تمامًا كالذي قام به جوزيف بيل في حضور آرثر كونان دويل المندهش .

لكن ذلك ليس كل ما في الأمر . فالملاحظة -وهي الطريقة التي يستخدم بها هولمز الكلمة عندما يعطي رفيقه الجديد موجزًا عن حياته من لمحة واحدة- لا تستلزم أكثر من ملاحظة . إن الأمر لا يتعلق فقط بالعملية السلبية للسماح بالأشياء بالدخول إلى مجالك البصري فحسب ، بل ويتعلق بمعرفة ماذا وكيف تلاحظ ، وأن توجه انتباهك وفقًا لذلك : ما هي التفاصيل التي تركز عليها؟ ما هي التفاصيل التي تحذفها؟ كيف تأخذ بتلك التفاصيل التي

تختار تكبيرها وتستولي عليها؟ بكلمات أخرى ، كيف تزيد إمكانية
علية دماغك إلى الحد الأعلى؟ إذا كنت تتذكر التحذيرات السابقة
لهولمز ، إنك لا تلقي بالتفاصيل القديمة في علية دماغك فحسب ،
بل إنك تريد الحفاظ عليها نظيفة بالقدر الممكن . إن كل شيء
نختار أن نلاحظه يمكن أن يصير أثنائاً مستقبلياً لعليات أدمغتنا ،
والأكثر من ذلك أن إضافته ستعني تغييراً في منظر علية الدماغ ،
والذي بدوره سيؤثر على كل الإضافات المستقبلية ، لذلك علينا أن
نختار بحكمة

إن الاختيار بحكمة يعني أن نكون انتقائيين . وهو يعني ألا
ننظر فقط ، بل أن ننظر كما ينبغي ؛ أن ننظر بتفكير حقيقي . أن
ننظر وكلنا علم بأن ما نلاحظه وكيف نلاحظه سيشكل القاعدة
لأية استنتاجات مستقبلية يمكن أن نتوصل إليها . وهو يتعلق برؤية
الصورة الكاملة مع ملاحظة التفاصيل التي تهمل وكيف نؤطر تلك
التفاصيل ضمن إطار أوسع من الفكر

لماذا يلاحظ هولمز التفاصيل المتعلقة بمظهر واتسوں ولماذا يختار
نظيره الحقيقي بيل أن يلاحظ ما فعله في سلوك مريضه الجديد؟
أخبر الطبيب طلابه قائلاً : «أيها السادة ، أنتم ترون أن الرجل كان
محترماً ، ولكنه لم يزل قبعته . إنهم لا يقومون بذلك فعلياً في
الجيش ، ولكنه كان قد تعلم أساليب مدنية كان قد تبرأ منها لفترة
طويلة . لقد كان يعيش جو السلطة ، ومن الواضح أنه أسكتلندي .
بالنسبة لباربادوس ، فإن تظلمه متضخم ، وهو غربي هندي وليس
بريطاني ، وأنظمة الحكم الأسكتلندية حاضرة في تلك البقعة من
الأرض . ولكن كيف عرف أي التفاصيل الجسدية للمريض هي
المهمة؟ لقد نبغ ذلك من ممارسة محضه امتدت لأيام وسنين . فقد

رأى الدكتور بيل الكثير من المرضى ، وسمع الكثير من القصص الحياتية وقام بالعديد من الفحوصات كالتي قام بها لهولمز حتى أنها صارت جميعها طبيعية عند نقطة معينة . وبيل الشاب غير المتمرس كان من الصعوبة بمكان أن يكون بنفس المستوى من الفطنة) .

إن الشرح الذي قدمه هولمز مسبقاً بالنقاش بين الرجلين حول مقالة «كتاب الحياة» والتي كتبها هولمز لصحيفة الصباح ؛ وهي ذات المقالة التي أشرت لها مسبقاً والتي توضح إمكانية أن ينبع شلال أو محيط من قطرة ماء واحدة . بعد تلك البداية الماثية ، يواصل هولمز تعميم المبدأ على التفاعل البشري .

قبل التحول إلى تلك الجوانب الأخلاقية والعقلية للمسألة والتي تشكل أكبر الصعوبات ، دع المتقضي يبدأ بإتقان التعامل مع مشاكل أكثر أساسية . دعه ، عن طريق مقابلة زميل بشري ، يتعلم التمييز بين تاريخ إنسان ومهنته ، ويلمح واحدة . فالصبيانية تشحذ القدرة على الملاحظة ، وتعلم الإنسان عن ماذا يبحث وأين يفعل ذلك . فمن خلال أظافر الشخص أو كم معطفه أو ركب بنطاله أو صلابته سببته وإبهامه أو تعبيراته أو أصفاد قميصه ، تكشف حرفته بوضوح . وبالتالي لا يمكن تصور أن كل تلك الأشياء مجتمعة تفشل في تنوير المستعلم المختص في أية قضية يواجهها

لنفكر مرة أخرى في كيف يرى هولمز الفترة التي قضها واتسون في أفغانستان . فعندما يدرج العناصر التي ساعدته ليحدد بدقة مكان الإقامة المؤقتة لواتسون ، فهو يذكر في مثال من أمثلة كثيرة - شيئاً لا يمثل ذلك المناخ ، لذلك لا بد من أنه تم اكتسابه من مكان آخر-والذي تم تفسيره على أنه وصل من منطقة مدارية . لكن

وجهه شاحب ، بالتالي يتضح أن السبب وراء شحوبه ليس أنه كان يقضي إجازة ، لكن شيئاً آخر جعله ليس بخير . وتحمله؟ الصلابة غير طبيعية في إحدى ذراعيه كانت كتلك الناتجة من جرح المناطق المدارية ، المرض ، والإصابة ؛ خذها معاً كقطع من صورة أكبر ؛ هنا هي أفغانستان . تؤخذ كل ملاحظة في السياق جنباً إلى جنب مع الملاحظات الأخرى ؛ أي ليس كقطعة قائمة بذاتها ، بل كشيء يساهم في كل لا يتجزأ . وهولمز لا يكتفي بالملاحظة . فبينما ينظر إلى الأشياء ، يسأل الأسئلة الصحيحة عن تلك الملاحظات ، تلك الأسئلة التي سوف تسمح له بوضعها معاً والاستنتاج بأن المحيط نشأ من قطرة ماء . وهو لم يكن بحاجة ليعرف عن أفغانستان بحد ذاتها ليعرف أن واتسون قد عاد من حرب . ربما لم يكن يعرف ماذا يسميها إذن ، ولكن كان بإمكانه أن يتوصل إلى شيء جنباً إلى جنب مع السطور : «أرى أنك عدت لتوك من الحرب» شيء ربما لا يكون مثيراً للإعجاب ، ولكن له ذات القصد .

فيما يتعلق بالمهنة ؛ إن تصنيف طبيب يسبق تصنيف طبيب عسكري ، وليس العكس أبداً . وفيما يتعلق بذلك الطبيب ، فتخمين ذلك ركيك تماماً بالنسبة لشخص يمضي حياته في التعامل مع الإثارة . ولكن كلمة ركيك لا تعني أنه خاطئ . وإذا كنت قرأت التوضيحات الأخرى لهولمز ، فإنك ستلاحظ أن تخميناته بشأن المهنة نادراً ما تقفز إلى النهاية - ما لم يكن لذلك سبب جيد- إلى الالتصاق الباطني المؤسس بثبات في الملاحظة والحقيقة

ومهنة الطبيب هي مهنة أكثر شيوعاً من مهنة المحقق مثلاً ،

وهولمز لن ينسى ذلك . كما أن الملاحظة يجب أن يتم إدماجها في قاعدة معرفية قائمة . في حقيقة الأمر ، لو أتاحت الفرصة لهولمز بأن يقابل نفسه ، فإنه كان لن يحزر مهنته أبداً . وبعد كل شيء ، فهو المخبر المستشار الوحيد في العالم والذي يقر بذلك بنفسه . أما تكرار شيء ما بين السكان بشكل عام يكون مهمًا عندما يتعلق بطرح الأسئلة الصحيحة .

في الوقت الراهن ، لدينا حالة واتسون ؛ الطبيب القادم من أفغانستان . وكما يقول الطبيب بنفسه : «إن الأمر بسيط عندما ترى العناصر التي تقود إلى الاستنتاج» . لكن كيف نتعلم الوصول إلى ذلك الاستنتاج بأنفسنا؟ كل ذلك يعود إلى كلمة واحدة : الانتباه .

الانتباه هو أي شيء ما عدا أنه أولى

عندما تقابل هولمز وواتسون للمرة الأولى ، استنتج هولمز فوراً ماضي واتسون . ولكن ماذا عن انطباعات واتسون؟ بداية ، نحن نعرف أنه يعطي القليل من الانتباه للمستشفى - والتي يتوجه لها للقاء هولمز للمرة الأولى - حين يدخلها . ويخبرنا بأنها كانت «مكاناً مألوفاً» ، وهو لا يحتاج توجيه هناك .

عندما يصل إلى المختبر ، يجد هولمز بنفسه هناك . كان الانطباع الأول لواتسون أنه صدم بقوته ، حيث أمسك هولمز بيد واتسون «بقوة لم يستطع واتسون القيام بمثلها» . أما انطباعه الثاني فهو استغرابه من اهتمام هولمز بالاختبار الكيميائي الذي كان يوضحه للقادمين الجدد . أما انطباعه الثالث فهو الملاحظة الفعلية الأولى لهولمز من الناحية الجسدية ، حيث يقول : «لاحظتُ أن يده بأكملها

كانت مبقعة بقطع متشابهة من اللاصق الذي تغير لونه بسبب الأحماض القوية». لقد كان الاثنان الأولان انطباعين أو في مرحلة الانطباع أكثر من كونهما ملاحظتين؛ وهما أقرب إلى الحكم الغريزي طليع الشعور لجوسترينجر أو ماري مورستان في الفصل السابق. (لماذا لا ينبغي أن يكون هولز قويًا؟ يبدو أن واتسون قد تسرع حين افترض أن هولز نوعًا ما قريب من طالب طب، وبالتالي فهو شخص لا يرتبط بمآثر مادية وجسدية كبيرة. لماذا لا ينبغي أن يكون هولز متحمسًا؟ مرة أخرى، لقد عزا واتسون آراءه فيما يتعلق بما يؤهل ولا يؤهل إلى معرفته الجديد. أما الثالث فهو الملاحظة تماشياً مع تصريحات هولز بشأن واتسون؛ تلك الملاحظات التي قادته لاستنتاجه بشأن الخدمة في أفغانستان، باستثناء أن واتسون يقوم بذلك فقط لأن هولز يلفت انتباهه لها من خلال وضع ضمادة على إصبعه. ويوضح قائلاً: «عليّ أن أكون حذرًا، فأنا أشتغل بالسموم بشكل كبير». إن الملاحظة الحقيقية الأولى كما يتضح لا يقوم بها واتسون حتى يشار لها

لماذا النقص في الوعي والتقييم الشخصي والسطحي للغاية؟ يجيبنا واتسون عندما يعدد عيوبه لهولز. بعد كل شيء ليس على شريك السكن أن يعرف كل شيء عن الآخر. يلخص جوهر المشكلة بقوله: «أنا كسول للغاية». وواتسون بعيد كل البعد عن كونه وحيداً. ذلك الصدع يربك غالبيتنا على الأقل عندما يتعلق الأمر بالانتباه. في عام ١٥٤٠، أنهى هانز لادينسبيلر، وهو نحاح نحاسيات، العمل على منحوتة كان من المفترض أن تكون واحدة من سبعة، وكانت المنحوتة عبارة عن فتاة مستلقية على مرفقها على عمود، وكانت عيناها مغلقة، ورأسها مرتكز على يدها

اليسرى ، وكان هناك حمار يطل من فوق كتفها الأيمن . كان اسم هذه المنحوتة «أكيديا» ، واسم السلسلة «الخطايا السبع المميتة»
إن المعنى الحرفي لـ«أكيديا» هو غياب الاهتمام ، والكسل والتراخي ، والكسل الذي يعيشه الدماغ يعرفه قاموس أكسفورد على أنه «كسل معنوي أو عقلي ؛ أو لا مبالاة» . إنه ما يسميه الرهبة البينديكتيون بشيطان الظهيرة ؛ أي روح الخمول تلك والتي أغرت الكثيرين من الرهبة المخلصين ليمضوا ساعات من الخمول حيث كان يتوجب عليهم أن يكونوا عاملين روحانيين . وهذا ما قد يقود اليوم إلى اضطراب تشتت الانتباه ، وسهولة التشتت ، وانخفاض سكر الدم ، أو أي طابع نختار وضعه على ذلك العجز المزعج للتركيز على ما نحتاج الحصول عليه .

سواء أكنت تفكر بالأمر كخطيئة أو إغراء أو حالة لكسل الدماغ أو حالة طبية ، فإن الظاهرة تبرز ذات السؤال : لماذا يعد إنباء الانتباه أمراً بهذا القدر من الصعوبة؟

إنه ليس بالضرورة خطأنا . فكما تعلم طبيب الأعصاب ماركوس رايكل بعد عقود من البحث في الدماغ أن أدمغتنا تميل للتجول ، والتخبط هو حالتها الافتراضية . فحيثما تعلق أفكارنا بين أنشطة محددة ومنفصلة وموجهة نحو الهدف ، فإن الدماغ يعود إلى ما يسمى بحالة خط الأساس أو حالة الراحة . لكن لا تدع الكلمة تخدعك لأن الدماغ لا يكون في حالة راحة على الإطلاق . وبدلاً من ذلك يكون الدماغ يجرب نشاطاً منشطاً فيما يعرف الآن بشبكة الوضع الافتراضي ؛ أي القشرة الحزامية الخلفية والطلل المجاورة والقشرة المخية الوسطية . إن تفعيل خط الأساس هذا يوحي بأن الدماغ يجمع المعلومات بشكل مستمر من كل من العالم الخارجي

وحالاتنا الداخلية . والأكثر من ذلك أنه يراقب تلك المعلومات باحثًا عن إشارات لشيء يستحق انتباهه . وفي الوقت الذي يمكن فيه لهكذا حالة من الجاهزية أن تكون مفيدة من وجهة نظر تطويرية ، وتسمح لنا بكشف المفترسات المحتملة ، والتفكير بشكل تجريدي وعمل خطط مستقبلية ، فهي أيضًا تدل على شيء آخر ، وهو أن أدمغتنا صممت لتتخبط ، وتلك هي حالة الراحة بالنسبة لها ، وكل ما هو إضافي يتطلب إرادة واعية .

إن التأكيد المعاصر على تعدد المهام يلعب دورًا كبيرًا في ميولنا الطبيعية ، عادة بطرق محبطة . فكل مدخل جديد ، وكل طلب جديد نضعه على قائمة اهتمامنا يكون كمفترس محتمل ، فيقول الدماغ «أوه ، ربما عليّ الالتفات إلى ذلك بدلاً من هذا» ، ثم يأتي أمر آخر جنبًا إلى جنب مع هذا . بإمكاننا أن نغذي أدمغتنا المتخبطة إلى ما لا نهاية ، ولكن ما النتيجة؟ أننا نولي الانتباه لكل شيء وللشيء على أنه أمر مفروغ منه . وبينما ربما صممت أدمغتنا لتهميم ، فهي ليست كذلك لتبدل الأنشطة عند أي شيء يقترب من سرعة المتطلبات المعاصرة . كان من المفترض أن نظل جاهزين للانخراط في ذلك ، ولكن ليس الانخراط في أشياء متعددة في ذات الوقت أو حتى في تتابع سريع

لاحظ مرة أخرى كيف ينتبه واتسون أو لا يفعل حسب الحالة ، وذلك عندما قابل هولمز للمرة الأولى . إن الأمر ليس أنه لا يرى شيئًا ، حيث أنه يلاحظ «زجاجات لا تعد ولا تحصى ، وطاولات واسعة منخفضة مبعثرة في المكان مع وجود مقطرات وأنايب اختبار ومصابيح بنسن صغيرة بألسنتها الزرقاء ذات الوميض» . كل تلك التفاصيل ، ولكن لا شيء يصنع فرقًا بالنسبة

للمهمة التي في متناول اليد؛ أي اختياره لزميل السكن المستقبلي .

إن الانتباه مورد محدود ، والانتباه لشيء واحد يكون بالضرورة على حساب شيء آخر . فالسماح لعينيك بالتركيز على كافة المعدات العلمية في المختبر يمنعك من ملاحظة أي شيء مهم عن الرجل الموجود في ذات تلك الغرفة . إننا لا نستطيع تخصيص انتباهنا لأشياء متعددة في ذات الوقت ونتوقع منه أن يعمل بذات المستوى كالذي كان سيعمل به حين يركز على نشاط واحد فقط . فلا يمكن أن توجد مهمتان على رأس مقدمة الانتباه في ذات الوقت . حينها حتمًا سينتهي المطاف بوحدة منها لتكون محط التركيز ، بينما الأخرى أو الأخريات فستكون أقرب إلى الضوضاء غير ذات الصلة ؛ أي شيء يجب تصفيته خارجًا . أو الأسوأ من ذلك أن أيًا من هذه المهام لن يحصل على التركيز ، وبالتالي ستكون المهام جميعها ؛ إن كان الأمر أكثر وضوحًا ، ضجيجًا ، ولكن درجات الضجيج ذاتها .

فكر في الأمر كالتالي . سأعرض عليك سلسلة من الجمل ، ولكل جملة أريدك القيام بشيئين : الأول أن تخبرني إن كانت معقولة أم لا من خلال كتابة «م» للمعقولة و«غ» لغير المعقولة ، والأمر الثاني أن تحفظ الكلمة الأخيرة من كل جملة (بعد الانتهاء من كل الجمل ، ستقول كل الكلمات بالترتيب) . يمكن ألا يتطلب الأمر منك أكثر من خمس ثواني لكل جملة بما في ذلك قراءتها واتخاذ القرار إن كانت معقولة أم لا وحفظ الكلمة الأخيرة . (يمكنك استعمال الوقت الذي يعطى إشارة عند كل خمس ثواني ، أو تجد مؤقتًا إلكترونيًا أو محاولة تقدير الوقت بأفضل ما يمكنك) .

والنظر إلى جملة قد انتهت منها يعد غشاً . تخيل أن كل جملة تختفي بمجرد أن تقرأها ؛ هل أنت جاهز؟

كانت قلقة من أن تشعر بالحر فأخذت شالها الجديد .

قادت السيارة على طول الطريق الوعر بهدف الوصول إلى البحر .

عندما نضيف إلى منزلنا ، سنبنى جزءاً خشبياً

عرف العمال أنه لم يكن سعيداً عندما رأوا ابتسامته .

المكان كالمتاهة حتى أنه يصعب عليك أن تجد القاعة الصحيحة

نظرت الطفلة الصغيرة إلى ألعابها ثم لعبت بدميتها .

الآن اكتب الكلمات الأخيرة من كل جملة بالترتيب . مرة أخرى ،

لا تحاول الغش بالرجوع إلى الجمل .

أنهيت؟ لقد أنهيت لتوك تحققاً من الجملة ومهمة ممتدة . كيف كان أداؤك؟ أعتقد أنه كان جيداً إلى حد ما في البداية ، لكن المهمة ربما لا تكون بالبساطة التي توقعتها ؛ فتحديد الوقت الإلزامي يمكن أن يجعل الأمر شائكاً ، تماماً كما تفعل الحاجة إلى فهم وليس قراءة كل جملة من أجل التحقق منها . حيث أنه بدلاً من التركيز على الكلمة الأخيرة فقط ، يتوجب عليك معالجة معنى الجملة ككل أيضاً . وكلما ازداد عدد الجمل ، كلما ازداد تعقيدها وصار من الشائك أكثر معرفة فيما إذا كانت معقولة أم لا . وكلما نقص الوقت الذي أحده لك لكل جملة ، كلما نقصت احتمالية أن تكون قادراً على الاحتفاظ بالكلمات في دماغك ، خاصة إذا لم يكن لديك الوقت الكافي للتدرب .

ومن عدد الكلمات التي تستطيع تذكرها يمكنني إخبارك العديد من الأشياء . أولاً ، لو أنني طلبت منك النظر إلى كل جملة على شاشة كمبيوتر -خاصة عند تلك اللحظات التي كانت المهمة

أصعب ما يكون بالنسبة لك (مثلاً عندما كانت الجمل أكثر تعقيداً أو عندما كنت تقترب من نهاية القائمة) ، حيث كنت تحفظ عدداً أكبر من الكلمات الأخيرة في دماغك في ذات الوقت - فإنك من المحتمل جداً أن تفقد أي حروف أو صور أخرى والتي ربما تكون قد أومضت على الشاشة أثناء عدك . إن عينيك ربما تكون نظرت مباشرة إليها ، ولكن دماغك كان مشغولاً بالقراءة والمعالجة والتذكر بنمط ثابت حتى أنك فشلت بالتقاطها بشكل كامل . ودماغك كان محقاً في تجاهلها ، ذلك أنك لو لاحظت ملاحظة دقيقة ، فإن ذلك كان سيشتت انتباهك ، خاصة عندما تكون في منتصف المهمة المعطاة لك .

فكر في الشرطي في «دراسة في اللون القرمزي» والذي يخطئ المجرم بسبب انشغاله في النظر إلى الحركة في المنزل . حين يسأله هولز فيما إذا كان الشارع فارغاً ، فإن رانس (وهو الشرطي) يقول : «حسناً ، لقد كان كذلك» ولكن المجرم كان أمام عينيه مباشرة . كل ما في الأمر أنه لم يعرف كيف ينظر ، فبدلاً من أن يشك رأى رجلاً ثملاً وفشل في ملاحظة أي تناقضات أو صدف والتي ربما أخبرته بأشياء أخرى ، حيث كان مشغولاً جداً بالتركيز على المهمة الحقيقية المتمثلة في النظر إلى مشهد الجريمة

هذه الظاهرة عادة ما تسمى بعمى الانتباه ؛ وهي عملية يؤدي فيها التركيز على عنصر واحد في المشهد إلى اختفاء العناصر الأخرى ، وأنا شخصياً أفضل تسميتها بالغفلة المنتبهة . أما رائد المصطلح فهو أولريك نيسر ؛ وهو أب علم النفس المعرفي . حيث لاحظ كيف كان بإمكانه النظر من النافذة عند الشفق ، وإما رؤية العالم الخارجي أو التركيز على انعكاس الغرفة في الزجاج . لكنه

لم يستطع الانتباه إلى كلا الأمرين ، وبالتالي كان عليه التخلي عن أحدهما ، وقد أطلق على المصطلح اسم النظر الانتقائي .
لاحقًا ، في المختبر ، لاحظ أن الأفراد الذين شاهدوا مقطعي فيديو يظهر فيهما أشخاص منخرطين بأنشطة مميزة - على سبيل المثال ، في أحد المقاطع كانوا يلعبون لعبة البطاقات وفي الثاني كرة السلة- وقد استطاعوا بسهولة متابعة الأحداث في أحد الفيلمين ، ولكنهم أضاعوا أي حدث مفاجئ حدث في الآخر ، وبشكل كامل . فعلى سبيل المثال ، لو كانوا يشاهدون لعبة كرة السلة ، فإنهم لن يلاحظوا فيما إذا كان لاعبو البطاقات توقفوا فجأة عن لعب البطاقات ووقفوا ليتصافحوا . لقد كان الأمر كالاستماع الانتقائي ، وهي ظاهرة تم اكتشافها في الخمسينيات من القرن العشرين ، يحدث فيها أن الأشخاص الذين يستمعون إلى محادثة بأذن واحدة سيفوتون بشكل كامل شيئًا قيل في أذنه الأخرى باستثناء حين يكون على مقياس أكثر اتساعًا لأنه الآن مطبق على مشاهد متعددة وليس واحدًا فقط .

الأمر مرعب ؛ أليس كذلك؟ إنه يجب أن يكون كذلك ، فنحن قادرون على محو أجزاء كاملة من مجالنا البصري دون إدراك أننا نقوم بذلك . لقد عاتب هولمز واتسون لأنه يرى ولا يلاحظ ؛ وكان يمكن أن يذهب خطوة إلى ما بعد ذلك ، ذلك أنه يحدث أحيانًا أننا لا نرى أيضًا .

ونحن لسنا بحاجة إلى الانخراط بفعالية في مهمة متطلبية إدراكيًا للسماح للعالم بالمرور بنا بدون ذلك القدر من الإدراك لما نفوته . على سبيل المثال ، عندما نكون في مزاج سيء ، فإننا حرفيًا نرى أقل مما نرى حين نكون سعداء ، حيث يستوعب لحاؤنا

البصري معلومات أقل من العالم الخارجي . يمكننا النظر إلى ذات المشهد مرتين ؛ واحدة في يوم مضى بشكل جيد ، والثانية في يوم لم يكن كذلك وستكون النتيجة أننا نلاحظ أقل - وأدمغتنا ستستوعب أقل - في اليوم الكثيب .

إننا فعليًا لا نستطيع أن نكون مدركين ما لم نولي الانتباه لما حولنا ، ولا يوجد في ذلك استثناءات . نعم ، فالوعي ربما يتطلب الحد الأدنى من الانتباه فقط ، لكنه مع ذلك يتطلب بعضه . ولا شيء يحصل بشكل تلقائي تمامًا ، فلا يمكن أن نكون واعين لشيء ما لم نشهده .

لنعد إلى مهمة التحقق من الجملة للحظة . إنك لم تفقد فقط الشفق الذي ضرب به المثل للتركيز بإمعان في الانعكاس في النافذة ، لكن كلما فكرت بشكل أكبر ، كلما اتسعت حدقة عينك . ربما يمكنني معرفة الجهد العقلي الذي تبذله - كما مقدار عبء ذاكرتك وارتياحك بالمهمة التي تقوم بها ومعدل حساباتك وحتى النشاط العصبي للمصدر الوحيد لإفراز الناقلات العصبية في الدماغ ومساحة ضالعة في استرجاع الذاكرة والعديد من أعراض القلق والمعالجة الانتباهية الانتقائية ، والذي سيخبرني أيضًا فيما إذا كنت من المحتمل أن تستمر أو تياس - فقط من خلال النظر إلى حدقة عينيك .

لكن يوجد شيء مشجع واحد ؛ وهو أن الأهمية والفعالية للتمرن والممارسات الغاشمة واضحة للغاية . فلو كان عليك التحقق من الجمل بشكل منتظم ، فإن حدقات عيونك ستصغر تدريجيًا ويصبح تذكر طبيعياً أكثر . ومعجزة من كل المعجزات أنك ستلاحظ تلك الأحرف ذاتها أو الصور أو أي شيء أضعته مسبقاً

وحتى أنك ربما تسأل نفسك كيف حصل ولم أر هذا من قبل؟ ما كان في الماضي مرهقاً سيصبح أكثر طبيعية واعتيادية ويتطلب جهداً أقل . وما كان مجالاً لنظام هولز سيكون قد تسلسل إلى نظام هولز . وكل ما سيكون قد تطلبه الأمر هو قليل من الممارسة ، وجرعة صغيرة من تشكيل العادة . يمكن لدماعك أن يكون دراسة سريعة إذا أراد ذلك .

وتتمثل الخدعة في تكرار ذات العملية والسماح لدماعك بالدراسة والتعلم وجعل ما كان يتطلب الكثير من الجهد يتطلب القليل منه ، وفي شيء يفتقر إلى الطبيعة المنفصلة المتميزة لمهمة إدراكية مثل التحقق من الجمل ، وفي شيء أساسي للغاية ونقوم به باستمرار دون تخصيص الكثير من التفكير أو الانتباه له ؛ أي مهمة النظر والتفكير .

يجادل دانيال كانمان باستمرار أن النظام رقم ١- وهو نظام واتسون- هو نظام من الصعب تمرينه . فهو يحب ما يحب ويثق بما يثق به ، وذلك كل ما في الأمر ، فما الحل؟ جعل نظام رقم ٢- أي نظام هولز- يقوم بالعمل من خلال أخذ نظام ١ قسراً إلى خارج المعادلة . على سبيل المثال ، استخدم قائمة مرجعية لمواصفات الموظف المرشح لمهنة ما بدلاً من الاعتماد على انطباعك ؛ ذلك الانطباع الذي - كما ستذكر- يتشكل ضمن الخمس دقائق الأولى أو أقل من مقابلة شخص ما . اكتب قائمة مرجعية بالخطوات التي عليك اتباعها عندما تفحص مشكلة ما ؛ سواء أكانت شخصاً مريضاً أو سيارة معطوبة أو حاجز الكاتب أو أي مشكلة تواجهها في حياتك اليومية ؛ بدلاً من أن تحاول القيام بذلك مستخدماً ما يسمى الحدس . فالقوائم المرجعية والمعادلات

والإجراءات المنظمة هي أفضل ما تراهن عليه ؛ على الأقل بالنسبة
لكامان .

وحل هولمز؟ إنها العادة ، العادة ، العادة . وبالعادة والتحفيز
فإنك تصبح خبيراً في أصناف من الملاحظات أو القرارات التي
تريد التمييز في فعلها مثل معرفة مهنة شخص ما أو تتبع أفكار
الناس أو معرفة مشاعرهم أو التفكير بسلوكهم . حسناً ، ولكن تماماً
كما الأشياء التي تتعدى نطاق تخصص المحقق ، كتعلم معرفة
جودة الطعام من إلقاء نظرة عليه ، والحركة المناسبة في لعبة
شطرنج ، أو نية خصمك في لعبة بيسبول أو بوكر ، أو لقاء رجال
أعمال من لحة . إذا تعلمت بداية كيف تكون انتقائياً بدقة لتنجز ما
تريد إنجازه بدقة ، فإنك ستكون قادراً على تحديد الضرر الذي يمكن
لنظام واتسون التسبب به من خلال تعليمه بشكل استباقي ألا
يوحل فيه . إن الشيء المهم هو أن التدريب الصحيح الانتقائي -أي
حضور الذهن- يقترن بالرغبة بالتحفيز للسيطرة على عملية التفكير
الخاصة بك .

لا أحد يدعي أن هذا الأمر سهل ، فعندما يتعلق الأمر به لا
يوجد ما هو كالانتباه الحر ، والذي لا بد أن يأتي من مكان ما . وفي
كل مرة نضع عبئاً إضافياً على مواردنا الانتباهية - سواء من خلال
الاستماع إلى الموسيقى أثناء المشي ، أو فحص البريد الإلكتروني
أثناء العمل أو تتبع خمس وسائل إعلام في ذات الوقت - فإننا
نحصر الوعي الذي يحيط بأي جانب ومقدرتنا على التعامل معه
بطريقة تشاركية وواعية ومدركة

الأكثر من ذلك أننا نستمر في إجهاد أنفسنا . فالأمر لا يتعلق
في كون الانتباه محصوراً فحسب ، ولكنه مورد محدود . ويمكننا

استنزافه بشكل كبير قبل أن يتطلب إعادة تشغيل . يستخدم عالم النفس روي بوميستر تشبيه العضلة ليتحدث عن التحكم الذاتي - وهي مقارنة مناسبة حين يتعلق الأمر بالانتباه ، فكما العضلة ، تواجه مقدرتنا على التحكم الذاتي الكثير من الإجهاد ، وستتعب من كثرة الاستعمال . وستحتاج أن تغذي عضلة ما - فعلياً ، وذلك عن طريق تزويدها بالجلوكوز ومنحها الراحة . وبوميستر لا يتحدث هنا عن طاقة مجازية . أجل ، سيزداد حجم العضلة مع كثرة الاستخدام (وستحسن تحكمك الذاتي أو مقدرتك الانتباهية ، وستكون قادراً على ممارستها لفترات أطول وأطول عند مهام أكثر تعقيداً) ، لكن غوها أيضاً محصور . وما لم تقم بالمنشطات -أي التمرين المعادل للريتاين أو الأديرال للانتباه الذي يفوق طاقة البشر- فإنك ستصل إلى حدك ، وحتى المنشطات تأخذك فقط على هذا الحد . وفشل استخدامها سيتقلص راجعاً إلى حجمه قبل الممارسة

تحسين قدراتنا الانتباهية الطبيعية

تخيل هذا الأمر . يزور شارلوك هولمز ودكتور واتسون نيويورك (وليس ذلك الأمر ببعيد المنال ، حيث أمضى مبتكرهما بعض الوقت الذي لا ينسى في تلك المدينة) ويقررا الذهاب إلى أعلى ناطحة سحاب «إمباير ستيت» . وعندما يصلان منصة المراقبة يعترضهما شخص غريب يقترح القيام بمسابقة : أيهما سيكتشف طائرة في الجو أولاً ، مع العلم أنه بإمكانهما استخدام أي من أدوات المشاهدة - في الحقيقة ، لقد أعطى الغريب كل منهما مجموعة من الأرباع ، وقال بأن بإمكانهما النظر في جميع الاتجاهات . الأمر

الوحيد الذي كان يجب أخذه بعين الاعتبار هو أيهما سيرى الطائرة أولاً ، فكيف تعامل كل منهما مع المهمة؟
 ربما يبدو الأمر سهلاً ، فالطائرة طائر كبير جداً ، والمبنى منزل طويل جداً مع زاوية نظر ٣٦٠ درجة . لكنك إذا أردت ان تكون الأول ، فالأمر ليس ببساطة أن تقف ثابتاً وتنظر إلى الأعلى وفي الأرجاء . ماذا لو كانت الطائرة في مكان آخر؟ ماذا لو لم تستطع رؤيتها من حيث تقف؟ وماذا لو كانت خلفك؟ وماذا لو استطعت أن تكون الأول الذي يرصد واحدة إذا استخدمت الأدوات المتاحة بدلاً من أن تقف وتنظر بعينك المجردة؟ توجد الكثير من «ماذا لو» - فإذا كنت تريد أن تخرج منتصراً ، فذاك هو- ، ولكن هذه الـ«ماذا لو» يمكن أن تصبح قابلة للإدارة إذا ما نظرت إليها على أنها ليست سوى خيارات استراتيجية قليلة .

دعنا بداية نتخيل كيف كان واتسون سيرى المهمة . فواتسون كما نعرف هو شخص مفعم بالحيوية ، وهو سريع الحركة والتصرف ، وهو أيضاً منافس لهولز ، وحاول أكثر من مرة أن يظهر أن بإمكانه أيضاً أن يلعب لعبة المحقق ، ولا يوجد شيء يحبه أكثر من التفكير بأن بإمكانه الفوز على هولز في ملعبه . وانا أراهن أنه سيقوم بشيء كالتالي . إنه لن يضع لحظة واحدة في التفكير (الوقت موقوت ، فالأفضل أن تتحرك بسرعة) وسيحاول أن يشمل أكبر مساحة ممكنة بنظره (يمكن ان تأتي من أي مكان ، ولا أريد بطبيعة الحال أن أكون غيبياً ولا أدركها) ، حتى أنه ربما يواجه بعض الإنذارات الكاذبة (إنها طائرة وليست طائراً) بسبب رغبته برصد شيء ما . وعندما يفعل ذلك ، فإنه سيعتقد بصدق أنه يرى طائرة . وما بين ذلك والرصد الخاطي ، سيصيبه الإجهاد . وسيقول : «هذا الأمر مقلق .

أنا مرهق». على كل حال ، ما المغزى من وراء كل ذلك؟ إنها طائرة غبية ، فلنرجو لأجله أن تأتي طائرة حقيقية بسرعة .

ماذا عن هولمز؟ أفترض أنه سيوجه نفسه أولاً ويقوم ببعض الحسابات السريعة المتعلقة بمواقع المطارات ، وبالتالي الاتجاهات الأكثر احتمالاً للطائرات . حتى أنه ربما يفكر في عناصر أخرى مثل الاحتمالية النسبية لرؤية طائرة تقلع أو تهبط بناء على الوقت وأكثر مسارات الإقلاع احتمالية بالاعتماد على إجابة الاعتبار السابق . ثم ربما يختار مكان الرصد للتركيز على المنطقة ذات الاحتمالية الأعلى ، وربما يرمي عملة نقدية في الآلة من أجل الحصول على قياس جيد ، وربما يكرر هذا من أجل التأكد من أنه لم يفته شيء .

بالتالي يمكنه أن يعرف عندما يكون الطائر مجرد طائر عادي ، أو الظل المار أنه مجرد غيمة منخفضة متأرجحة . لن يتسرع ، بل سينظر وحتى يسمع ليرى فيما إذا كان الضجيج ربما يساعد في توجيه انتباهه إلى طائرة تلوح في الأفق . حتى أنه ربما يشتم ويشعر بالهواء لمعرفة تغيير الرياح أو هبوب نفحة من رائحة البنزين . وفي أثناء كل ذلك سيكون يفكر يديه الطويلتين المعروفتين بأصابعهما الطويلة معاً بينما يفكر : «قريباً ، ستأتي قريباً ، وإني أعرف أين ستظهر تحديداً» .

من سيفوز؟ لعنصر الحظ حضور في هذه الحالة ، وأي من الرجلين ربما يكون محظوظاً وبالتالي يفوز بالمسابقة . ولكن بلعب اللعبة عدد كافٍ من المرات ، سأراهن على فوز هولمز . ففي الوقت الذي تعتبر فيه استراتيجيته بطيئة وغير حاسمة وغير شمولية كما استراتيجية واتسون إذا ما نظر إليها نظرة خاطفة ، إلا أنها في النهاية ستثبت أفضليتها .

إن أدمغتنا ليست غبية . لكن كما أننا نبقى فاعلين بشكل مميز وفعالين لنسبة لا بأس بها من الوقت على الرغم من تحيزاتنا الإدراكية ، فإن مقدراتنا الانتباهية الواتسونية وجدت لسبب . إننا لا نلاحظ كل شيء لأن ملاحظة كل شيء - كل صوت ورائحة ومنظر ولمسة - كفيلة بجعلنا نصاب بالجنون (وفي الحقيقة أن نقص القدرة على الفلترة هي السمة المميزة للعديد من الاضطرابات النفسية) . ولواتسون نقطة تجدر الإشارة إليها ، وهي أنه ربما لا يكون في البحث عن تلك الطائرة الاستغلال الأمثل لوقته .

إنك ترى أن المشكلة لا تتمثل في نقص الانتباه بقدر ما هي في نقص يقظة الذهن وتوجيهه . في السياق المعتاد للأشياء تختار أدمغتنا أين تركز بدون وجود الكثير من التفكير الواعي المطلوب من جانبنا . إن ما نحتاج معرفته بدلاً من ذلك هو كيف نخبر أدمغتنا بما تقوم بتصفيته وكيف بدلاً من إبقائها كسولة وتقرر عنا بناء على ما تظن أن من شأنه أن يصنع الطريق ذات المقاومة الأقل .

بوقوفه على قمة مبنى «الإمبير ستيت» والبحث بهدوء عن الطائرات ، وضع هولمز العناصر الأربعة الأكثر احتمالية لمساعدتنا على القيام بذلك ، وهي الانتقائية ، والموضوعية ، والشمولية ، والانخراط .

١. كن انتقائياً

تخيل المشهد التالي . يمر رجل من عند مخبز بينما كان في طريقه إلى المكتب ، وتطارده رائحة فطائر القرفة الشهية حتى نهاية الشارع . حينها يتوقف ، ويتردد ، وينظر من النافذة ليرى المعجنات المدهونة بشكل جميل ، واللفات الزبدية الدافئة ، والكعكات

الوردية التي تزينها رشات من السكر ، فيدخل إلى المخبز ويطلب لفة من حلوى القرفة ويقول : «سأواصل حميتي الغذائية غداً ، فأنت تعيش مرة واحدة فقط ، واليوم استثناء ، كما أن الطقس شديد البرودة وعندى اجتماع مهم خلال ساعة واحدة فقط» .

الآن ارجع إلى المشهد وأعد تخيله كالتالي . يمر رجل من عند مخبز بينما كان في طريقه إلى المكتب ، ويشتم رائحة فطائر القرفة الشهية ؛ فيقول : «لا أهتم كثيراً بفطائر القرفة لأفكر بها . إنني أفضل جوزة الطيب ، ولا يوجد هنا أي منها لأشمه» . ثم يتوقف ويتردد وينظر من النافذة ليرى الحلويات الزيتية السكرية والتي من المحتمل أنها تسببت بحالات من النوبات القلبية وانسداد الشرايين أكثر مما يمكنك عده . ويرى كذلك اللقائف التي يرشح منها القطر والغارقة بالزبدة أو ربما السمن الصناعي ، والكعكات المحروقة التي تمكث كالكتل في معدتك وتجعلك تتساءل لماذا سبق لك وأن أكلتها . ثم يقول : «إنني أعتقد أن لا شيء هنا يناسبني» ثم يتابع مشيه مسرعاً ومتوجهاً لاجتماعه الصباحي قائلاً : «ربما يكون لدي بعض الوقت لتناول القهوة قبل ذلك» .

ما الذي تغير بين السيناريو الأول والسيناريو الثاني؟ لا شيء ظاهر . لقد ظلت المعلومات الحسية متطابقة ، ولكن عقليتنا الافتراضية قد تغيرت نوعاً ما ، وذلك التغير أثر حرفياً على كيفية مواجهته للواقع . لقد غير كيفية معالجته للمعلومات ، وما ينتبه له وكيف يتفاعل محيطه مع دماغه .

إن هذا ممكن تماماً . إن رؤيتنا انتقائية للغاية كما هي ، حيث أن شبكية العين تلتقط بشكل طبيعي حوالي عشرة بلايين بت من المعلومات البصرية في الثانية ، ولكن فقط عشرة آلاف بت هي التي

تذهب إلى الطبقة الأولى من القشرة المخية البصرية ، ولتتويجها فإن عشرة بالمئة فقط من مناطق التشابك العصبي مخصصة للمعلومات البصرية القادمة . أو فلنقلها بشكل مختلف ، إن أدمغتنا تحت قصف شيء كأحد عشر مليون قطعة من البيانات-التي هي عبارة عن بنود في محيطنا تأتي في كل حواسنا-في ذات الوقت . يمكننا معالجة حوالي ٤٠٪ فقط من كل ذلك معالجة واعية ، مما يعني أساساً أننا «نرى» القليل جداً مما هو حولنا ، وأن ما نعتقه رؤية موضوعية يمكن تسميته بفلتر انتقائية . وحالتنا الذهنية ومزاجنا وأفكارنا عند أية لحظة ودافعيتنا وأهدافنا يمكن أن تجعل الأمر أكثر صعوبة لإرضائه مما هو فعلياً عليه .

إنه جوهر تأثير حفلة الكوكيتل عندما نلاحظ اسمنا يخرج مخترقاً ضجيج الغرفة . أو أنه جوهر نزعتنا لملاحظة الأشياء التي نفكر بها أو تعلمناها عند أية نقطة . فالنساء الحوامل يلاحظن النساء الحوامل الأخرى في كل مكان ، والناس يشيرون إلى الأحلام التي تصبح حقيقة فيما بعد (وينسون كل البقية) ، كرؤية العدد ١١ في كل مكان بعد ١١/٩ ، لا شيء في البيئة يتغير فعلياً - ليس هناك فجأة مزيد من النساء الحوامل أو الأحلام الغيبية أو حالات من عدد معين - فقط حالتك هي التي تتغير . وذلك هو السبب الذي يجعلنا عرضة للشعور بالمصادفة ؛ حيث ننسى كل تلك المرات التي كنا مخطئين فيها أو تلك التي لم يحصل فيها شيء ونتذكر فقط اللحظات المطابقة لأننا انتبهنا لها بالمقام الأول . وكما لاحظ المعلم الروحي وول ستريت بسخرية إن المفتاح لتكون ذا رؤية هو أن تجعل تنبؤاتك في أزواج متعارضة . والناس سيتذكرون تلك التي تتحقق بينما ينسون تلك التي لم تفعل على وجه السرعة .

إن أدمغتنا مضبوطة على ما هي عليه لسبب رئيسي ؛ إذ أنه من المرهق بمكان أن يكون نظام هولمز هو السائد في كل الأوقات ، وإن حدث فإنه يكون غير منتج . ويوجد سبب يجعلنا عرضة لفلتره الكثير من بيئتنا المحيطة والذي يعد بالنسبة لأدمغتنا ضجيجًا . فإذا ما حاولنا إدخال كل ذلك ، فإننا لن ندوم طويلًا . هل تذكر ما قاله هولمز عن عليّة دماغك؟ إنها شيء ثمين بحق ، فتعامل معها بحذر واستخدمها بحكمة . بكلمات أخرى ، كن انتقائيًا بشأن انتباهك . للوهلة الأولى ربما يبدو هذا الأمر حدسًا . فبعد كل شيء ، ألسنا نحاول الانتباه إلى المزيد وليس الأقل؟ نعم ، لكن الفرق المهم هو بين الجودة والكمية . إننا نريد تعلم الانتباه بشكل أفضل وأن نصبح مراقبين متفوقين ، لكننا لا نستطيع تمني تحقيق هذا إذا انتبهنا لكل شيء دون تفكير ، وتلك هي الهزيمة الذاتية . إن ما نحتاج فعله هو تخصيص انتباهنا بشكل متعقل ، والتفكير هو بداية الانتقائية .

إن هولمز يعرف هذا أفضل من أي شخص آخر . فبإمكانه بحق أن يلاحظ فورًا تفاصيل زي وسلوك واتسون ، تأنيث غرفة وصولاً إلى أكثر التفاصيل دقة . لكنه من المحتمل ألا يلاحظ حالة الطقس في الخارج ، أو حقيقة أن واتسون كان لديه الوقت ليترك الشقة ويعود إليها . وإنه ليس من الغريب بالنسبة لواتسون أن يشير إلى أن عاصفة مستعرة بالخارج فقط ليجعل هولمز يقول بأنه لم يلاحظ ذلك ، وغالبًا أنك ستجد شارلوك هولمز يتحدث إلى جدار فارغ بعد تقاعد واتسون أو مغادرته الشقة بالكامل .

أيًا كانت الحالة ، إن إجابة السؤال المبدوء بما ، تحديداً ، ما الذي تريد إنجازه سيضعك على الطريق الصحيح لمعرفة كيفية زيادة موارد

الانتباهية المحدودة إلى الحد الأعلى . وسيساعد في توجيه دماغك ؛
إذا جاز التعبير مع الأهداف والأفكار المهمة فعلياً ، وفي المساعدة
على وضع تلك غير المهمة في الخلفية . هل يلاحظ دماغك الرائحة
الجميلة أو الشحوم على المنديل؟ هل يركز على سمرة واتسون أو
الطقس خارجاً؟

إن هولمز لا يضع النظريات قبل أن تتوفر لديه البيانات ، وهذا
صحيح . لكنه يكون خطة ثمينة للهجوم ، حيث يحدد أهدافه
والعناصر الضرورية لتحقيقها . لذا في « كلب عائلة باسكرفيل »
عندما يدخل الطبيب مورتمار إلى غرفة الجلوس ، يعرف هولمز مسبقاً
ما الذي يريد معرفته من الحالة . وكانت كلماته الأخيرة لواتسون
قبل دخول السيد هي : « ما الذي يريد الطبيب جيمس مورتمار وهو
رجل علوم من شارلوك هولمز المتخصص في علم الجريمة؟ » لم يكن
هولمز قد قابل بعد هذا الرجل الذي ورد اسمه في السؤال ، لكنه
يعرف تماماً ماذا سيكون هدفه المتعلق بالملاحظة . لقد حدد الحالة
حتى قبل أن تبدأ ونجح في تفحص عصا المشي الخاصة بالطبيب .

عندما يظهر الطبيب ، يبدأ هولمز مباشرة لتأكيد الهدف من
زيارته ، ويسأل عن كافة التفاصيل المتعلقة بالقضية المحتملة
والأشخاص المنخرطين فيها والظروف المحيطة بها . لقد عرف تاريخ
أسطورة باسكرفيل ومنزل باسكرفيل وعائلة باسكرفيل . ثم يستفسر
من الجيران ومن ساكني عقار باسكرفيل ، وكذلك من الطبيب نفسه
لصلته بالعائلة . حتى أنه يرسل طالباً خريطة للمنطقة ليتمكن من
جمع العناصر المتعلقة بالقضية كاملة ، حتى تلك التي ربما تم حذفها
في المقابلة . وقد أولى انتبهاً كاملاً لكل عنصر يتعلق بهدفه
الأصلي ، أي حل ما طلبه الطبيب جيمس مورتمار من شارلوك هولمز .

أما بالنسبة لبقية الشؤون في الفترة ما بين زيارة الطبيب والمساء ، فلم يعد لها وجود . وكما يخبر هولمز واتسون في نهاية اليوم : «لقد ظل جسمي مرمياً على هذه الأريكة ، ولم ألاحظ شيئاً . لقد استهلكت ابريقي قهوة كبيرتي الحجم وكمية لا تصدق من التبغ . وبعد أن غادرت ، أرسلت إلى ستامفورد طالباً خريطة لحصته من المكان ، وحلقت روحي حول ذلك طوال اليوم . لقد طمأنت نفسي بأن بإمكانني شق طريقي» .

لقد زار هولمز ديفونشير بروحه ؛ أي أنه لم يذهب إلى هناك فعلياً ، لكن تفكيره كان هناك . إنه لا يعرف ما الذي حصل لجسده ، حتى أنه لم يكن مرحاً بشكل كامل . إن الاحتمالات الواردة أنه لم يكن مدركاً لما يشربه أو يدخنه ، أو حتى لحقيقة أن الهواء في الغرفة أصبح غير قابل للتنفس لدرجة أن واتسون أجبر على فتح كافة النوافذ حين عاد . وحتى الرحلة القصيرة التي قام بها واتسون إلى العالم الخارجي هي جزء من خطة الانتباه لهولمز ، فقد طلب بصراحة من رفيقه في الشقة أن يغادرها لثلا يشتمه بمدخلات غير ضرورية .

لذلك ، ماذا بالنسبة لملاحظة كل شيء؟ إنه بعيد عن ذلك على الرغم من المفهوم الشعبي لقدرات المحقق . فالمهم هو ملاحظة كل شيء مهم للموضوع الذي في متناول الأيدي ، وهنا يكمن الفرق الرئيسي (كما يقول هولمز في «ذو الغرة الفضية» عندما يجد دليلاً على تجاهل المفتش ، «لقد وجدته فقط لأنني كنت أبحث عنه» . فلو لم يكن لديه سبب مسبق للبحث ، لم يكن ليستطيع ملاحظة ذلك ، ولم يكن ذلك ليكون من المهم بمكان على الأقل بالنسبة لغيره) . إن هولمز لا يضع وقته على أي شيء كان ، بل

يخصص انتباهه بشكل استراتيجي .

لذلك أيضاً علينا أن نحدد هدفنا لنعرف ما الذي نبحث عنه وأين . إننا نقوم بهذا بشكل طبيعي في الحالات التي نعرف فيها آدمغتنا ما هو مهم دون أن يتوجب علينا إخبارها بذلك . تذكر تلك الحفلة في الفصل الثاني . هل تذكر تلك الفتاة التي كانت تضع شريطاً أزرقاً في شعرها ، وذلك الشخص الذي لا يزعجك تذكر اسمه؟ حسناً ، تخيل نفسك بين تلك المجموعة من الناس والتي تتحدث إلى بعضها البعض . انظر حولك وستلاحظ الكثير من المجموعات كمجموعتك تنتشر في أرجاء الغرفة . وكما مجموعتك ، فالمجموعات الأخرى تتحدث وتتحدث وتتحدث . إذا أردت التوقف للتفكير بذلك فستجده مرهقاً لأن كل هذه الأحاديث ليس لها نهاية ، وهذا هو السبب الذي يجعلك تتجاهلها . فالصوت يصبح ضجيجاً مزعجاً ، ودماعك يعرف كيف يتعامل مع البيئة ويغض النظر عن معظم ما يراه بناء على أهدافك العامة واحتياجاتك (تحديداً تصبح المناطق الظهرية والباطنية في الجدارية الداخلية والقشرة الأمامية منخرطة في كل من الجدارية موجهة الهدف وضبط الانتباه الذي توجهه المحفزات) . في الحفلة ، إنه التركيز على المحادثة التي تقوم بها ومعاملة بقية الكلمات - والتي بعضها ربما يكون في ذات الصوت - على أنها ثرثرة بلا معنى .

وفجأة يصبح التركيز منصباً على محادثة واحدة لتخرج عن نطاق الثرثرة بلا معنى . حين تسمع كل كلمة وتلتفت برأسك وتنتبه جيداً . ما الذي حصل؟ لقد ذكر أحدهم اسمك ، أو شيئاً يشبه اسمك . وكان ذلك كافيًا للإشارة إلى دماغك ليتنبه ويركز ، لقد كان هنا شيئاً له صلة بك لتنتبه ، وهذا ما يعرف بتأثير حفلة

الكوكتيل الكلاسيكية ، أي إشارة واحدة لاسمك تجعل الأنظمة العصبية تتوجه نحو الإجراء ، ولكن يكون عليك القيام بأي شيء .

إن غالبية الأشياء لا تملك مثل هذه الرايات المدمجة بشكل لطيف من أجل تنبيهك لفعاليتها . عليك تعليم دماغك أن يتنبه كما لو كان يسمع اسمك ، ولكن المحفز الواضح غائب . وكما يقول هولمز فإنك تحتاج لمعرفة ما الذي تبحث عنه حتى تتمكن من رؤيته . ففي حالة الرجل الذي مر بالمخبز ، كان الهدف بسيطاً وواضحاً بما فيه الكفاية ؛ ألا وهو عدم تناول السلع المخبوزة . وكانت العناصر المميزة التي تم التركيز عليها هي الحلويات أنفسها (إيجاد السلبي في مظهرها) ، والروائح (لماذا لا يتم التركيز على رائحة العوادم من الشارع بدلاً من رائحة المخبوزات الشهية ، أو حتى رائحة البن المحروق؟) وكذلك البيئة المحيطة كاملة (التفكير بالاجتماع أو بالزفاف وملابس الشهرة بدلاً من حصره على المحفز الحالي) . إنني لا أقول إنه من السهل بمكان القيام بذلك ، ولكن على الأقل فإن عملية المعالجة من القمة إلى القاعدة والتي يجب حدوثها تكون واضحة .

ولكن ماذا بالنسبة لاتخاذ قرار أو حل مشكلة في العمل أو حتى شيء غير متبلور بعد؟ إن ذلك يتم بذات الطريقة . فعندما حاول عالم النفس بيتر جولوتزر تحديد آليات لتمكين الناس من وضع الأهداف والانخراط في سلوكيات موجهة الأهداف بأكثر قدر ممكن من الفعالية ، وجد أن العديد من العوامل قد ساعدت في تحسين التركيز والأداء ، أولها التفكير بالمستقبل أو النظر إلى الحالة بمنظار مستقبلي ، والقدرة على تحديدها على أنها نقطة واحدة من

أجل تجاوز الماضي للوصول إلى نقطة أفضل في المستقبل . وثانيها هو الوضوح ووضع أهداف واضحة ، أو تحديد نقطة النهاية بأكبر وضوح ممكن ، وتجميع مواردك الانتباهية بما تستطيع من تحديد أما ثالثها فهو معرفة فيما إذا كانت حالات طارئة ستبرز أو التفكير في حالة ما وفهم ما الذي يتوجب فعله في حال بروز ميزات محددة (على سبيل المثال ، إذا كان دماغى هائماً ، فإنني أغلق عيوني وأعد حتى العشرة ثم أعيد التركيز) . ورابعاً تدوين كل شيء بدلاً من الاكتفاء بالتفكير به في رأسك وذلك من أجل زيادة قدراتك للحد الأعلى والمعرفة المسبقة بأنه لا يتوجب عليك محاولة إعادة إنشاء أي شيء من العدم . أما خامساً فهو التفكير بكل من التداعيات- ما الذي سيحصل لو أخفقت-وكذلك بالمنظور الإيجابي ، على سبيل المثال ما ستحصل عليه لو نجحت .

إن الخطوة الأولى الرئيسية لتعلم كيفية الانتباه والاستغلال الأمثل لمواردك المحدودة هو الانتقائية الواعية والعقلانية والمدرسة والذكية . ابدأ بالأمر الصغيرة والقابلة للإدارة وكن مركزاً . مع العلم أن نظام واتسون ربما يحتاج سنوات عديدة ليصبح مشابهاً لنظام هولز ، وحتى بعد ذلك فإنه ربما لا يشبهه تماماً . ولكن من خلال التركيز الواعي فإن النظامين يصبحان متقاربين . ساعد نظام واتسون من خلال تزويده ببعض أدوات نظام هولز ، فهو لا يحصل على شيء من تلقاء نفسه

ومع ذلك يوجد تحذير واحد ، يمكنك وضع الأهداف لمساعدتك على ترشيح العالم ، لكن كن حذراً لئلا تستخدم هذه الأهداف كغمامات . إن أهدافك وأولوياتك وإجابتك لسؤال «ما الذي أريد إنجازه؟» يجب أن تكون مرنة بما فيه الكفاية للتغير مع

الظروف المتغيرة . وإذا تغيرت المعلومات المتوفرة ، فإنك ستتغير أيضاً . لا تخشى الانحراف عن خطة تم إعدادها مسبقاً عندما تصب في خدمة هدفك الأعظم ، وذلك أيضاً جزء من عملية الملاحظة .

دع هولمز الذي بداخلك يخبر واتسون أين ينظر ، ولا تكن كالفتش أليك ماكدونالد أو ماك كما يسميه هولمز . استمع إلى ما يقترحه هولمز ، سواء أكان تغييراً لمساق أو مشية في الخارج عندما لا تفضل ذلك .

٢- كن موضوعياً

في «مغامرة مدرسة الدير» ، يذهب تلميذ في عداد المفقودين ، ويختفي كذلك مدير المدرسة الألماني . كيف يمكن لهكذا مصيبة أن تحدث في مكان بهذه القيمة ، ويسمى بأفضل مدرسة تحضيرية في بريطانيا على الإطلاق؟ إن الدكتور ثورنكروفت هاكتسبل وهو مؤسس المدرسة ومديرها حائر لأقصى حد ممكن . ففي الوقت الذي ينتقل فيه من شمال إنجلترا إلى لندن من أجل التشاور مع السيد هولمز ، نجده مجهداً جداً حتى أنه يتجه نحو الانهيار مرة واحدة .

فقد شخصان وليس شخص واحد فقط ، وكان الطالب المفقود ابن دوق هولدريس ، ووزير سابق وواحد من أكثر الرجال ثراء في بريطانيا . يخبر هاكتسبل هولمز قائلاً : « لا بد أن هايدجر ، السيد الألماني ، كان نوعاً ما شريكاً في حادثة الاختفاء ، فدراجته مفقودة من سقيفة الدراجات ، وغرفته تحمل علامات الخروج المتسرع .» هل هو خاطف أم شريك للخاطف؟ إن هاكتسبل ليس متأكداً ، لكن الرجل بالكاد يكون بمنأى عن اللوم . ومن المبالغ به أن يعزى

الاختفاء المزدوج لشيء ببساطة الصدفة .

بدأ تحقيق الشرطة فوراً . وعندما يُرى رجل شاب برفقة ولد معاً على متن قطار في محطة مجاورة في وقت مبكر ، يبدو حينها أن رجال الشرطة قاموا بواجبهم على أتم وجه . إن التحقيق يتم حسب الأصول ، لكن يتضح خلال وقت قصير بأن الشخصين في السؤال ليس لهما علاقة بالاختفاء على الإطلاق . لذلك ، بعد مرور ثلاثة أيام على الأحداث الغامضة ، جاء المدير للتشاور مع السيد هولمز ، وهو ما يراه هولمز ليس بالوقت القريب جداً ، بل إنه ربما يكون متأخراً بعض الشيء . فقد تم إضاعة الكثير من الوقت الثمين ، فهل سيتم العثور على المختفين قبل أن تحدث المصيبة الكبرى؟

ما سر تكون وضع كهذا؟ إن إجابة ذلك السؤال ليست بسهولة طرح سلسلة من الحقائق - ولد مفقود ، مرشد مفقود ، دراجة مفقودة ، وخيوط التفاصيل المشابهة ، أي حالة غرفة كل من الولد والأستاذ والملابس والنوافذ والنباتات ، الخ- . ويترتب على هذا أيضاً فهم شيء محدد للغاية ، وهو أن الحالة ديناميكية بطبيعتها وبأوسع معانيها ، سواء أكانت ذهنية أم مادية أم شيء لا يشبه الحالة ، كالغرفة الفارغة . وأنت ، ومن خلال دخولك إليها ، تنقلها عما كانت عليه قبل وصولك إلى شيء مختلف تماماً .

إنه مبدأ عدم اليقين لهايزنبرغ ؛ أي أن حقيقة الملاحظة تغير الشيء الذي تتم ملاحظته . فحتى الغرفة الفارغة لا تظل كذلك بمجرد دخولك لها ، ولا يمكنك الماضي وكأن شيئاً لم يتغير . ربما يبدو هذا كالفكرة السليمة ، ولكنه في الحقيقة من الصعب بمكان عند تطبيقه إذا ما قورن بالجانب النظري .

خذ على سبيل المثال ظاهرة شائعة تمت دراستها تعرف بتأثير

المعطف الأبيض . فرجما تعاني من ألم أو سعال يجعلانك ترغب بالمغادرة ، أو أنك ربما متأخر عن موعدك مع الطبيب . حينها تتنهد ، وترفع سماعة الهاتف ، وتتفق على موعد مع طبيبك . في اليوم التالي تذهب لعيادته ، وتجلس في غرفة الانتظار ، ويُنادى على اسمك ، ثم تدخل لموعدك .

يمكننا الافتراض بأن الـ«أنت» الذي يدخل الغرفة لإجراء الفحص هو نفسه أنت الذي قام بالاتصال بالطبيب ، أليس كذلك؟ لا . لقد أظهرت الكثير من الدراسات أنه بالنسبة للعديد من الناس إن مجرد دخول عيادة طبيب ومشاهدته -المعطف الأبيض تحديداً- كاف لتغيير علاماتهم الحيوية بشكل ملحوظ . حيث يمكن لنبضات القلب وضغط الدم وحتى ردود الأفعال وعمل الدم أن تتغير ؛ ببساطة لأنك ترى طبيباً . حتى أنك ربما لا تشعر بالقلق أو التوتر على وجه التحديد . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن قراءاتك ونتائجك ستتغير ، وقد تحول الوضع من خلال الحضور والمراقبة المجردة .

تذكر وجهة نظر الدكتور هاكتسبل بخصوص الظروف المحيطة بالاختفاء ؛ حيث أنه يوجد هارب (الولد) ومتورط (المعلم) ودراجة مسروقة لأغراض الهروب أو الخداع . لا شيء أكثر ولا أقل ، وما نقله المدير لهولمز هو حقيقة ، أو هكذا يعتقد .

لكن هل هذا حقيقي؟ إن ما نراه أبعد من ذلك . هو نظرية عالم النفس دانيال جيلبرت حول تصديق ما نراه . حيث أننا نصدق ما نريد أن نراه وما تقرر عليه دماغنا أن نراه ، ونرمز ذلك الاعتقاد بدلاً من الحقائق في أدمغتنا ، وبعد ذلك نعتقد أننا شاهدنا حقيقة موضوعية في الوقت الذي يكون فيه -فعلياً- ما

نتذكر رؤيته هو تصورنا المحدود في ذلك الوقت . إننا ننسى الفصل بين الحالة الواقعية وشروحنا الشخصية لها . (فعلى المرء أن ينظر إلى عدم دقة شهادات الشهود لمعرفة مدى سوئنا في التقييم والتذكر) . لأن مدير المدرسة شك على الفور بوجود حادثة خطف ، فقد لاحظ أدق التفاصيل التي تدعم فكرته الأولية وأخبر عنها ، ولم يأخذ الوقت من أجل الحصول على القصة الكاملة على الأقل ومع ذلك ، لم يكن لديه أدنى فكرة بأنه يقوم بذلك . وما دام مهتمًا بالموضوع ، فإنه يبقى موضوعيًا تمامًا . وكما صاغها الفيلسوف فرانسيس باكون : «إن الفهم البشري حين يتبنى رأيًا معينًا (سواء أكان رأيًا سائدًا أو مقبول لنفسه) يجلب كل الأشياء الأخرى لدعم هذا الرأي والاتفاق معه» . لا يمكن الوصول إلى الموضوعية الحقيقية - حتى الموضوعية العلمية لهولز ليست مكتملة على الإطلاق - لكننا نحتاج فقط لفهم كم نحن ضالون وذلك من أجل الاقتراب من نظرة شمولية لأي حالة .

إن وضع أهدافك مسبقًا سيساعدك على توجيه موارد الانتباه لديك بشكل سليم . ويجب ألا يكون هذا عذرًا لإعادة تفسير حقائق موضوعية من أجل أن تتناغم مع ما تريد أو تتوقع رؤيته . إن الملاحظة والاستنتاج خطوتان منفصلتان ومميزتان ، وفي الحقيقة إنهما لا يحدثان مباشرة تلو بعضهما البعض . عد للتفكير للحظة بإقامة واتسون في أفغانستان . يلتزم هولز بالحقائق الموضوعية الملموسة في ملاحظاته . ولم يكن هناك استقرار في البداية ، حيث أنه حدث في مرحلة لاحقة . وكان دائمًا يتساءل أنه كيف يمكن لتلك الحقائق التوافق مع بعضها البعض . إن فهم حالة ما على أكمل وجه يتطلب العديد من الخطوات ، لكن الخطوة الأولى الأكثر

أهمية هي إدراك ان الملاحظة والاستنتاج ليسا نفس الشيء ،
وبإدراك ذلك تبقى موضوعيًا بقدر ما تستطيع .

كانت أمي شابة للغاية بمعايير اليوم ومتوسطة بالنسبة لتلك في
السبعينيات حيث وضعت أختي . كانت أختي صغيرة جدًا عندما
أنجبت ابنتها . حتى أنني لا أستطيع البدء في إدراج عدد المرات
التي اعتقد فيها الناس - من غرباء إلى أمهات زملاء الدراسة
وحتى النوادل في المطاعم-أنهم شاهدوا شيئًا وتصرفوا بناء على
تلك الفكرة ، بينما هم في الحقيقة كانوا يرون شيئًا مختلفًا تمامًا ،
حيث ظنوا أن أمي شقيقة شقيقتي . أما هذه الأيام فيخطئ الناس
بينها وبين زوجة أخي . لم تكن الأخطاء جسيمة من جانب
المراقب ، ولكنها أخطاء مع ذلك . وهي أخطاء أثرت في الكثير من
الحالات على كل من سلوكهم وأحكامهم ورود فعلهم اللاحقة
إنها ليست مجرد مسألة الخلط بين الأجيال ، بل إنها مسألة تطبيق
القيم الأمريكية المعاصرة على سلوك النساء في روسيا السوفيتية ،
وهي عالم مختلف تمامًا . بالنسبة للأمريكيين ، كانت أمي مراهقة
أما بالنسبة للروسيين ، فقد كانت متزوجة وليست الوحيدة التي
لديها طفل بين صديقاتها . لقد كانت مجرد طريقة تتم بها الأمور .

من شبه المستحيل عند وصف شخص أو شيء أو مشهد أو
حالة أو تفاعل أن نراها كيانًا موضوعيًا عديم القيمة ، وبالكاد ان
نأخذ الاختلاف بعين الاعتبار لأنه بطبيعة الحال قلما يهم . لكنه
العقل النادر ذاك الذي درب نفسه على الفصل بين الحقيقة
الموضوعية والشرح الذاتي التلقائي غير الواعي والذي يتبعها

إن ما يقوم به هولمز لدى دخوله موقعًا معينًا هو الحصول على
معلومات منطقية حول ما يحدث هناك . من لمس ماذا ، وماذا أتى

من أين ، وماذا هناك ولا يجب أن يكون ، وماذا ليس هناك ويجب أن يكون . وبالتالي يظل متمكناً من أقصى درجات الموضوعية حتى في وجه الظروف المتطرفة . إنه يتذكر هدفه ، ولكنه يستخدمه للتصفية وليس للإخبار . أما واتسون فهو ليس حذر جداً

فكر مرة أخرى بالولد المفقود وناظر المدرسة الألماني . فعلى الخلاف من الدكتور هاكتسبل ، فإن هولمز يفهم أن أي موقف يلون بشرحه . وبالتالي ، وعلى الخلاف من مدير المدرسة ، فإنه يستقبل بترحاب حقيقة أن الأشياء المسماة بالحقائق ليست كما تبدو عليه . إن المدير محصور جداً في بحثه بتفصيل حاسم واحد ؛ ذلك أنه - برفقة الجميع - يبحث عن هارب ومتورط . ولكن ماذا لو لم يكن هير هايدغر شيء من هذا القبيل؟ ماذا لو أنه ليس هارباً ولكنه يقوم بشيء مختلف تماماً؟ إن والد الولد المفقود يفترض أنه ربما يساعد الفتى الفار في الوصول إلى أمه في فرنسا . أما مدير المدرسة فيفترض أنه ربما يقوده إلى مكان آخر . وتفترض الشرطة بأنهم هربوا على متن قطار . لكن لم يدرك أحد سوى هولمز أن القصة كالتالي فقط ؛ إنهم لا يبحثون عن ناظر مدرسة مختفي بغض النظر عن وجهته ، لكنهم يبحثون عن الناظر والولد ، وليس بالضرورة في ذات المكان . فكل واحد يفسر أن الرجل المفقود متورط نوعاً ما في حادثة الاختفاء ، سواء أكان متواطئاً أم محرصاً . ولا أحد يتوقف للتفكير بان الدليل الوحيد المتوفر يشير إلى لا شيء عدا أنه مفقود .

لا أحد سوى شارلوك هولمز يدرك بأنه يبحث عن ولد مفقود وناظر مدرسة مفقود ، وذلك كل ما في الأمر . إنه يسمح لأية حقائق إضافية بالظهور متى ما أمكن . وفي هذا المنهج المنصف ، فهو يجازف بحقيقة مرت عن رجال الشرطة ومدير المدرسة والمتمثلة

في أن الناظر لم يهرب مع الولد على الإطلاق ، بل إنه ملقى ميتاً في مكان قريب «رجل طويل بلحية ، يرتدي نظارات إحدى عدساتها ليست في مكانها ، وسبب وفاته ضربة شديدة على الرأس حطمت جزءاً من جمجمته» .

لم يكتشف هولمز أية مفاتيح إضافية لإيجاد الجثة . فهو فقط يعرف كيف ينظر إلى ما هو متوفر بين يديه بطريقة موضوعية دون تحامل أو نظريات متشككة مسبقاً . وهو يعدد الخطوات التي قاده إلى اكتشافه ، قائلاً لواتسون :

«دعنا نواصل إعادة تشكيل ما حدث . إنه يلقي حتفه على بعد خمسة أميال من المدرسة ، وليس برصاصة ربما يكون فتى قد رماه بها ، ولكن بضربة وحشية قامت بها ذراع قوية . بالتالي فإن الفتى كان معه رفيق في هربه ، والهرب كان سريعاً ، حيث امتد لخمس أميال قبل يتجاوزهما راكب دراجة محترف . لكن مسحنا الأرض المحيطة بمسرح الجريمة ، فماذا وجدنا؟ بضعة أثار للماشية ، ولا شيء سوى ذلك . قمت بجولة تمشيط واسعة في المكان ، ولم يكن هناك مسار لمسافة امتدت خمسين يارداً . لم يكن بإمكان راكب دراجة آخر أن يقوم بأي شيء بخصوص الجريمة الفعلية ، ولم يكن هناك أي علامات لأقدام بشرية» .

صرخ واتسون : «هولمز ، هذا مستحيل!»

فقال هولمز : «بممتاز! إنها ملاحظة أكثر إنارة . إنه من المستحيل بمكان أن يحدث كما قلت ، ولهذا لا بد أنني قتلتها بشكل خاطئ نوعاً ما . لكنك رأيت بنفسك ، هل يمكنك اقتراح أية مغالطة؟»
لا يستطيع واتسون فعل ذلك ، وبدلاً من ذلك فهو يستسلم تماماً قائلاً : «أنا عند نهاية فطنتي» .

حينها يوبخه هولمز قائلاً: «أف! لقد نجحنا في حل مشاكل أكثر سوءاً من هذه . وعلى الأقل لدينا الآن مواد كثيرة إذا نجحنا في استخدامها» .

بهذا الحديث الموجز أظهر هولمز بأن كل نظريات مدير المدرسة كانت مضللة . لقد كان هناك على الأقل ثلاثة أشخاص وليس اثنان ، وكان الناظر الألماني يحاول إنقاذ الولد وليس إيذائه أو الهرب معه (وهذا هو الاحتمال الأكثر وروداً مع الأخذ بعين الاعتبار لحالته الحالية-ميت-وحقيقة أنه تبع المسارات الأولية للإطار ليلحق بالولد الهارب . من الواضح بمكان أنه ليس بخاطف ولا متورط في القضية) . لقد كانت الدراجة وسيلة للتتبع ، وليست شيئاً تم سرقة لدافع شرير . والأكثر من ذلك أنه لا بد من وجود دراجة أخرى للمساعدة في فرار الولد والمجهول أو المجهولين الآخرين . لم يقم هولمز بأي شيء مشير ، فقد سمح للدليل بأن يتحدث ، و فقط . ثم اتبعه دون السماح لنفسه بأن يضيف الحقائق للتناسب مع الحالة باختصار ، لقد تصرف بفتور وانعكاس نظام هولمز . بينما استنتاجات هاكتسبل تظهر كل علامة لمدرسة نظام واتسون الفاتر والانعكاسي والذي ينص على أن تقفز قبل أن تنظر

لتلاحظ ، عليك أن تتعلم الفصل بين الحالة والشرح ، ونفسك عما تراه . يريد نظام واتسون الهرب إلى عالم الموضوعية والنظرية والاستنتاج ، إلى العالم الذي يبدو أكثر منطقية بالنسبة لك . فنظام هولمز يعرف كيف يكبح بزمام الأمور . وتمرين مساعد على ذلك هو وصف الحالة من البداية ، سواء لفظاً أم كتابة ، بطريقة كما لو كانت موجهة لشخص غير مدرك لأي من التفاصيل ، وهو ما يشبه إلى حد كبير كيفية حديث هولمز عن نظرياته بصوت مرتفع لواتسون .

فعندما يطرح هولمز ملاحظاته بهذه الطريقة ، فإن الفجوات والتناقضات التي لم تكن ظاهرة مسبقاً تخرج إلى السطح .

إنه تمرين لا يشبه قراءة شيء كتبت بصوت مرتفع من أجل أن تجد أية أخطاء في القواعد أو المنطق أو النمط . تماماً كما أن ملاحظتك تكون متشابكة مع أفكارك وتصورك حتى أنك ربما تجد من الصعب إن لم يكن من المستحيل بمكان أن تفصل الواقع الموضوعي عن تجسيده الشخصي في عقلك ، فإنك عندما تعمل على مقالة أو قصة أو ما شابه ، فإنك تصبح على اطلاع على كتابتك ، وبالتالي تكون عرضة لتجاوز الأخطاء وقراءة ما يجب أن تقول الكلمات بدلاً مما تقوله . إن فعل التحدث يجبرك على التباطؤ وإيجاد تلك الأخطاء غير المرئية لعيونك . ذلك ان أذنك تلاحظها في الوقت الذي لا تفعل عينك . وبينما ربما يبدو إعادة القراءة بتعقل وانتباه وبصوت مرتفع إضاعة للوقت والجهد ، فإنه لا يكاد يفشل في الكشف عن خطأ أو ثغرة ربما تكون غابت عن ذهنك .

من السهل الخضوع لمنطق التداخل لواتسون وليقين هاكتسبل مما يقوله . لكن في كل مرة تجد نفسك تصدر حكماً بشكل مباشر اعتماداً على الملاحظة - في الحقيقة حتى لو لم تعتقد بأنك تقوم بذلك ، وحتى لو بدا كل شيء في غاية المنطقية- ، درب نفسك على التوقف وقول : «إنها من المستحيل بمكان أن تكون كما طرحتها . لذا لا بد أنني طرحتها بشكل خاطئ» . ثم عد وأعد طرحها من البداية وبطريقة مختلفة عن تلك التي قمت بها أول مرة ، بصوت مرتفع بدلاً من الصمت ، وبالكتابة بدلاً من التفكير بها برأسك . إن هذا سينقذك من الكثير من الأخطاء في التصور .

دعنا نعد للحظة لـ «كلب عائلة باسكرفيل». ففي الفصول الأولى من القصة ، يقول وريث منزل عائلة باسكرفيل هنري باسكرفيل بأن حذاءه قد فقد ، ولكنه ليس حذاء واحد . حيث يجد هنري أن الحذاء المفقود ظهر بأعجوبة بعد يوم من اختفائه ، ليجد أن زوجاً آخر من الأحذية قد فقد بدلاً منه . بالنسبة لهنري هذا الأمر مزعج وحسب ، أما بالنسبة لشارلوك هولمز فهو عنصر أساسي في قضية تهدد بأن تؤول إلى أمر خارق ، وتوليد نظرية الشعوذة . فما هو بالنسبة للآخرين مجرد فضول ، يعد بالنسبة لهولمز واحد من أكثر الأمور أهمية في القضية ؛ فالكلب الذي يتعاملون معه هو كلب حقيقي وليس شبحاً . إنه حيوان يعتمد على حاسة الشم بطريقة أساسية . وكما يخبر هولمز واتسون لاحقاً ، فإن تبديل حذاء مسروق بأخر كان «حادثاً في غاية الأهمية لأنه أثبت لي بشكل قاطع أننا نتعامل مع كلب حقيقي لأنه لا يوجد افتراض آخر يمكنه أن يفسر هذا القلق من أجل الحصول على حذاء قديم ، وهذه اللامبالاة في الحصول على واحد جديد» .

لكن ذلك ليس كل ما في الأمر . فعدا عن الحذاء المختفي ، هناك قضية أخرى تحمل تحذيراً أكثر وضوحاً . فإثناء التشاور مع هولمز في لندن ، استقبل هنري مذكرات مجهولة المصدر تحثه على البقاء بعيداً عن قاعة باسكرفيل . مرة أخرى ، هذه المذكرات بالنسبة للجميع عدا هولمز لا تتجاوز ما تبدو عليه ، أما بالنسبة لهولمز فهي تشكل الجزء الثاني من مفتاح القضية . وكما يخبر واتسون :
 «ربما يحدث لذاكرتك أنه عندما تفحصت الورقة التي ثبتت عليها الكلمات المطبوعة بأنني قمت بتفقد العلامة المائية . بقيامي

بذلك ، امسكت بها على بعد إنشآت قليلة من عيوني . وكنت أشتم رائحة خفيفة للرائحة المعروفة بالياسمين الأبيض . يوجد هناك خمسة وسبعون عطراً ، مما يعني أنه من الضروري جداً أن يكون خبير جنائي قادراً على تمييزها من بعضها البعض . وقد اعتمدت القضايا أكثر من مرة ضمن تجربتي على الإدراك الفوري لها . لقد أشارت الرائحة إلى وجود فتاة ، فبدأت أفكاري بالتوجه نحو الأماكن الواضحة ، وبهذا تحققت من الكلب ، وخنمت شخصية المجرم قبل أن نتوجه نحو البلد الغربية .

هنا مرة أخرى : الرائحة . إن هولمز لا يقرأ الملاحظة وينظر إليها فحسب ، بل إنه يشتمها أيضاً . ومن خلال الرائحة وليس فقط الكلمات والمظهر يجد هولمز المفتاح الذي يساعده في تحديد المجرم المتوقع . رائحة غائبة ، مفتاحان رئيسيان للقضية سيبقيان غامضين بالنسبة للجميع ما عدا المحقق . إنني لا أقول بأن تذهب وتحفظ خمسة وسبعين رائحة عطر ، لكن عليك ألا تتجاهل حاسة الشم لديك ولا حواسك الأخرى لأنها حتماً لن تتجاهلك .

فكر في سيناريو أنك تشتري سيارة ؛ حيث تذهب إلى البائع وتنظر إلى كل العينات الساطعة المعروضة . كيف تقرر أيها التي تناسبك؟ إذا سألتك ذلك السؤال الآن ، فإنك من المحتمل بأن تقول أنك فكرت في عدد من العوامل من التكلفة إلى الأمان ، ومن المسافة المقطوعة إلى استهلاك الوقود ، ثم ستختار السيارة التي تناسب معاييرك .

لكن حقيقة الموقف أكثر تعقيداً . تخيل على سبيل المثال أنه في اللحظة التي كنت فيها عند السيارات المعروضة ، يمر رجل يحمل كأساً من الشوكولاتة الساخنة التي يتصاعد منها البخار .

حتى أنك ربما لا تتذكر أنه مر ، ولكن الرائحة تثير ذكرياتك الماضية حول جدك الذي كان معتاداً على صنع الشوكولاتة الساخنة لك حين تكون برفقته ؛ لقد كانت طقوسك الخاصة . وقبل أن تعرفه ، تغادر المكان بسيارة تشبه التي كان جدك يقودها ، وتكون قد نسيت (أو فشلت في ملاحظة) تقييم السلامة الأقل من ممتاز الخاص بها . ومن المحتمل جداً أنك لا تعرف حتى السبب الذي دفعك للخيار الذي قمت به . إنك لست مخطئاً ، ولكن تذكرك الانتقائي ربما يعني أنك قمت بخيار ستندم عليه لاحقاً .

تخيل الآن سيناريو مختلف . هذه المرة توجد رائحة بنزين منتشرة . فمعرض السيارات يقع على الجانب الآخر من محطة الوقود . وحينها تتذكر أمك وهي تحذرك من الوقود الذي ربما يشعل نيراناً قد تتسبب بإيذائك . الآن أنت تركز على عنصر الأمان ، ومن المحتمل أن تغادر المكان بسيارة مختلفة تماماً عن تلك التي كان يقودها جدك ، ومرة أخرى ربما لا تعرف السبب وراء ذلك .

حتى اللحظة ، تحدثت عن الانتباه باعتباره ظاهرة بصرية ، وهو كذلك في أغلبه ، ولكنه أيضاً أكثر من ذلك . تذكر الغارة الافتراضية في أعلى مبنى الإمبير ستيت . لقد كان هولمز النظري يستمع إلى الطائرات ويشتم الهواء . غريب كما يبدو؟ إن الانتباه يتعلق بكل واحدة من حواسك النظر والشم والسمع والتذوق واللمس . وهو يعني أن تأخذ من المدخلات بأكبر قدر ممكن من خلال كافة السبل المتوفرة وهو أيضاً تعلم ألا تترك أي شيء يتعلق بالأهداف التي وضعتها . وهو أيضاً إدراك أن كل حواسنا تؤثر علينا وستؤثر علينا سواء أكننا مدركين للأثر أم لا

وحتى نلاحظ بشكل كامل ونكون متنبهين بحق ، علينا أن

نكون شموليين وألا ندع أي شيء يفوتنا . وعلينا أن نتعلم كيف أن انتباهنا ربما يتحول دون أن ندرك ذلك موجهًا بحاسة ظنناها غير مرئية . ماذا عن ذلك الياسمين؟ لقد شم هولمز الرسالة بشكل متعمد . وبهذا التصرف ، كان قادرًا على ملاحظة وجود تأثير أنثى ، وأنثى بعينها في تلك الحالة . لو أن واتسون أخذ الرسالة ، فإنه يمكننا القول بكل يقين أنه لن يفعل هكذا شيء . لكن أنفه ربما يكون قد التقط الرائحة بشكل جيد جدًا دون وعيه . ثم ماذا بعد؟

عندما نشم فإننا نتذكر . في الحقيقة ، لقد أظهرت الأبحاث أن الذكريات المرتبطة برائحة هي الذكريات الأكثر قوة وإشراقًا وعاطفية من بين كل ذكرياتنا . وما نشمه يؤثر على ما نتذكره وعلى ما نشعر به لاحقًا وعلى ما نميل إلى التفكير به على أنه نتيجة . لكن الشم يوصف عادة أنه الحاسة غير المرئية ؛ ذلك أننا نستخدمها بانتظام دون تسجيلها بشكل واع . فالرائحة تدخل أنفنا ، ثم تنتقل إلى البصلة الشمية ، ثم تشق طريقها مباشرة إلى الحصين واللوزة الدماغية (مركز لمعالجة المشاعر) وإلى القشرة الشمية (وهي لا تختص بالروائح فقط ، بل إنها منخرطة أيضًا في الذاكرة المعقدة والتعلم ومهام اتخاذ القرار) ، وبالتالي فإنها تثير مجموعة من الأفكار والمشاعر والذكريات ، ولكننا غالبًا لا نلاحظ الرائحة ولا الذاكرة .

ماذا لو أن واتسون من بين كل علاقاته النسائية المتعددة والعبارة للقارات واعد امرأة تضع عطر الياسمين؟ لتتخيل العلاقة على أنها سعيدة . وفجأة ربما وجد نفسه يرى بوضوح أكثر (تذكر أن المزاجات السعيدة تعني رؤية أوسع) ، لكنه ربما يكون أيضًا قد فشل في ملاحظة تفاصيل محددة بسبب توهج وردي معين في الشيء

برمته . ربما لا تكون الرسالة مشؤومة لهذا الحد ، وربما لا يكون هنري معرضاً لذلك القدر الكبير من الخطر . وربما أنه من الأفضل الذهاب لتناول المشروب ومقابلة فتيات جميلات . ففي النهاية ، الفتيات محبوبات ، أليس كذلك؟ والآن علينا العودة إلى موضوعنا .

ماذا لو كانت العلاقة عنيقة ووحشية وقصيرة؟ ستبدأ الرؤية النفسية (مزاج سيء ورؤية محصورة) يرافقها تجاهل لمعظم عناصر الرسالة . لماذا يجب أن يكون ذلك مهماً؟ ولماذا عليّ العمل بجد أكبر؟ أنا متعب وحواسي مثقلة وأستحق استراحة . ولماذا يزعجنا هنري بعدم منطقيته؟

عندما نكون شموليين ، فإننا لا ننسى أن كل حواسنا تعمل بشكل دائم ، فلا ندعها تقود مشاعرنا وقراراتنا ، ولكننا نطلب مساعدتها بدلاً من ذلك ، كما فعل هولمز مع الحذاء والرسالة ، وتتعلم بالتالي ضبط حواسنا

في أي من سيناريوهات واتسون أعلاه ، كل تصرفات الطبيب من لحظة شمه لرائحة الياسمين ستكون قد تأثرت . وبما لا يزال الاتجاه الدقيق للتأثير مجهولاً ، فإن هناك شيئاً حقيقياً . فهو لم يكن ليفشل في أن يكون شمولياً بانتباهه فحسب ، ولكن انتباهه سيستولى عليه من قبل ما يسمى بنظام واتسون ليتحول إلى ذاتية من شأنها أن تكون الأكثر محدودية لطبيعتها اللاواعية .

ربما يبدو كما أنني أبالغ ، لكنني أطمئنكم بأن التأثيرات الحسية خاصة الشمية قوية للغاية . وإذا لم نكن مدركين لها بشكل تام ، كما يحدث غالباً ، فإنها يمكن أن تشكل مصدر تهديد

للأهداف الموضوعية بحذر وللموضوعية التي نعمل عليها
ربما تكون الرائحة هي المذنب الأكثر وضوحاً ، ولكنها ليست

لوحدها على الإطلاق . عندما نرى شخصاً ، فغنا من المحتمل أن نجرب تفعيل أي عدد من التصورات النمطية المرتبطة بذلك الشخص ، رغم أننا لن ندرك ذلك . وعندما نلمس شيئاً ساخناً أو بارداً ، فربما نصبح دافئين أو باردين في ميولنا ، وإذا لمسنا شخص ما بطريقة مطمئنة ، فإننا ربما نجد أنفسنا فجأة نخوض مغامرة أكثر أو نكون أكثر ثقة . وعندما نحمل شيئاً ثقيلاً ، فإننا من المحتمل أن نحكم على شخص أو شيء بأنه عظيم الشأن وأكثر جدية . ليس لأي من هذه الأمور علاقة بالملاحظة والانتباه عدا عن أنها من الممكن أن ترمي بنا في مسار مزروع بعناية دون وعينا ، وذلك شيء خطير أيضاً

ليس علينا بالضرورة أن نكون كهولمز ونتعلم أن نسهب في الحديث عن مئات الروائح من نفحة واحدة لندع حواسنا تعمل لنا ، أو لنسمح لوعينا بأن يمنحنا صورة أكثر اكتمالاً لمشهد يمكننا الحصول عليه بطريقة مختلفة . ماذا بالنسبة للرسالة المعطرة؟ ليس عليك ان تعرف الرائحة لتدرك أنها موجودة ، وربما يكون ذلك مفتاحاً ممكناً . فإذا لم تنتبه إلى الأريج ، ستكون قد أضعت وجود المفتاح بشكل كامل . لكنك ربما تكون قوضت موضوعيتك دون أن تكون مدركاً لما حدث . والحذاء المفقود؟ وحذاء مفقود آخر؟ ربما يتعلق الأمر بشيء عدا عن ظهور الحذاء ، ففي نهاية المطاف إنه حذاء قديم وبشع ، وفي اختفائه خير . ولا يتوجب عليك معرفة الكثير لتدرك أنه ربما يكون هناك مفتاح حسي آخر هنا والذي ربما سيضيع إذا نسيت حواسك الأخرى . وفي كلا الحالتين ، إن الفشل في استخدام كافة الحواس يعادل مشهداً لا ينظر إلى كافة إمكانياته ، وهو يعني أن الانتباه لم يتم توظيفه كما يجب ، وإشارات العقل الباطن تلون الانتباه الموجه

بطريق ربما لا تكون مثالية .

إذا أشركنا كل حواسنا بفعالية ، فإننا نقر بأن العالم متعدد الأبعاد ، والأشياء تحدث من خلال عيوننا وأنفنا وأذاننا وجلدنا وكل من هذه الحواس يجب أن نخبرنا شيئاً . وإن لم تفعل ، فإن ذلك يخبرنا أيضاً بشيء وهو أن حاسة ما مفقودة ، وأن شيئاً يفتقر إلى الرائحة أو أنه صامت أو غائب . بكلمات أخرى ، إن الاستخدام الواعي لكل حاسة يمكن أن يتجاوز إلقاء الضوء على الجزء الحاضر من المشهد ، ويرى بدلاً من ذلك أن جزءاً من حالة ما منسي غالباً ؛ وهو ذلك الجزء غير الموجود وغير الحاضر في البيئة المحيطة حيث يجب أن يوجد كل مقياس حقيقي . والغيب يمكن أن يكون مهمّاً كما الحضور والإخبار .

فكر في قضية «ذو الغرة الفضية» ، جواد السباق المفقود والمشهور والذي لا يستطيع أحد تعقبه . عندما توفرت لهولمز الفرصة لتفحص المكان ، فإن المفتش جريجوري والذي فشل في إيجاد شيء كما استحالة فقدان حصان يسأل : «هل هناك ما تود لفت انتباهي له؟؟» فيجيب هولمز : «نعم ، للواقعة الغريبة للكلب عند منتصف الليل» . ولكن المفتش يحتج قائلاً : «لم يقم الكلب بأي شيء عند منتصف الليل» ، فبقول هولمز الجملة الختامية : «وذلك هو الشيء المشير للفضول» .

بالنسبة لهولمز ، يعد غياب نباح الكلب هو النقطة المفصلية في القضية ؛ ذلك أن الكلب لا بد وأن عرف ذلك الغريب ، وإلا لقام بفوضى .

بالنسبة لنا ، يعد غياب النباح شيئاً سهلاً للغاية ليُنسى . في كثير من الأحيان ، يحدث ألا نفتقد أشياء ليست موجودة ، ولا نعد

غيابها شيئاً يجدر الانطلاق منه - خاصة إذا كان حصول هذا الشيء معقولاً ، ومرة أخرى إن ليس هناك حاسة طبيعية كجزء من الانتباه والملاحظة كالبصر . لكن هذه العناصر المفقودة تكون غالباً مُخبرة ومهمة-ويمكن أن تصنع فرقاً في تفكيرنا كما نظيراتها الحاضرة .

لا يتوجب علينا التعامل مع قضية مباحث حيث هناك معلومات مفقودة تلعب دوراً مهماً في عملية التفكير لدينا . خذ على سبيل المثال قرار شراء هاتف محمول ، سأعرض عليك خيارين وأطلب منك أن تقرر أيهما تفضل شراءه .

الهاتف أ	الهاتف ب	
٨٠٢,١١	٨٠٢,١١	الانترنت اللاسلكي
١٢ ساعة	١٦ ساعة	وقت التحدث
١٢,٥ يوم	١٤,٥ يوم	وقت الانتظار
١٦ جيجابايت	٣٢ جيجابايت	الذاكرة
١٠٠ دولار	١٥٠ دولار	السعر

هل اتخذت قراراً؟ قبل أن تواصل القراءة ، دوّن أي هاتف تريد «أ» أم «ب» . سأصف الآن الهاتفين مرة أخرى دون تغيير المعلومات ، ولكنني أضفت معلومات جديدة .

الهاتف أ	الهاتف ب	
٨٠٢,١١	٨٠٢,١١	الانترنت اللاسلكي
١٢ ساعة	١٦ ساعة	وقت التحدث
١٢,٥ يوم	١٤,٥ يوم	وقت الانتظار
١٦ جيجابايت	٣٢ جيجابايت	الذاكرة
١٠٠ دولار	١٥٠ دولار	السعر
١٣٥ غم	٣٠٠ غرام	الوزن

أي الهاتفين تفضل شراءه الآن؟ مرة أخرى ، سجل إجابتك . سأعرض الآن الخيارات المتوفرة للمرة الثالثة مع إضافة عنصر آخر

الهاتف ب	الهاتف أ	
٨٠٢,١١	٨٠٢,١١	الانترنت اللاسلكي
١٦ ساعة	١٢ ساعة	وقت التحدث
١٤,٥ يوم	١٢,٥ يوم	وقت الانتظار
٣٢ جيجابايت	١٦ جيجابايت	الذاكرة
١٥٠ دولار	١٠٠ دولار	السعر
٣٠٠ غرام	١٣٥ غم	الوزن
١,٤ واط/كغم	٧٩, واط/ كغم	الإشعاع

الآن ، أي الهاتفين تفضل؟

إن الاحتمالات القائمة أنك في مكان ما بين القائمتين الثانية والثالثة غيرت تفضيلك من الهاتف ب إلى الهاتف أ . إن الهاتفين لم يتغيرا ، ولكن ما تغير هو المعلومات التي أصبحت مدرکًا لها ، وهذا ما يعرف بإهمال السهو ، أي أننا نفشل في ملاحظة ما لا نتصوره في المقدمة ، ونفشل كذلك في استفسار المزيد أو في أخذ الأجزاء المقفولة بعين الاعتبار أثناء اتخاذ القرار . إن بعض المعلومات متوفرة دائمًا ، ولكن بعضها صامت دائمًا ، وستبقى كذلك ما لم ترها بنشاط . لقد استخدمت هنا المعلومات البصرية فقط . فبينما تنتقل من بعدين إلى ثلاثة أبعاد ، ومن القائمة إلى العالم الحقيقي ، يتم إشراك كافة الحواس فتصبح اللعبة عادلة . إن احتمالية إهمال المغفل تزداد تبعًا لذلك ، وكذلك الأمر بالنسبة لالتقاط المزيد عن الموقف إذا انخرطنا بشكل فعال وسعينا لإدراجها

دعنا نعود الآن لذلك الكلب المثير للفضول . كان يمكن أن ينبج
أولا ينبج ، ولكنه لم ينبج . إحدى الطرق للنظر إلى ذلك أن نقول
كما قال المفتش بأن الكلب لم يفعل أي شيء . وطريقة أخرى أن
نقول كما قال هولمز بأن الكلب اختار ألا ينبج ، والنتيجة متطابقة
للاتجاهين ؛ وهي كلب صامتة ولكن التلميحات المنطوية على الرأيين
متناقضة تمامًا وهي القيام بلا شيء سلبيًا ، او القيام بشيء
بإيجابية مكتبة الرمحي أحمد

إن اللا اختيارات هي اختيارات ، واختيارات مخبرة جدًا .
فكل لا فعل يدل على فعل مواز ، وكل غياب هو حضور . خذ مثلاً
ذلك التأثير الافتراضي المعروف بأننا في أكثر الأحيان نتمسك
بالخيارات الافتراضية ولا نبذل الجهد من أجل التغيير حتى لو كان
خيار آخر أفضل لنا . إننا لا نختار المساهمة في صندوق التقاعد
حتى ولو كانت شركتنا ستطابق المساهمات - ما لم يتم تعيين
الافتراضي للمساهمة . فنحن لا نصبح بمولدين أعضاء ما لم نُعتبر
افتراضياً على أننا مولدين ، والقائمة في هذا تطول . ولكن ذلك لا
يعني أننا لم نقوم بشيء ، ذلك اننا قمنا بشيء ، لقد اخترنا بطريقة
ما أن نظل صامتين .

إن الانتباه يعني الانتباه لكل شيء ، والانخراط بشكل فعال ،
واستخدام كافة حواسنا ، واستيعاب كل شيء حولنا بما في ذلك
تلك الأشياء التي لا تظهر في الوقت الذي يجب عليها أن تفعل .
وهو يعني طرح أسئلة والتأكد من الحصول على إجاباتها (قبل أن
أذهب لشراء تلك السيارة او الهاتف المحمول ، يجب أن أسأل
نفسي : ما هي الخصائص التي تهمني؟ ثم يجب أن أتأكد بأنني
أنتبه لها وليس لشيء آخر مختلف تمامًا) . وهو أيضاً إدراك أن العالم

ثلاثي الأبعاد ومتعدد الحواس ، وبأننا سنتأثر بالبيئة ، سواء أُرغبنا بذلك ام لا . لذا فإن أفضل ما نراهن عليه هو السيطرة على ذلك التأثير من خلال الانتباه لكل شيء يحيط بنا . ربما لا نكون قادرين على الاندماج مع الحالة برمتها ، وربما ينتهي بنا المطاف بأن نتخذ خياراً ليس هو الأفضل . لكن ذلك لا يعزى إلى نقص المحاولة كل ما بوسعنا فعله هو الملاحظة بأفضل ما لدينا وألا نفترض أي شيء على الإطلاق ، بما في ذلك أن الغياب هو ذاته اللاشيء .

٤. كن منخرطاً

حتى شارلوك هولمز يرتكب الأخطاء العرضية أحياناً ، ولكنها ناتجة عادة عن سوء التقدير ، سواء لشخص كما في حالة أيرين أدلر ، أو لقدرة حصان على الاختباء كما في «ذو الغرة الفضية» ، أو قدرة شخص على البقاء كما هو الحال مع «الرجل ذو الشفة الملتوية» . فمن النادر بالتالي أن يكون الخطأ جسيماً ، بل إنه عادة ما يكون خطأً في الاندماج . وهذا يعني أنه يكون في حالة واحدة فقط ، وبقدر معرفتي فهي تتمثل في أن المحقق العظيم فشل في تجسيد ذلك العنصر الأخير من الانتباه وهو وجود الاهتمام النشط والاندماج فيما يقوم به ، وتقريباً كلفه ذلك حياة المشتبه به .

تحدث الواقعة مع نهاية «مغامرة موظف البورصة» في القصة ، يعرض السيد آرثر بينر على الموظف هول بيكرفت منصب مدير أعمال شركة الأجهزة الفرنسية ميدلاند . لم يسبق لبيكرفت وأن سمع باسم الشركة ، ومن المقرر أن يبدأ العمل في الأسبوع التالي في وساطة الأسهم ، لكن الراتب ببساطة جيد جداً ولا يمكن رفضه . لذا يوافق على بدء العمل في اليوم التالي . ولكن شكوكه

تثور عندما يبدو مديره الجديد السيد هاري شقيق السيد هنر مثيراً للشكوك كالسيد آرثر . الأكثر من ذلك أنه يكتشف أن المدعو مكتبه لا يوظف سواه ، ولا توجد حتى إشارة على الجدار لتنبه الزائرين المحتملين بوجود المكتب . لاختصار ذلك ، لم تكن مهمة بيكرت تشبه مهمة موظف ، حيث كان عليه نسخ القوائم من دفتر الهاتف السميك . وبعد أسبوع ، عندما يرى أن لدة السيد هاري سنًا ذهبياً كالسيد آرثر فإنه يفهم تلك الغرابة وي طرح المشكلة أمام شارلوك هولمز .

يمضي هولمز وواتسون في مرافقة هول بيكرت إلى الميدلاندز ، وتحديدًا إلى مكتب موظفه . يعتقد هولمز أنه يعرف ما الذي حدث ، والخطة تتمثل في زيارة الرجل بحجة البحث عن عمل ، ثم مواجهته كما اعتاد عليه هولمز . كل التفاصيل حول هذا الموضوع في مكانها ، وكل معلم من معالم الحالة واضح بالنسبة للمحقق . إنها ليست كتلك القضايا التي يحتاج فيها المجرم ليملاً الفراغات الرئيسية . إنه يعرف ماذا يتوقع ، والشيء الوحيد الذي يحتاجه هو الرجل بنفسه

لكن عندما يدخل الثلاثي إلى المكاتب ، فإن سلوك السيد بنير لم يكن كما المتوقع على الإطلاق . ويصف واتسون المشهد قائلاً :
«جلس الرجل الذي رأيناه في الشارع على طاولة منفردة ، وكانت صحيفة المساء امامه . عندما نظر إلينا ، بدالي أنني لم أنظر إلى وجهه يحمل علامات الكآبة كهذه ، أو حتى ما هو أكثر من الكآبة ، إنه ذاك الذعر الذي يصيب قليلاً من البشر خلال حياتهم . لقد كان جبينه يبرق من العرق ، وكانت وجنتيه باهتتين ، وكانت عيناه جامحة ومحدقة . لقد نظر إلى موظفه كما لو فشل في

التعرف عليه ، وكان بإمكانني رؤية الدهشة التي ارتسمت على وجه مرشدنا والتي لم تكن بأي حال من الأحوال المظهر الطبيعي لمشغله .

لكن ما حصل لاحقاً كان مفاجئاً أكثر ويهدد بإحباط خطط هولمز بشكل كامل ؛ لقد حاول السيد بينر الانتحار . لقد أصبح هولمز في حيرة من أمره ، فهو لم يتوقع هذا الأمر على الإطلاق . إن كل شيء حتى تلك اللحظة كان واضحاً بما فيه الكفاية ، لكن غير الواضح كما يقول هولمز هو «لماذا قام هذا المحتال على مرأى منا بالخروج من الغرفة وشنق نفسه؟»

تأتي الإجابة بسرعة . إن ما أنعش الرجل هو الجريدة . لقد كان يقرأ جريدة ، أو تحديداً شيئاً محدداً في الجريدة ، شيء جعله يفقد توازنه العاطفي بشكل كامل وذلك عندما قابله شارلوك ورفقته يتفاعل هولمز مع الأخبار بحماس غير معهود ويصرخ بنوبة من الإثارة : «الجريدة بالطبع . كم كنت غيبياً! لقد فكرت كثيراً في زيارتنا حتى أن الجريدة لم تخطر ببالي للحظة» .

في اللحظة التي ذكرت فيها الجريدة ، يعرف هولمز مباشرة ما الذي تعنيه ولماذا كان لها ذلك الأثر . لكن لماذا فشل في ملاحظتها مباشرة ، مرتكباً بذلك خطأ حتى واتسون ربما يشنق نفسه من عار ارتكابه؟ كيف تحول نظام هولمز إلى نظام واتسون؟ إن الأمر بسيط ، حيث يقول هولمز بنفسه أنه فقد الاهتمام في القضية . ففي دماغه كانت محلولة فعلياً حتى في أدق تفاصيلها وهي الزيارة ، والتي فكر بها كثيراً حتى أنه قرر أن الانسحاب من كل شيء آخر سيكون جيداً ، وذلك خطأ لا يرتكبه عادة .

يعرف هولمز أكثر من أي أحد آخر أهمية الاندماج للملاحظة

الجيدة والتفكير . عن دماغك يحتاج لأن يكون نشيطاً وأن يندمج مع ما يقوم به ، وإلا سيصبح رخواً لدرجة أن يسمح لتفصيل بالمهم بالإفلات منه حتى أن موضوع الملاحظة قد يختفي تماماً . إن التحفيز عامل مهم . فإذا توقفت عن التحفيز فإن أداءك سيتراجع بغض النظر عن مدى جودة ما كنت تقوم به حتى النهاية ، وحتى لو قمت بكل ما عليك القيام به حتى اللحظة بشكل ناجح . فعندما يفتر التحفيز والمشاركة ، فإنك تنزلق .

عندما ننخرط فيما نقوم به ، فإن كافة الأشياء تحدث . إننا نشاير لمدة أطول حين تواجهنا المشاكل الصعبة ، وتزداد احتمالية حلنا لها ، فنعيش شيئاً يسميه عالم النفس توري هيجنز بالتدفق ، وهو حضور العقل الذي لا يسمح لنا باستخلاص المزيد من أي شيء نقوم به فحسب ، بل إنه يجعلنا أكثر سعادة ونشعر شعوراً أفضل . إننا نستمد أهمية فعلية وممتعة وقابلة للقياس من ثوة اندماجنا الفعال وانتباهنا لنشاط معين حتى لو كان النشاط مملاً كفرز رزم من البريد . إذا كان لدينا سبب للقيام بذلك ، أي سبب يجعلنا نندمج ، فإننا سنقوم بالأمر بشكل أفضل ونكون بالتالي أكثر سعادة . إن المبدأ يحمل في طياته الصحة حتى لو كان علينا بذل جهد عقلي مميز ، فلنقل كما في حل الألغاز الصعبة . وعلى الرغم من المجهود ، فإننا سنظل نشعر بالسعادة والرضا إذا جاز التعبير .

الأكثر من ذلك أن الاندماج والتدفق يميلان لحد حلقة إيجابية من الأنواع ، ذلك أننا نصبح أكثر تحفيزاً وإثارة عموماً ، وبالتالي تزداد احتمالية أن نكون أكثر إنتاجية وأن ننتج شيئاً ذا قيمة . أمر آخر أن احتمالية ارتكابنا لبعض أكثر الأخطاء أساسية

في مجال الملاحظة تتقلص (مثل الحكم على تفاصيل إنسان ما من مظهره الخارجي) ، مما يمكن أن يهدد بالتخلص حتى من أفضل خطط المراقب الهولزي الطموح . بكلمات أخرى ، يحفز الاندماج نظام هولز ويزيد احتمالية زيادته .

لمعرفة ما أقصده ، دعنا نعود للحظة لهولز تحديدًا ، إلى ردة فعله نحو حكم واتسون الذي هو في غاية السطحية وعدم الانخراط فيما يتعلق بحكمه على موكلهما في «مغامرة باني نوروود» . في القصة ، يظهر الدكتور واتسون منهجًا مثاليًا لنظام واتسون فيما يتعلق بالملاحظة ، أي الحكم المتسرع جدًا من الانطباعات الأولية ، والفشل في تصحيح الظروف المحددة المعنية . على الرغم من أن الحكم في هذه القضية بالذات على شخص - لأنه ينطبق على الناس ، فإن له اسمًا محددًا وهو تحيز المراسلات ، ذلك المفهوم الذي سبق وأن تعرضنا له - فإن العملية التي يوضحها تتجاوز إدراك الشخص .

بعد أن يعدد هولز المصاعب التي تواجه القضية ويؤكد على أهمية التحرك السريع ، يقول واتسون : «هل إنه من المؤكد بمكان أن مظهر الإنسان يمكن أن يذهب بعيدًا بهيئة المحلفين؟» فيرد هولز : «ليس بتلك السرعة . إن تلك حجة خطيرة يا عزيزي واتسون . أنت تذكر ذلك القاتل الخطير بيرت ستيفنز والذي أراد منا أن نخرجه خارج الدائرة في ٨٧؟ هل سبق وأن كان شاب يدرس في مدرسة الأحد أكثر دماثة منه؟ كان على واتسون أن يتفق أنه في حقيقة الأمر هكذا . ففي الكثير من الأحيان لا يكون الأشخاص كما يُحكم عليهم من المرة الأولى .

يحدث أن يكون تصور الشخص توضيحًا عمليًا سهلاً لعملية

الاندماج . وأثناء مرورنا بالخطوات اللاحقة ، ندرك أنها تنطبق على أي شيء ، وليس على الأشخاص فقط ، وأنا نستخدم الأشخاص فقط من أجل مساعدتنا على تصور ظاهرة عامة .

إن عملية تصور الشخص هي عملية مخادعة بسيطة . حيث أننا في البداية نقوم بالتصنيف ؛ ماذا يفعل الفرد؟ وكيف يتصرف؟ وكيف يبدو . في قضية واتسون ، يعني هذا الأمر العودة بالتفكير إلى الدخول الأولي ل جون هكتر ماكفرلين إلى ٢٢١ ب . فهو يعرف مباشرة (عن طريق حث هولمز) بأن زائرهم محامٌ ماسوني ، وهي وظيفة جديدة بالتقدير في لندن في القرن التاسع عشر ، ثم يلاحظ تفاصيل إضافية حيث يقول : «لقد كان كتاني الشعر ، ووسيمًا ، ويرتدي ملابس باهتة . أما عيناه فكانتا زرقاوين خائفتين ، وكان وجهه نظيفًا وحليقًا ، وفمه ضعيف وحساس . وكان في حوالي السابعة والعشرين من عمره ، ويحمل ملامح الرجل النبيل . وقد برزت حزمة من الأوراق المصدقة من جيب معطفه الصيفي الخفيف لتوحي بمهنته » .

تخيل الآن هذه العملية تحدث بذات الطريقة مع شيء أو موقع أو أي كان . خذ شيئًا بسيطًا كتفاحة مثلاً ، وصفها : كيف تبدو؟ أين هي؟ هل تقوم بأي شيء؟ حتى وضعها في صحن يعتبر نشاطًا

بعد أن نقوم بالتصنيف ، نقوم بتحديد الخصائص . والآن بما أننا نعرف ما الذي يقوم به أو كيف يبدو ، ما الذي ينطوي على ذلك؟ هل هناك بعض المزايا أو الخصائص الكامنة والتي من المحتمل أن تُبرز انطباعي الأولي أو ملاحظاتي؟ إن هذا تمامًا ما يقوم به واتسون عندما يخبر هولمز : «بالطبع إن مظهر الإنسان يمكن أن

يذهب بعيداً بهيئة المحلفين». حيث أنه أخذ الملاحظات الأولى ، والتي هي محشوة بقدر ما يمكن أن تكون - وسيم ، حساس ، يحمل خصائص الرجل النبيل وتدل الأوراق على مهنته كمحامي-ويقرر أن تلك الأمور لو أخذت معاً بعين الاعتبار ، فإنها تلمح إلى الجدارة بالثقة ، وهي طبيعة صلبة ومستقيمة لا يمكن لأي هيئة محلفين التشكيك بها . (أتفكر في أنك لا تستطيع وصف تفاحة؟ ماذا عن استنتاج مدى صحتها كصفة أساسية لأن التفاحة فاكهة ، وتبدو لها فوائد تغذوية كثيرة بناء على ملاحظتك الأولى؟)

أخيراً نصح كما يلي : هل هناك شيء ربما يكون قد تسبب بالحدث عدا عن تقييمي الأولي (في مرحلة الوصف)؟ هل أحتاج لتعديل انطباعاتي الأولية بأي اتجاه كان ، كحذف بعض العناصر أو إضافة عناصر أخرى؟ يبدو ذلك الأمر سهلاً بما فيه الكفاية ؛ حسناً حكم واتسون فيما يتعلق بالجدارة بالثقة أو حكمك بخصوص مدى صحة التفاحة وقرر فيما إذا كان يحتاج لتعديل .

باستثناء ذلك توجد مشكلة واحدة رئيسية ؛ فبينما يعد الجزآن الأولان من العملية تلقائيان تقريباً ، فإن الجزء الأخير أقل تلقائية منهما ، وغالباً لا يحصل على الإطلاق وأن يكون تلقائياً . في قضية جون ماكفرلين ، اعتبر أنه ليس واتسون هو من يصحح انطباعه . فهو يأخذه كما هو ويوشك على التحرك . وبدلاً من ذلك يشير هولمز دائماً الانخراط إلى أن منطق واتسون هو «جدل خطير» . ربما يكون ماكفرلين قادراً على الاعتماد على مظهره لخداع أي هيئة تحكيم ، وربما لا يكون كذلك ، فالأمر برمته يعتمد على الهيئة وعلى الجدالات الأخرى المرتبطة بالقضية . يمكن للمظهر وحده أن

يخضع ، فما الذي يمكنك فعلياً أن تعرفه عن جدارة ماكفرلين بالثقة من مجرد النظر إليه؟ بالعودة إلى تلك التفاحة ، هل تستطيع فعلياً معرفة مدى صحتها من مجرد التفحص الخارجي لها؟ ماذا لو كانت هذه التفاحة بالذات ليست عضوية فحسب ، بل جاءت من تاجر معروف باستخدام المبيدات غير المسموحة ، ولم يتم غسلها أو تنظيفها على الإطلاق؟ يمكن للمظاهر أن تخدع حتى هنا ، ولأن لديك تصور عن التفاحة في دماغك ، فإنك ربما ترى أن معرفة المزيد ضياع للوقت ولن يفيد في شيء .

لماذا نفشل غالباً عند هذه المرحلة الأخيرة من الإدراك؟ تكمن الإجابة في ذلك العنصر الذي كنا نناقشه : الاندماج .

يأتي التصور في صورتين : غير فعال وفعال والفرق بينهما ليس ذلك الذي ربما تظنه . في هذه الحالة ، يعد نظام واتسون هو الفعال ونظام هولز هو غير الفعال . باعتبارنا ملاحظين سلبيين ، فإننا نكتفي بالملاحظة ، وأعني بذلك أننا لا نقوم بأي شيء آخر . بكلمات أخرى ، إننا لسنا متعددي المهام . يركز هولز الملاحظ السلبي كل إمكانياته على موضوع الملاحظة والذي هو في هذه القضية جون هكتر ماكفرلين . فهو يستمع ، كما هي عادته «بينما عيناه مغمضتان ورؤوس أصابعه متشابكة» . وكلمة سلبي يمكن أن تكون مضللة ، فلا يوجد ما هو سلبي فيما يتعلق بتصوره المركز . الأمر السلبي هو موقفه من بقية العالم ، ولن تشتتته مهمة أخرى . إننا كملاحظين سلبيين لا نقوم بأي شيء آخر ؛ كل ما نقوم به أننا نركز على الملاحظة . والمصطلح الأفضل لذلك والذي يجول في رأسي هو السلبية المتفاعلة ، وهي حالة تمثل خلاصة الاندماج لكنها تركز على شيء أو شخص واحد فقط ، وذلك حسب القضية .

على الرغم من ذلك ، فإنه في أغلب الحالات لا يكون لنا مصلحة من الملاحظة ببساطة (وحتى عندما نقوم بذلك ، فإننا عادة لا نختار القيام به) . عندما نكون في بيئة اجتماعية ، فإننا نحدد غالبية المواقف ، ولا نكتفي بالوقوف في الخلف والمراقبة ، فنكون بدلاً من ذلك في حالة تعدد المهام محاولين التبخر في تعقيدات التفاعل الاجتماعي في ذات الوقت الذي نقوم فيه بإصدار أحكام منسوبة ، سواء على الناس أو الأشياء أو البيئات المحيطة . إن التصور الإيجابي لا يعني نشاطاً في الوجود والانخراط . إنه يعني أن الملاحظ -حرفياً- نشيط ؛ أي أنه يقوم بالعديد من الأشياء في ذات الوقت . إن التصور الإيجابي هو ذاته نظام واتسون يحاول الركض في أرجاء المكان وعدم إضاعة أي شيء . إنه واتسون الذي لا يتفحص زائره فقط ، بل يقلق بشأن جرس الباب والصحيفة وموعد تقديم الغداء وشعور هولمز ، كل هذه الأشياء في ذات الوقت ، والمصطلح الأفضل هنا هو النشاط الحر ، وهو حالة تبدو فيها نشيطاً ومنتجاً ، ولكنك فعلياً لا تقوم بشيء إلى أقصى إمكانياته ، ناشراً موارد الانتباه الخاصة بك .

إن ما يفصل هولمز من واتسون ، أي الملاحظ الفعال من غير الفعال ، والسلبية المتفاعلة من النشاط الحر هو تماماً الوصف الذي استخدمته في كلا الحالتين ؛ أي الاندماج ، التدفق ، التحفيز ، الاهتمام أو سمة ما شئت . إنه ذلك الشيء الذي يجعل هولمز مركزاً بشكل كامل على زائره ، وهو الذي يبهجه ويمنع دماغه من القيام بمزيد من التخبط في أي مكان ما عدا نحو الموضوع الذي في متناول الأيدي .

في مجموعة من الدراسات التقليدية ، قام مجموعة من

باحثي هارفارد يبحث لتوضيح أن الملاحظين النشيطين يقومون بالتصنيف والتمييز على مستوى قريب من اللاوعي ، أي بشكل تلقائي ودون الكثير من التفكير ، ولكنهم يفشلون لاحقاً في تنفيذ الخطوة الأخيرة من التصحيح - حتى عندما تتوفر لديهم كل المعلومات اللازمة لذلك- وبالتالي ينتهي بهم المطاف بانطباع لا يأخذ كل متغيرات التفاعل بعين الاعتبار . وكما واتسون ، فإنهم يتذكرون فقط أن هيئة المحلفين يمكن أن تحب مظهر شخص ما ، وعلى خلاف هولمز ، فإنهم يفشلون في أخذ العوامل التي ربما تجعل من المظهر مفضلاً بعين الاعتبار ، أو تلك الظروف التي يمكن أن تجعل المحلفين يرفضون الاحتكام إلى المظهر بغض النظر عن مدى جدارتها بالثقة .

في الدراسة الأولى ، اختبر الباحثون فيما إذا كان الأشخاص الذين كانوا مشغولين إدراكياً أو متعدد المهام في الطريقة التي نكون عليها غالباً عندما نتلاعب بعناصر حالة محددة قادرين على تصحيح الانطباعات الأولية من خلال القيام بالتعديل اللازم . طلب من مجموعة من المشاركين مشاهدة سلسلة من سبعة مقاطع فيديو ظهرت فيها امرأة تتحدث مع شخص غريب . كانت المقاطع صامتة بحجة حماية خصوصية هؤلاء المتحدثين ، ولكنها مع ذلك شملت عناوين فرعية في نهاية كل مقطع تخبر بموضوع المحادثة . في خمسة من بين السبعة فيديوهات ، تصرفت المرأة بأسلوب قلق ، بينما في المقطعين الآخرين ظلت هادئة .

في الوقت الذي شاهد فيه الجميع ذات المقاطع ، اختلف عنصران : العناوين الفرعية ، والمهام التي تُوقع من المشاركين أداؤها في أحد الحالات ، كانت المقاطع الخمسة المتوترة مقترنة بمواضيع

مثيرة للقلق ، كالحياة الجنسية ، بينما السبع مقاطع الأخرى فكانت مقترنة بمواضيع محايدة كالسفر حول العالم (بكلمات أخرى ، بدت الخمس مقاطع المقترنة بالتصرف القلق متناقضة مع الأخذ بعين الاعتبار الموضوع المريح) . وضمن كل من هذه الحالات ، تم إخبار نصف المشاركين بأنهم سيقيمون المرأة في الفيديو بناء على بعض الأبعاد المتعلقة بالشخصية ، بينما كان متوقعًا من النصف الآخر أن يقيم الشخصية ، وأن يكون قادرًا على تذكر مواضيع الحديث السبعة بالترتيب .

لم يكن ما وجدته الباحثون مفاجئًا لهم ، لكنه زعزع الطريقة التي يحدث فيها التصور لدى الأفراد - الطريقة التي نرى فيها الآخرين - وكيف كان ينظر إليه دائمًا . بينما أولئك الذين كان عليهم التركيز على المرأة فقط تكييفوا حسب الوضع مقيمين إياها على أنها كانت تميل لتكون أكثر قلقًا عند المواضيع العادية وأقل قلقًا عند المواضيع التي تثير القلق ، فإن أولئك الذين كان عليهم تذكر مواضيع الحادثة فشلوا بشكل كامل بأخذ تلك المواضيع بعين الاعتبار في حكمهم على قلق المرأة . لقد توفرت لديهم كافة المعلومات التي احتاجوها لاتخاذ الحكم ، لكنهم لم يفكروا على الإطلاق باستخدامها . لذلك على الرغم من معرفتهم بأن الحالة يمكن ان تجعل أي شخص قلقًا نظريًا ، فإنهم ببساطة قرروا عند الممارسة العملية أن المرأة كانت شخصًا قلقًا إجمالاً . الأكثر من ذلك أنهم تنبؤوا أنها يمكن أن تواصل قلقها في سيناريوهات مستقبلية بغض النظر عن مدى كون هذه السيناريوهات مثيرة للقلق . وكلما كان تذكرهم لمواضيع الحادثة أفضل ، كلما كانوا جديدين في تنبؤاتهم . بكلمات أخرى ، كلما كانت أدمغتهم أكثر

انشغالاً ، كلما قل تعديلهم بعد تشكيل الانطباع الأولي .
إن هذه الأخبار جيدة وسيئة في ذات الوقت . فهي سيئة لأننا
في أغلب الحالات ونحت غالبية الظروف نكون ملاحظين إيجابيين ،
وبالتالي نكون أكثر عرضة لارتكاب خطأ التصنيف والتمييز
التلقائي وغير الواعي ، ثم نفشل في تصحيح ذلك الانطباع
الأولي ، لذا ننجر وراء المظاهر وننسى أن نكون حاذقين ، وننسى
كذلك السهولة التي يمكن أن يتأثر بها الشخص عند أي نقطة
بالقوى الضخمة ، داخلية كانت أم خارجية . بالصدفة ، فإن هذا
الحال سواء أردت أم لا ، وكما يفعل غالبية الغربيين ، فإنهم
يستنتجون الحالات من خلال الصفات . أيًا كان الاتجاه الذي
تخطئ فيه ، فإنك ستفشل في التكيف .

لكن هناك أخبار جيدة . فقد أظهرت دراسة تتلوهما الأخرى بأن
الأفراد المتحفزين يقومون بالتصحيح بشكل طبيعي أكثر - وبشكل
أكثر صحة إذا صح التعبير - من أولئك غير المتحفزين . بكلمات
أخرى ، علينا أن ندرك بأننا نميل إلى تكوين أحكام تشبه الطيران
الآلي ثم نفشل في تعديلها ، وعلينا أن نريد أن نكون أكثر دقة
بفعالية . في إحدى الدراسات ، استخدم عالم النفس دوغلاس
كرول نفس الإعداد الأولي الذي استخدمه فريق هارفرد في
بحثهم ، لكنه أعطى بعض المشاركين هدفًا إضافيًا ، وهو تقدير
مقدار القلق الذي سببته أسئلة المقابلة . أولئك الذين أخذوا الحالة
بعين الاعتبار ، كانوا أقل احتمالية ليقرروا أن المرأة كانت شخصًا
قلقًا ببساطة ، حتى عندما كانوا مشغولين بمهمة السرد الإدراكي .

أو دعنا نأخذ نموذجًا آخر شائع الاستخدام ؛ إنه البيان
السياسي المخصص لموضوع بدلاً من اختياره بشكل متعمد . لنأخذ

عقوبة الإعدام كمثال (لأننا ذكرنا ذات القضية في الماضي ،
وتتناسب مع عالم هولمز الإجرامي ، وهي عادة ما تستخدم في هذه
الإعدادات التجريبية) . لديك الآن واحد من ثلاثة مواقف تجاه
عقوبة الإعدام ؛ فربما تكون معها ، أو ضدها ، أو غير مهتم بها أو لا
تعرف أو لم يسبق وأن فكرت بها كثيراً . فإذا أعطيتك مقالة
مختصرة تدعم حكم الإعدام ، فكيف تتجاوب معها؟

الإجابة هي أن الأمر يعتمد على عدة عوامل . فإذا كنت لا
تعرف أو تهتم بطريقة أو أخرى ، فإنك من المحتمل ألا تأخذ المقالة
كشيء مثل القيمة الظاهرية . وإذا لم يكن لديك سبب حقيقي أن
تشك في المصدر وبدلاً لك منطقياً بما فيه الكفاية ، فإنك من المحتمل
أن تدعه يقنعك . ستصنف وتميز ، ولكن سيكون هناك حاجة قليلة
للتصحيح . إن التصحيح يحتاج جهداً ، وليس لديك أي سبب
شخصي لتمارسه . قارن هذا بردة فعلك إذا كنت خصماً أو مؤيداً
عاطفياً لعقوبة الإعدام . في كلتا الحالتين ستنتبه عند مجرد ذكر
موضوع المقالة . ستقرؤها بحذر أكثر ، وستبذل الجهد اللازم
للتصحيح . ربما لا يكون التصحيح ذاته حين توافق كما حين
تعارض ، ففي الحقيقة ربما أنك ربما تبالغ في التصحيح حين تعارض
موضوع المقالة ذاهباً بذلك نحو الاتجاه المعارض . لكن أياً كانت
القضية ، سيكون اندماجك أكثر فعالية وستبذل الجهد الذهني
اللازم لتحدي انطباعاتك الأولية ، وذلك لأنه يهملك أن تقوم بالأمر
بالشكل الصحيح .

(لقد اخترت قضية سياسية عن قصد لأوضح أن المحتوى لا
يرتبط بالأشخاص بالضرورة ، ولكن فكر أي فرق في التصور
سيكون لو قابلت شخصاً عشوائياً للمرة الأولى مقارنة بمقابلة

شخص تعرفه وذلك من أجل مقابلتك أو تقييمك باختصار . في أي الحالتين من المحتمل أن تكون حذرًا بشأن انطباعاتك لثلاث تكون مخطئًا؟ وفي أي الحالتين ستبذل مزيدًا من الجهد للتصحيح (والمعايرة؟)

عندما تشعر باندماج شخصي قوي مع شيء ما ، فإنك تشعر بأنه يستحق تلك الدفعة الإضافية . وإذا كنت منخرطًا في العملية بنفسها - في فكرة الملاحظة بحذر أكبر وأن تكون أكثر يقظة وانتباهًا- فإن احتمالية تحدي نفسك من أجل الدقة تزداد . وبطبيعة الحال ، يجب أن تكون مدركًا للعملية لتبدأ بها ، ولكنك الآن كذلك . وماذا لو أدركت أن عليك المشاركة ولكنك لا تشعر بشعور جيد نحوها؟ لقد أمضى عالم النفس آري كرولانسكي حياته المهنية في دراسة ظاهرة تعرف بالحاجة إلى الإقفال ؛ وهي رغبة الدماغ في الوصول إلى نوع من المعرفة النهائية حول قضية ما والأبعد من استكشاف كيف يختلف الأفراد في تلك الحاجة ، وضح كرولانسكي أنه بإمكاننا توظيفها لنصبح أكثر انتباهًا واندماجًا ، ولنتأكد من أننا أنهينا مرحلة التصحيح في أحكامنا ويمكن إنجاز هذا الأمر بطرق عديدة ، أكثرها فعالية أننا إذا شعرنا بالمسؤولية في أحكامنا ، فإننا سنمضي وقتًا أطول ناظرين إلى العديد من الزوايا والاحتمالات قبل أن نتخذ قراراتنا ، وبالتالي سنوسع الجهد المبذول لأجل التصحيح فيما يتعلق بالانطباعات الأولية من أجل التحقق من دقتها . إن أدمغتنا لا تُغلق (أو كما قال كرولانسكي إنها لا تتجمد) في عملية بحثها حتى نكون على يقين تمامًا بأننا قمنا بأننا قمنا بكل ما باستطاعتنا . وبينما لا يوجد دائمًا مجرب ليقوم بمساءاتنا ، فإنه يمكننا القيام بالأمر بأنفسنا عن

طريق التعامل مع كل حكم او ملاحظة مهمة على أنها تحدي . ما مدى الدقة التي يمكن أن أصلها؟ ما مدى جودة ما يمكنني القيام به؟ هل يمكنني تحسين قدرتي على الانتباه؟ إن هكذا تحديات لا تعمل على إدماجنا في مهمة الملاحظة وتجعلها أكثر إثارة للاهتمام بشكل جوهري فحسب ، بل إنها تجعل أيضاً احتمالية توجيهنا المباشر نحو الاستنتاجات والحكم على القضايا دون فكرة مسبقة أقل حدوثاً .

إن المراقب النشط يتعرض للكثير من التشويش والإعاقات ، ذلك أنه يحاول القيام بالكثير من الأشياء في ذات الوقت . فإذا كان في تجربة نفسية اجتماعية وأجبر على تذكر سبعة مواضيع بالترتيب ، أو سلسلة من الأرقام ، أو أي عدد من الأشياء التي يفضل علماء النفس استخدامها من أجل ضمان الانشغال المعرفي ، فإنه محكوم عليه بالفشل ، لماذا؟ لأن التجارب تمنع الاندماج قسراً ، فليس بإمكانك الانخراط - ما لم تكن لديك ذاكرة تخيلية أو كنت قد قرأت على ذاكرتك هذه المهارات - إذا كنت تحاول تذكر معلومات غير ذات صلة (فعلياً ، حتى لو كانت المعلومات ذات صلة ، فإن مواردك تكون قد اندمجت في مكان آخر) .

لكن عندي أخبار لكم ؛ عن حياتنا ليست تجربة اجتماعية نفسية ، وليس مطلوب منا أن نكون مراقبين نشطين فلا أحد يطلب منا أن نتذكر محادثة بذات الترتيب أو أن نقوم بخطاب لسنا مدركين له مسبقاً . ولا أحد يجبرنا على حصر انخراطنا . إن من يقوم بكل ذلك هو نحن فقط بأنفسنا ، سواء أكان ذلك لأننا فقدنا الاهتمام كما فعل واتسون في قضية بيكرت ، أو لأننا مشغولون

جدًا بالتفكير في محاكمة أمام هيئة محلفين في المستقبل من أجل التركيز على الشخص في الحاضر ، كما واتسون ، فحين ننفصل عن شخص أو حالة فإننا نكون على صواب .

إننا حين نريد الاندماج ، صدقني ، يمكننا القيام بذلك . وبالتالي فإننا لن نرتكب أخطاء أقل في التصور فحسب ، بل إننا سنصبح أكثر تركيزًا ، ونصبح أيضًا أشخاصًا مراقبين كنا نظن أننا لن نصيرهم يومًا . وحتى الأطفال الذين تم تشخيصهم أنهم يعانون من قصور الانتباه وفرط الحركة ، فإنهم يمكن أن يجدوا أنفسهم قادرين على التركيز على أشياء محددة تلفت انتباههم ، وتحفز أدمغتهم وتعمل على إدماجها . وألعاب الفيديو مثال على ذلك ، حيث تثبت مع مرور الزمن قدرتها على استخراج الموارد الانتباهية من الأشخاص الذين لم يتوقعوا أنهم يملكونها أبدًا . والأكثر من ذلك أن نوع الانتباه المتواصل والتقدير المكتشف حديثًا للتفاصيل النابعة من عملية الاندماج يمكن أن تنتقل إلى أبعاد أخرى ما وراء الشاشة . فعلى سبيل المثال ، لقد وجد كل من الأخصائيين في علم الأعصاب الإدراكي دافني بافيلر وسي . شاون جرين أن ألعاب الفيديو المسماة بالنشطة -وهي ألعاب تتميز بالسرعة العالية والإدراك الحسي العالي والحمل المتحرك وتعذر التنبؤ والحاجة إلى معالجة هامشية- تحسن كلاً من الانتباه المرئي والمستوى البصري المنخفض وسرعة المعالجة والتحكم الانتباهي والإدراكي والاجتماعي وعددًا من المجالات الأخرى ضمن نطاقات متنوعة كتجريب طائرات بدون طيار وجراحة المناظير . يمكن للدماغ في الحقيقة أن يتغير ويتعلم الانتباه المتواصل بطريقة أكثر امتدادًا ، وكل ذلك بسبب لحظات من الاندماج بشيء يهم فعليًا .

لقد بدأنا الفصل بالحديث عن تخبط الدماغ ، وتلك هي النقطة التي سننهيه بها . إن تخبط الدماغ هو لعنة على المشاركة ، سواء أكان التخبط من نقص التحفيز (الرهبان البينديكتيون الذين واجهناهم في الفصل) أو تخبط من تعدد المهام (بشكل رئيسي يتمثل هذا في غالبية الوجود المعاصر) أو تخبط بسبب نموذج مختبري موجود لا يمكنه التعايش مع الاندماج ، لذلك لا يمكنه التعايش مع الانتباه الواعي وهو الانتباه الذي نحتاجه للملاحظة ومع ذلك فإننا دائماً ما نتخذ قرار الانفصال ؛ حيث أننا نستمع لسماعات الأذن الخاصة بنا بينما نمشي أو نركض أو نأخذ القطار . ونحن كذلك ونحن أيضاً نتفحص هواتفنا النقالة أثناء تناول العشاء مع الأصدقاء والعائلة ، ونحن كذلك نفكر في الاجتماع القادم بينما لا نزال في الاجتماع الحالي . باختصار ، إننا نشغل أدمغتنا بمواضيع الاستظهار ذاتية الصنع أو بسلاسل مشتتة من الأرقام . لا يتوجب على الدان جيلبرتين في هذا العالم أن يقوموا بذلك لنا . في الحقيقة ، لقد تتبع دان جيلبرت بنفسه مجموعة تزيد عن ٢٢٠٠ شاب في حياتهم اليومية من خلال إنذارات الآيفون طالباً منهم الحديث عن طبيعة شعورهم وما كانوا يفعلونه ، وفيما إذا كانوا يفكرون بشيء عدا عن النشاط الذي كانوا منخرطين فيه عندما استقبلوا الإنذار . أتعرف ما الذي وجدته؟ إن الأمر لا يقتصر على أن الناس يفكرون بشيء عدا ما يقومون به بشكل يشبه حين تفكيرهم بما يقومون به - وهو ٤٦,٩ ٪ من الوقت لنكون دقيقين-ولكن ما يقومون به لا يصنع فرقاً ، فالأدمغة تتخبط تقريباً بغض النظر عن إذا ما كان النشاط ممتعاً ومساعداً على الاندماج أو مملأً

إن الدماغ المراقب والمنتبه هو دماغ حاضر . إنه دماغ ليس متخبطاً وهو منخرط بفعالية بكل ما يحدث . وهو أيضاً دماغ يسمح لنظام هولمز بأن يزداد بدلاً من جعل نظام واتسون أن يلف ويدور كالمجنون محاولاً أن يقوم بكل شيء وأن يرى كل شيء .

إنني أعرف بروفيسورة في علم النفس تقوم بإغلاق بريدها الالكترونية والوصول إلى الإنترنت لمدة ساعتين يوميًا من أجل التركيز على كتاباتها . أعتقد أن هناك الكثير مما يمكن تعلمه من ذلك الانضباط الذاتي القسري والمسافة . إنه بالطبع منهج أتمنى لو أطبقه بشكل أكبر . وهنا يجب الأخذ بعين الاعتبار نتائج تدخل طبيعى حديث قام به عالم أعصاب أراد توضيح ما يمكن أن يحدث لو أن الناس أخذوا ثلاثة أيام ليكونوا لا سلكيين تمامًا في البرية ، حيث وجد الإبداع ووضوح الأفكار وإعادة تشغيل لمستويات من مستويات الدماغ . إننا لا نستطيع جميعًا تحمل رحلة برية لثلاثة أيام ، لكن ربما يمكننا تحمل ساعات قليلة هنا وهناك حيث يمكننا اتخاذ قرار واعٍ ، وهو التركيز .

الفصل الرابع استكشاف عليّة الدماغ

أهمية الإبداع والتخيل

يستيقظ محام شاب يدعى جون هكتر ماكفرلين ذات صباح ليجد حياته قد قلبت رأساً على عقب ؛ فقد أصبح خلال الليل أكثر شخص مشتبه به في جريمة قتل عامل بناء محلي . بالكاد كان لدبه وقت ليصل شارلوك هولمز من أجل إخباره بقصته قبل أن يتم اقتياده إلى مقر جهاز الشرطة ، وكان الدليل ضده مديناً للغاية وكما شرح لهولمز قبل أن يتم اقتياده ، فقد التقى بالضحية وهو جوناك أولديكر للمرة الأولى في ظهيرة اليوم السابق . حيث كان الرجل قد وصل إلى مكتب ماكفرلين وطلب منه أن يكتب وصيته ويشهد عليها . وما فاجئ السيد ماكفرلين ، أنه ترك له ملكية البناء . لقد كان بلا أطفال ووحيداً كما يوضح أولديكر ، وذات مرة عرف والدي ماكفرلين جيداً ، وأراد أن يحيي ذكرى الصداقة مع الورثة ، لكنه يقول بأن السيد ماكفرلين لم يكن لينبس بكلمة لعائلته حتى اليوم التالي ، وكانت تلك لتكون مفاجأة .

في ذلك المساء طلب البناء من المحامي أن ينضم له لتناول العشاء ، فلربما يستعرضا بعض الوثائق المهمة الخاصة بالعقار ، فكان السيد ماكفرلين مجبراً على قبول ذلك العرض حتى تحدثت الصحف في صبيحة اليوم التالي عن موت أولادكر واحتراق جثته

في ساحة الأخشاب الخلفية في منزله . إن المشتبه الأكثر احتمالية هو الشاب جون هكتور ماكفرلين الذي لم يكن واقفًا للحصول على تركة الميت فحسب ، بل إنه أيضاً ترك عصا المشي الخاصة به في مسرح الجريمة .

لقد تم إلقاء القبض على ماكفرلين بشكل موجز ودون محاكمة على يد المفتش ليستر يد تاركًا هولمز مع قصته الغريبة . ورغم أن عملية إلقاء القبض تبدو منطقية - الميراث والعصا والزيارة الليلية وكل المؤشرات التي تشير إلى تورط ماكفرلين - . إن هولمز لا يستطيع إلا وأن يشعر بأن شيئًا ما موضوع جانبا . ويخبر هولمز واتسون قائلاً : «أعرف بأن الأمر برمته خطأ ، وأنا على يقين من ذلك ، وأشعر به في عظامي» .

لكن عظام هولمز في هذا المثال تتجه ضد رجحان الأدلة . وبقدر اهتمام الشرطة البريطانية بالموضوع ، فالقضية أقرب إلى الإغلاق مع قدومهم . وكل ما تبقى هو وضع اللمسات الأخيرة على تقرير الشرطة . عندما يصر هولمز على أن كل شيء ليس واضحًا بعد ، فإن المفتش ليستر يد يشير الاختلاف ويتدخل قائلاً : «غير واضح؟ حسنًا ، إذا لم يكن ذلك واضحًا فما هو الواضح؟»

«هنا رجل شاب يعلم فجأة بأنه إذا توفي رجل محدد أكبر منه عمراً فإنه سينجح في الحصول على ثروة . فما الذي يفعله؟ إنه لا يقول أي شيء لأي أحد ، لكنه يرتب للخروج لذريعة ما وذلك من أجل رؤية موكله في تلك الليلة . ينتظر حتى يخلد الشخص الآخر الوحيد في المنزل إلى النوم ، ثم يقتله في خلوته في غرفته ويحرق جثته في الحطب ، ثم يغادر إلى فندق مجاور»

وإذا لم يكن هذا كافيًا فهناك المزيد «بقع الدماء في الغرفة

وعلى العصا خفيفة جداً . من المحتمل أنه تصور جريمته لتكون غير دموية ، وتمنى لو أن الجثة امتصت كل الدماء لإخفاء كافة آثار طريقة موته . هذه الآثار التي لا بد وأنها تشير إليه لسبب أو لآخر ، فأليس كل هذا واضحاً؟»

يظل هولمز غير مقتنع ، فيخبر المفتش قائلاً :

«إنه يفاجئني عزيزي ليستريد باعتباره أمراً واضحاً جداً . إنك لا تضيف الخيال إلى ميزاتك العظيمة الأخرى ، ولكن إذا استطعت وضع نفسك للحظة مكان هذا الرجل الشاب ، فهل كنت ستختار الليل بالذات بعد أن عقدت الإرادة على ارتكاب جريمتك؟ ألم يكن الأمر ليبدو خطيراً بالنسبة لك لتجعل العلاقة خطيرة جداً بين الحادثتين؟ مرة أخرى ، هل كنت ستختار مناسبة حيث يُعرف بأنك متواجد في المنزل حين سمح لك الخادم بالدخول؟ وأخيراً ، هل كنت ستأخذ الألام العظيمة لتخفي الجثة وتترك عصاك كإشارة على أنك المجرم؟ اعترف يا ليستريد بأن كل هذا غير محتمل» .

لكن ليستريد يهز كتفيه فجأة . ما علاقة الخيال بهذا؟ فالملاحظة والاستنتاج مرتكزان أساسيان لعمل المباحث ، ولكن ماذا بالنسبة للخيال؟ أليس ذلك مجرد تراجع واهٍ لأقل المهن صعوبة ذهنياً والمهن العلمية ؛ أولئك الفنيين الذين لا يمكن أن يكونوا بعبيدين عن الشرطة البريطانية؟

إن ليستريد لا يفهم كم هو مخطئ ، وكم أن دور التخيل مركزي ليس بالنسبة للمفتش الناجح أو المحقق فحسب ، ولكن بالنسبة لأي شخص يريد الإبقاء على نفسه على أنه مفكر ناجح . ولو كان سيستمع إلى هولمز لحصول على مزيد من المؤشرات بما

يخص هوية المشتبه به أو خط القضية التي تتم دراستها ، فإنه كان سيجد أنه ربما لديه أقل حاجة للتحويل له في المستقبل . فالخيال إذا لم يدخل إلى الصورة -ويفعل ذلك قبل حدوث أي استنتاج- فإن كل تلك الملاحظات وكل ذلك الفهم للفصول السابقة سيكون له قيمة أقل بالتالي .

إن التخيل هو الخطوة القادمة اللاحقة في عملية التفكير . إنه يستخدم لبنات البناء لكل الملاحظات التي قمت بجمعها من أجل إنشاء المادة التي يمكن أن تخدم لاحقاً على أنها قاعدة صلبة للاستنتاج المستقبلي سواء أكان ذلك بالنسبة لأحداث ذلك المساء في نوروود عندما لقي جوناس أولديكر حتفه أو حل مشكلة مزعجة كانت تزعجك في المنزل أو العمل كنت تعتقد أن بإمكانك تجاوزها ، وهي شيء غير علمي وتافه ، فستجد نفسك تضيع الكثير من الجهود فقط من أجل الوصول إلى استنتاج بأن الأمر يقدر ما يبدو جلياً لك ، فلا يمكن أن يكون بعيداً عن الحقيقة

بما هو التخيل؟ ولماذا يعد مهماً جداً؟ ولماذا من بين كل الأشياء التي يذكرها لليستريد يركز هولمز على هذه الميزة بالذات ، وما الذي تقوم به في شيء كالمنهج العلمي للدماغ؟

إن ليستريد ليس أول من رفض فكرة أن التخيل يلعب دوراً في التفكير العلمي الجيد ، ولا هولمز وحيداً في إصراره على العكس واحد من أعظم المفكرين العلميين في القرن العشرين والفائز بجائزة نوبل وهو عالم الفيزياء ريتشارد فاينمان كثيراً ما عبر عن دهشته من نقص التقدير لما كان يعتقد بأنه ميزة رئيسية في كل من التفكير والعلوم ، حيث تحدث إلى جمهوره ذات مرة قائلاً : «إنه من المفاجئ بمكان أن الناس لا يصدقون بأن هناك تخيلاً في العلوم»

وهذا الرأي ليس خطأً واضحاً فحسب ، بل «إنه نوع ممتع جداً من التخيل ليس كتخيل الفنانين . إن الصعوبة الكبيرة تتمثل في محاولة تخيل شيء لم يسبق لك وأن شاهدته ، وذلك يختلف عما كان يُعتقد ، وعلاوة على ذلك يجب أن يكون واضحاً وليس اقتراحاً غامضاً ، وذلك في الواقع أمر صعب» .

من الصعب بمكان العثور على خلاصة أفضل وتعريف لدور التخيل في عملية التفكير العلمي . إن التخيل يأخذ مواد الملاحظة والتجربة ويعيد توحيدها لتصبح شيئاً جديداً . وبفعل ذلك فإنه يمهّد الطريق للاستنتاج ؛ الغرابة من خلال بدائل تخيلية من أجل اتخاذ قرار حول أفضل الاحتمالات التي اتخذتها شرحاً لكافة الحقائق؟

إنك بالتخيل تخرج إلى حيز الوجود شيئاً فرضياً ؛ شيئاً ربما يوجد أو لا يوجد في الواقع ولكنك أنشأته بفعالية في دماغك . وبالتالي فإن ما تتخيله «يختلف عما تم التفكير به» . إنه ليس إعادة صياغة للحقائق ، ولا خط بسيط من «أ» إلى «ب» يمكن رسمه دون الكثير من التفكير . إنه تركيبتك الخاصة وأحداثك . فكر في التخيل كنوع من الفضاء العقلي المهم في عليّة دماغك حيث لديك الحرية للعمل مع العديد من المحتويات ، ولكن لا يتوجب عليك الالتزام بأي تخزين أو نظام تنظيمي ، وحيث يمكنك الانتقال والدمج وإعادة الدمج والتجول بإرادتك دون الخوف من الإخلال بالترتيب الأساسي للعلية أو نظافتها بأي شكل من الأشكال .

إن ذلك الفراغ ضروري لأنه لا توجد عليّة وظيفية للدماغ بدونّه . فلا يمكن أن يوجد مساحة تخزينية مملوءة حتى الحافة بالصناديق ، وإلا كيف كنت ستدخل؟ وأين كنت ستسحب

الصناديق لتجد ما تريده؟ وكيف كنت سترى الصناديق المتوفرة وأين ربما تتواجد؟ إنك تحتاج فراغاً وضوءاً وأن تكون قادراً على الوصول إلى محتويات علية دماغك ، والمشي داخلاً والبحث حولك لرؤية المحتوى .

وضمن ذلك الفراغ توجد حرية ، حيث يمكنك وضع كافة الملاحظات التي قمت بجمعها هناك مؤقتاً لأنك لم تضعها في ملفات بعيداً أو في المساحة التخزينية الدائمة لعلية دماغك ، وبدلاً من ذلك أنت تضعها في مكان يمكنك رؤيتها فيه ، ومن ثم التجول حولها . ما هي الأنماط الناتجة؟ وهل يمكن إضافة شيء من ذاكرة التخزين الدائمة للحصول على صورة مختلفة ؛ أي شيء منطقي؟ إنك تقف في ذلك الفضاء المفتوح وتستكشف ما قمت بتجميعه . إنك تسحب عناصر مختلفة خارجاً ، وتحاول عمك ارتباطات مختلفة ، وترى ما الذي ينجح وما الذي لا ينجح ، وما الذي يبدو صحيحاً وما الذي لا يبدو كذلك . وبالتالي فإنك تخرج بشيء لا يشبه الحقائق والملاحظات التي تم تغذيتها بها . صحيح ان جذوره متأصلة بها ، ولكنه الشيء الفريد من نوعه والذي يوجد فقط في تلك الحالة الافتراضية للدماغ والتي ربما تكون صحيحة وحقيقية أو لا تكون .

لكن ذلك الإحداث لا يأتي فجأة ، فهو مؤسس في الواقع ، ويستند على كل تلك الملاحظات التي قمت بتجميعها حتى اللحظة «ومنسجم بكل التفاصيل مع ما تمت رؤيته فعلياً» . بكلمات أخرى ، إنه يتزايد عضويًا من تلك المحتويات التي قمت بتجميعها في علية دماغك من خلال عملية الملاحظة ممزوجًا مع تلك المكونات التي كانت دائماً هناك ، وقاعدتك المعرفية وفهمك

للعالم . ويصوغ فينمان هذا كالتالي : «التخيل في قيود مشددة» .
بالنسبة له ، القيود هي قوانين الفيزياء . أما بالنسبة لهولز فهو أساساً
نفس الشيء ؛ أي قاعدة المعرفة والملاحظة التي اكتسبتها حتى
الوقت الحالي . وهو ليس نزوة على الإطلاق ؛ فلا يمكنك التفكير
بالتخيل في هذا السياق على أنه شيء مطابق لإبداع كاتب الخيال
أو الفنان ، إنه لا يمكن أن يكون كذلك على الإطلاق . أولاً لسبب
بسيط يتمثل في أنه مؤسس في الواقع الفعلي الذي بنيته ، وثانياً
لأنه «يجب أن يكون اقتراحاً محدداً وليس غامضاً» . يجب أن
تكون تخيلاتك صلبة ومفصلة وليس لها وجود في الواقع ، لكن
جوهرها يجب أن يكون بطريقة تجعلها تقفز نظرياً من رأسك إلى
العالم مباشرة مع تعديلات بسيطة . بالنسبة لفينمان ، إنها في
مأزق - أو حسب مصطلح هولز فهي محصورة ومحددة من قبل
علية دماغك . إن تخيلاتك يجب أن تستخدمها كقاعدها ، ويجب
أن تقوم بأدوارها-وتلك الأدوار تتضمن الملاحظات التي قمت
بتجميعها باجتهاد كبير . ويتابع فينمان : «إن اللعبة هي محاولة
اكتشاف ما نعرفه ، وما هو الممكن . وهي تتطلب تحليلاً مسبقاً
وفحص فيما إذا كانت مناسبة . إنها مسموحة بناء على ما هو
معروف»

وفي تلك العبارة يكمن الجزء الأخير من التعريف . أجل ،
يجب أن ينبع التخيل من قاعدة في المعرفة الحقيقية الصلبة ، ومن
صلابة وخصوصية عليية دماغك . وأجل ، إنها تخدم هدفاً أعظم ؛
أي الإعداد للاستنتاج ، سواء أكان لحقيقة علمية ، أو حلاً لجريمة ،
أو قراراً أو مشكلة في حياتك الشخصية بعيدة عن كلا الأمرين .
وفي كل هذه الأمثلة يجب أن تتعامل مع محددات معينة . لكنها

حرة أيضاً وفيها متعة . وهي بكلمات أخرى لعبة . إنها الجزء الأكثر مرحاً من مسعى جدي . لم ينطق هولمز بجمله «اللعبة جارية» في أسطر افتتاح «مغامرة مزرعة الدير» من فراغ . فتلك الجملة البسيطة لا تعرب عن شغفه وإثارته فحسب ، بل عن نهجه في فن التحري ، وبشكل أكثر عمومية ، في التفكير : إنه أمر جدي بالتالي ، لكنه لا يفقد أبداً عنصر التمثيل الذي يعد عنصراً مهماً وبدونه لا ينجح أي جهد جدي .

إننا نميل في التفكير بالإبداع على أنه كل شيء أو لا شيء ؛ أن تملكه أو لا تملكه سمة من سمات الدماغ ، لكن ذلك لا يمكن أن يكون بعيداً عن الحقيقة . حيث يمكن تدريس الإبداع كأى عضلة أخرى - الانتباه والتحكم بالذات-والتي يمكن ممارستها وأن تنمو بشكل أقوى مع الاستخدام والتدريب والتركيز والتحفيز . في الحقيقة ، لقد أظهرت دراسات أن الإبداع سلس وبأن التدريب يمكن الناس من أن يصبحوا أكثر إبداعاً . فإذا كنت تعتقد أن خيالك يمكن أن ينمو مع الممارسة ، فإنك ستصبح أفضل في المساعي الخيالية (وهنا مرة أخرى تبرز الحاجة الملحة للتحفيز) . والاعتقاد بأن بإمكانك أن تكون مبدعاً مثل أفضلهم ، وتعلم المكونات الرئيسية للإبداع ضروري لتحسين قدرتك العامة على التفكير واتخاذ القرار والتصرف بطريقة ستلاءم هولمز أكثر من واتسون أو ليستريد .

إننا نستكشف هنا ذلك الفراغ الدماغى ، وتلك المرحلة للتجميع ، وإعادة الدمج والفتنة . ذلك الميدان خفيف الظل بشكل مخادع والذي سيسمح لهولمز بحل قضية بناء نوروود .

تعلم التغلب على الشكوك الخيالية

تصور التالي : تم اقتيادك إلى غرفة فيها طاولة ، وعلى الطاولة ثلاثة أشياء علبة مسامير ، وعلبة من أعواد الثقاب وشمعة . وتم إخبارك بأن عليك القيام بمهمة واحدة ، أن تلتصق الشمعة بالجدار ، ويمكنك استخدام الوقت الذي تريده ، فكيف ستتقدم بالمهمة؟

إذا كنت مثل ما يزيد عن ٧٥٪ من المشاركين في الدراسة الكلاسيكية الآن والتي قام بها عالم النفس الغشتالتي كارل دانكر ، فإنك من المحتمل أن تحاول واحدًا من اثنين . ربما تحاول تثبيت الشمعة على الجدار ، لكنك سرعان ما تجد تلك الطريقة غير ذات جدوى . أو أنك ربما تحاول إشعال الشمعة واستخدام الشمع المتساقط منها لإصاقها بالجدار (وربما تظن أن علبة المسامير ستشتت انتباهك) . مرة أخرى ، ستفشل . فالشمع ليس قويًا بما فيه الكفاية لتثبيت الشمعة ، وطريقتك ستنهار . ماذا الآن؟

من أجل الوصول إلى الحل الحقيقي ، فإنك تحتاج إلى بعض الخيال لا أحد يجد الحل مباشرة ، فبعض الناس يجدونه بعد دقيقة أو اثنتين من التفكير ، بينما يجده آخرون بعد التعثر في العديد من المحاولات الفاشلة . ويفشل آخرون في الوصول إلى حل بدون مساعدة خارجية . أما الإجابة فهي كالتالي : أخرج المسامير من العلبة وألصقها بالجدار وأشعل الشمعة . قم بتنعيم الجزء السفلي من الشمعة بعود كبير حتى يبدأ الشمع بالتنقيط في العلبة ، وضع الشمعة داخل العلبة على رأس المسند الناعم للشمعة

لماذا لا يرى الكثيرون ذلك الحل البديل؟ إنهم ينسون أنه بين الملاحظة والاستنتاج تكمن لحظة ذهنية مهمة . وهم يسلكون طريق

نظام واتسون - إجراء ، إجراء ، إجراء - مستخفين بالحاجة الماسة للعكس تمامًا ، وهي لحظة من التأمل الهادئ . لذا فإنهم يتوجهون مباشرة وعن فهم إلى أكثر الحلول طبيعية أو وضوحًا . إن غالبية الناس في هذه الحالة لا يرون ذلك الشيء بوضوح - علة المسامير - ربما تكون فعليًا أقل وضوحًا : صندوق ومسامير .

يعرف هذا بالرسوخ الوظيفي . فنحن نميل إلى رؤية الأشياء بالطريقة التي تظهر بها بوصفها تخدم وظيفة محددة تم تعيينها بالفعل . إن الصندوق والمسامير متلازمان كصندوق مسامير . إن الصندوق يحتوي المسامير ولا وظيفة أخرى له . ولتتجاوز ذلك وتفصل الشيء إلى مكونين ، ولتدرك أن الصندوق وأعواد الثقاب شيئين مختلفين .

في الواقع ، في متابعات للدراسة الأصلية لدونكر ، أظهرت إحدى التجارب أنه إذا عندما تم تقديم الأجسام بشكل منفصل ، مع وضع المسامير إلى جانب العلة ، ارتفعت نسبة الأشخاص الذين حلوا المشكلة بشكل ملحوظ . ويمكن قول الشيء نفسه بتعديل لغوي بسيط كالتالي : لو كان المشاركون مزودون ، قبل مواجهة مشكلة الشمعة ، بسلسلة من الكلمات المربوطة بـ«و» بدلاً من «من» ، كما في «صندوق ومسامير» لكانوا أكثر احتمالية لمعرفة الحل . وحتى ولو تم وضع خطوط تحت الكلمات بشكل منفصل كخمسة بنود (شمعة ، علة من أعواد الثقاب ، صندوق من المسامير) ، فإن المشاركين كانوا على الأغلب سيتمكنون من حل المشكلة .

لكن المشكلة الأصلية تتطلب بعض التفكير ، وابتعاد عن الشيء الواضح دون أية مساعدة خارجية . إن الأمر ليس ببساطة

النظر إلى كل شيء لاحظته والتصرف مباشرة أو محاولة استنتاج السيناريو الأكثر احتمالاً والذي سيلبي هدفك . أولئك الأشخاص الذين تمكنوا من حلها عرفوا أهمية عدم التصرف ، والسماح لأدمغتهم باستيعاب الحالة ومنحها بعض التفكير الداخلي الهادئ . باختصار ، لقد أدركوا أنه بين الملاحظة والاستنتاج تكمن خطوة حاسمة ولا غنى عنها من التخيل .

من السهل رؤية شارلوك هولمز على أنه آلة استدلال صعبة وباردة ، أي صورة مصغرة عن حساب المنطق . لكن وجهة النظر تلك حول شارلوك هولمز الآلي المنطقي لا يمكن أن تكون بعيدة عن الحقيقة ، بل على العكس تمامًا ، فما يجعل هولمز على ما هو عليه وما يجعله يتفوق على المفتشين والمحققين والمدنيين الآخرين هو رغبته في الانخراط في اللاخطية ، واحتضان النظري ، وترفيه التخمين ، إنها مقدرته على التفكير الإبداعي والانعكاس الخيالي . لماذا نميل إذن لتفويت هذه الليونة ، وهي تقريبًا الجانب الفني ، والتركيز بدلاً من ذلك على طاقات المحقق التي تشبه طاقات الحاسوب في الحساب العقلاني؟ ببساطة ، إن وجهة النظر تلك أكثر سهولة وأمانًا . إنها خط من التفكير متأصلة جيدًا في سيكولوجيتنا . وقد تم تدريبنا عليها منذ عمر مبكر ، وكما يقول ألبرت أينشتاين : «إن الدماغ الحدسي هدية مقدسة والعقل الرشيد خادم مخلص . لقد أنشأنا مجتمعًا يكرم الخادم ونسي الهدية» . إننا نعيش في مجتمع يمجّد نموذج الحاسوب ، ويؤله هولمز اللاإنساني ، ويمكنه أن يأخذ عددًا لا يحصى من نقاط البيانات على أنها أمر مفروغ منه ، ويحللها بدقة مذهلة ، ويخرج بحل . إنه مجتمع يولي اهتمامًا قليلًا بشيء غير قابل للقياس كالخيال .

لكن انتظر . ربما تظن أن ذلك زائف تماماً . إننا أيضاً نزهدهر على فكرة الابتكار والإبداع . إننا نعيش في عصر أصحاب الأفكار ، وفي عصر ستيف جوبز وشعار «فكر بشكل مختلف» . حسناً ، نعم ولا . إننا نقدر الإبداع عند القشور ، ولكن في صميم قلوبنا يمكن للتخيل أن يخيفنا كما يفعل الجنون .

كقاعدة عامة ، إننا لا نحب عدم اليقين ، فهو يجعلنا نشعر بعد الارتياح . بينما العالم المؤكد هو مكان أكثر وداً . وبالتالي فإننا نعمل بجد لتقليص أي عدم يقين يمكننا تقليصه ، عادة عن طريق القيام بخيارات اعتيادية وعملية تحمي الوضع الراهن . أتعرف المثل القائل : «ذاك الشيطان الذي تعرفه يظل أفضل»؟ إنه ملخص الحالة

من الناحية الأخرى ، يتطلب الإبداع الحداثة ، والخيال هو إمكانات جديدة واحتمالات لا توجد ومناقضات وإعادة دمج للعناصر بطرق جديدة . إنه يتعلق بغير المختبر ، وغير المختبر غير مؤكد . وهو مخيف ، حتى ولو لم نكن مدركين للقدر الذي يخيفنا به شخصياً . وهو أيضاً ربما يكون محرّجاً (فبعد كل شيء ، ليس هناك أي ضمان للنجاح) . لماذا تعتقد أن مفتشي كونان دويل ينفرون دائماً من الابتعاد عن البروتوكولات القياسية ويقومون بأي شيء ربما في نهاية الأمر يهدد تحقيقاتهم أو يؤخرها حتى ولو للحظة؟ إن خيال هولمز يخيفهم .

فكر في مفارقة مشتركة ؛ وهي أن صناع القرار على المستويات الشخصية والمؤسسية عادة ما يرفضون الأفكار الإبداعية حتى حين يقولون بصراحة أن الإبداع هدف مهم وأحياناً مركزي . لماذا؟ لقد أوضح بحث جديد أنه ربما يكون لدينا تحيز عن غير وعي ضد

الأفكار الإبداعية كذلك الذي نحمله في قضايا التمييز العنصري أو الرهاب .

أتذكر اختبار رابطة الضمنية والتي أتينا على ذكره في الفصل الثاني؟ في سلسلة من الدراسات ، قررت جينيفر مولر وزملاؤها تعديله لشيء لم يسبق وأن ظهرت حاجة لاختباره ؛ ألا وهو الإبداع . كان على المشاركين تكملة نفس التصنيف الزوجي جيد وسيء كما في اختبار الرابطة الضمنية المعياري ، هذه المرة مع كلمتين وضحتا موقفاً كان إما عملياً (وظيفياً ، بناءً أو مفيداً) أو إبداعياً (رواية ، ابتكار أو شيء أصلي) . أشارت النتيجة إلى أنه حتى أولئك الناس صنّفوا الإبداع بوضوح على درجات مرتفعة من قائمة ميزاتهم الإيجابية قد أظهروا تحيزاً واضحاً ضد علاقتها بالناحية العملية تحت ظروف من عدم التحقق . والأكثر من ذلك أنهم أيضاً أنهم صنّفوا فكرة تم اختبارها مسبقاً على أنها إبداعية (على سبيل المثال ، حذاء ركض يستخدم تكنولوجيا النانو من أجل تعديل سمك النسيج لتبريد القدم وتقليل البثور) على أنها أقل إبداعاً من نظرائهم الأكثر تحقّقاً . لذا فإنهم لم يكونوا متحيزين بوضوح فحسب ، بل إنهم أظهروا فشلاً في رؤية الإبداع على ما كان عليه حين واجهوه .

من الصحيح بمكان أن ذلك التأثير شوهد فقط في حالات عدم اليقين ، لكن ألا يصف ذلك معظم بيئات صنع القرار؟ إنه ينطبق حتماً على عمل التحري والشركات والعلوم والأعمال ، وبشكل رئيسي على أي شيء آخر يمكن أن تفكر به .

لقد تجاوز المفكرون العظماء الجانب الأكثر صعوبة ، وهو ذلك الخوف من الباطل . لقد كان لا ينشأتين بعض الأخطاء ، وكذلك

الأمر بالنسبة لأبراهام لينكولن والذي ربما يعد واحدًا من القلائل الذين ذهبوا على الحرب على أنهم ضباط وعادوا أفراداً عاديين ، والذين ساروا مرتين إلى الإفلاس قبل افتراض الرئاسة . وكذلك الأمر بالنسبة لوالث ديزني الذي تم طرده من جريدة بسبب «نقص الخيال» لديه (المفارقة الإبداعية ، إذا كانت موجودة ، بكامل قوتها) . وكذلك فعل توماس أديسون الذي حاول أكثر من ألف مرة قبل أن ينجح في اختراع مصباح كهربائي سليم . وكذلك فعل شارلوك هولمز (أيرين أدلر ، أي واحد؟ الرجل صاحب الشفة الملتوية؟ أو ماذا عن ذلك الوجه الأصفر الذي سنعود له بالتفصيل لاحقاً؟)

إن ما يميزهم ليس نقص الفشل ، بل نقص الخوف من الفشل ، وهي مصارحة تعد السمة المميزة للعقل المبدع . ربما كان لديهم نفس التحيز ضد الإبداع كما غالبيتنا عند نقطة معينة في حياتنا ، لكن بطريقة أو أخرى ، لقد نجحوا في إجباره على الخضوع . يتوفر لدى شارلوك هولمز عنصر واحد يفتقده الحاسوب ، وهو ذلك العنصر الذي يجعله على ما هو عليه ويضعف صورة المخبر على أنها ليست أكثر من شيء منطقي بامتياز: التخيل .

من لم يصرف النظر عن مشكلة لأنه لا يوجد حل واضح يقدم نفسه مباشرة؟ وأينا لم يتخذ قرارًا خاطئًا أو توجهًا خاطئًا لأنه لم يتوقف للتفكير بأن الواضح يمكن أن يكون ساذجًا . ومن لم يستمر في إعداد أقل من المثالي فقط لأن تلك هي الطريقة التي كانت تجري عليها الأمور دائمًا ، ورغم أن تلك هي الطريقة التي كانت تتم بها الأمور دائمًا ، ورغم أنه ربما تكون هناك طرق أفضل ربما تنفصل من المجرب والحقيقي ، يبقى ما تعرفه أفضل .

إن خوفنا من عدم اليقين يبقينا في حالة من الاختيار حول

متى سننجز بشكل أفضل لمرافق هولمز في إحدى جولاته التخيلية ، ونقوم بسيناريوهات توجد -على الأقل حاليًا- في أدمغتنا فقط . فأينشتاين لم يكن يملك سوى الحدس ليستمر به عندما اقترح نظريته الكبرى وهي نظرية النسبة العامة . عندما سأله جورج سلفستر فيريك عام ١٩٢٩ فيما إذا كانت اكتشافاته نتيجة الحدس أو الإلهام ، أجاب أينشتاين قائلاً : «أنا فنان بما فيه الكفاية لأستفيد من خيالي والذي اعتبره أكثر أهمية من المعرفة ، فالمعرفة محصورة بينما الخيال يحيط بالعالم» . فإذا ما غاب الخيال ، كان العلماء سيعلقون في يقين الخطية وما يسهل الوصول إليه .

الأكثر من ذلك أن العديد من المشاكل ليس لها حلاً واضحاً لتنتقل له . ففي حالة سر نوروود ، كان لدى ليستر يد قصة جاهزة ومشتبه به . لكن ماذا لو أن ذلك لم يكن؟ ماذا لو لم يكن هناك سرد خطي ، وكانت الطريقة الوحيدة للحصول على الحل من خلال أحاديث افتراضية مواربة للدماغ؟ (حالة مشابهة تظهر في «وادي الخوف» وذلك عندما لم تكن الضحية من بدت أنها كذلك على الإطلاق ، وكذلك المنزل . إن نقص الخيال في تلك الحالة يعادل نقص الحل) . وفي عالم بعيد عن المحققين والمفتشين وعمال البناء ، ماذا لو لم يكن هناك مسار عمل واضح أو آفاق رومانسية أفضل أو اختياراً من شأنه أن يجعلنا أكثر سعادة؟ ماذا لو كان الحل بدلاً من ذلك يتطلب البحث وبعض استكشاف الذات؟ قلة هم من سيستبدلون شراً معروفاً بآخر غير معروف ، وقلة سيستبدلونه بالاشيء على الإطلاق .

بدون الخيال لن نكون قادرين أبداً على الوصول إلى أعلى مستويات التفكير التي يمكننا الوصول إليها ، وسيكون مصيرنا في

أحسن الحالات أن نصبح جيدين جداً في استرجاع التفاصيل والحقائق ، ولكننا سنجد من الصعب بمكان استخدام تلك الحقائق بأية طريقة من شأنها تحسين أحكامنا واتخاذ قراراتنا . لدينا عليه دماغ تتكدس فيها صناديق مرتبة بشكل جميل إضافة إلى عدد من المجلدات والمواد . ولن نعرف من أين نبدأ بالانتقال من خلالها جميعاً . وبدلاً من ذلك سيكون علينا أن نعبر من خلال هذه الأكوام مراراً وتكراراً . وهنا ربما نجد المنهج الصحيح وربما لا نفعل ولكن ماذا لو لم يكن العنصر الصحيح موجوداً هناك لأخذه ولكنه سيأتي من ملفين مختلفين أو حتى ثلاثة؟ حظاً سعيداً لنا

لنعد للحظة لقضية عامل نورود . لماذا لا يستطيع ليستر يد بسبب نقص الخيال الاقتراب من حل اللغز وبالتالي يوشك على الحكم على شخص بريء؟ ما الذي يقدمه الخيال هنا والذي لا يستطيع تقديمه التحليل المباشر؟ إن كلاً من المفتش والمحقق بإمكانهما الوصول إلى ذات المعلومات ، وليس لدى هولمز معرفة سرية من شأنها أن تمكنه من رؤية شيء لا يراه ليستر يد ، أو على الأقل أي معرفة لم يستطع ليستر يد أيضاً تطبيقها بسهولة في ذات الطريقة . لم يختر الرجلان استخدام عناصر مختلفة من معرفتهما المشتركة فحسب ، لكنهما يوضحان لاحقاً ما الذي يعرفانه في أضواء مختلفة تماماً . يتبع ليستر يد المنهج المباشر ، بينما يتبع شارلوك منهجاً أكثر تخيلاً لا يراه المفتش ممكناً أصلاً .

في بداية التحري ، يبدأ هولمز وليستر يد من ذات النقطة بينما يطرح جون هكتر ماكفرلين بيانه كاملاً في حضورهما المشترك . في الحقيقة ، لدى ليستر يد ميزة ما تتمثل في أنه كان في مشهد الجريمة ، بينما هولمز يسمع عنها الآن للمرة الأولى ، وعلى الفور

يتباعد منهجيهما . عندما يسأل ليستر يد هولمز فيما إذا كان لديه المزيد من الأسئلة وذلك قبيل القبض على ماكفرلين واقتياده ، يجيب هولمز : «ليس قبل أن أذهب إلى بلاكهيث» بلاكهيث؟ لكن الجريمة حدثت في نوروود . فيصحح ليستر يد هولمز قائلاً : «أنت تعني نوروود» فيرد هولمز : «نعم ، لا شك أن ذلك ما قصدته» بالطبع أقصد بلاكهيث ، منزل والدي السيد ماكفرلين غير المحظوظ . يتساءل واتسون كما فعل ليستر يد مسبقاً : «ولماذا ليس نوروود؟»

يجيب هولمز : «لأن لدينا في هذه القضية حادثة فريدة تقترب من أعقاب حادثة فريدة أخرى . إن الشرطة ترتكب خطأ تركيز انتباهها على الثانية لأنها المذنبه حقاً» .

إن هولمز خائب الظن في رحلته ، حيث يخبر واتسون لدى عودته قائلاً : «لقد حاولت طريقاً أو اثنتين ، ولكنني لم أستطع الوصول لشيء من شأنه دعم فرضيتنا . لقد تركتها في النهاية وذهبت إلى نوروود» . ولكن كما سنرى قريباً ، لم تتم إضاعة الوقت ولم يفكر هولمز أصلاً في أنه قد تمت إضاعته . ذلك لأنك لا تعرف أبداً كيف ستتكشف الأحداث الأكثر مباشرة بمجرد أن تستخدم فضاء تلك العلية من الخيال لأقصى درجة ممكنة . وإنك لا تعرف كيف أن أي أجزاء من المعلومات أحجية غير منطقية تتحول إلى منطقية بشكل مفاجئ .

لكن القضية لا تبدو أنها تتجه نحو حل ناجح . وكما يخبر هولمز واتسون : «ما لم يعترض بعض الحظ الجيد طريقنا ، فإنني أخشى أن قضية اختفاء نوروود لن تحسب في ذلك التاريخ من نجاحاتنا والتي أتنبأ أن جمهوراً مريضاً سيتحملها عاجلاً أم آجلاً» .

وبعد ذلك ، تظهر أكثر الفرص حظوظاً من أكثر الأماكن لا توقعاً . ويسمى ليستيريد هذا بـ«الدليل الجيد المهم» الذي يؤسس بالشعور بالذنب لدى ماكفرلين . ويظل هولمز مكروباً حتى يدرك ماذا كان ذلك الدليل وهو بصمة إصبع ماكفرلين الدامية على حائط المدخل . إن ما يشكل بالنسبة ليستيريد دليلاً إيجابياً على الإدانة يشكل بالنسبة لهولمز خلاصة براءة ماكفرلين . والأكثر من ذلك أنه يؤكد الشك الذي لم يكن حتى تلك النقطة سوى شعور مزعج ؛ أي «حدس» كما يسميه هولمز . في الواقع ، جوناس أولديكر حي يرزق وبصحة جيدة .

كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ كيف يمكن لذات المعلومة أن تكون مفيدة للمفتش لإدانة رجل لهولمز لتبرئته وإثارة الشك حول طبيعة الجريمة برمتها؟ إن كل ذلك يتعلق بالتخيل .

لنلقي عليها نظرة خطوة بخطوة . أولاً لدينا رد هولمز الأولي على القصة ، وهو عدم الاندفاع مباشرة نحو مسرح الجريمة المفترضة ولكن بدلاً من ذلك تعويد نفسه على كافة الزوايا الممكنة والتي ربما تكون مفيدة أو لا تكون كذلك . ولهذا فإن رحلة إلى بلاكهيث إلى هؤلاء الوالدين الذين يفترض أنهما كانا يعرفان جوناس أولديكر عندما كان شاباً والذين بطبيعة الحال يعرفان ماكفرلين . بينما قد لا يبدو هذا تخيلياً بشكل خاص ، إلا أنه يتضمن منهجاً أكثر انفتاحاً وأقل خطية من ذلك الذي اعتنقه ليستيريد ، أي التوجه مباشرة نحو مسرح الجريمة ، ومسرح الجريمة فقط . بطريقة ما ، أغلق ليستيريد كافة البدائل الممكنة من البداية . فلماذا تزعج نفسك في النظر إذا كان كل شيء محتاجه في مكان واحد؟

إن الكثير من الخيال يتعلق بإنشاء روابط غير واضحة تماماً بين

عناصر قد تظهر منفصلة في البداية . عندما كنت شابًا ، أعطاني والداي لعبة تصنيف تضم عمودًا خشبيًا مع حفرة في الوسط وحلقة دائرية على القاعدة . رُبط في الثقب خيط سميك مع دائرتين خشبيتين على طرفيها . كانت فكرة اللعبة تتمثل في استخراج الحلقة من العمود ، وقد بدت قطعة من الكيك في البداية حتى أدركت أن الخيط بحلقاته منع الحلقة من الخروج بالطريقة الواضحة فوق الجزء العلوي من العمود . حاولت بقوة ، وبقوة أكبر وبسرعة ربما أستطيع خداعها . وحاولت فصل الخيط والحلقات بحيث تنزلق الحلقة فوق الدوائر التي لم تنزلق من فوقها مسبقًا . لم تنجح أي من المحاولات ، ولم يكن أي من الحلول التي بدت أنها الأكثر فعالية حلاً على الإطلاق . بدلاً من ذلك ، وإزالة الحلقة ، عليك اتخاذ مسار متشابك جدًا حتى أن الأمر استغرق مني ساعات من المحاولة - مع أيام بينها- وذلك لأملك الصبر أخيرًا حلها . ذلك أنه عليك -بمعنى من المعاني-التوقف عن محاولة نزع الحلقة . أود دومًا أن أبدأ بتلك الحلقة مفكرًا في أنها الطريقة الصحيحة لاتباعها . فبعد كل شيء ، ألم يكن الهدف إزالتها؟ إنني لم أتوصل للحل حتى نسيت الحلقة وقمت بخطوة إلى الخلف بالنظر إلى الصورة كاملة واستكشاف الإمكانيات المتاحة .

وكان عليّ التوجه إلى بلاكهيث قبل معرفة ما كان يدور في نوروود . على الخلاف من ليستريد ، كان لدي دليل صارم ، مما يعني أنني سأعرف عندما أحل المشكلة بشكل سليم . لذلك لم احتاج إلى الإيعاز المتواصل من هولمز . وأدركت بأنني كنت مخطئًا لأنني كنت سأعرف دون شك عندما كنت على صواب . لكن غالبية المشاكل ليست واضحة المعالم بشدة . وليس هناك حلقة متصلبة

تمنحك إجابتين فقط ، صحيحة وخاطئة . وبدلاً من ذلك هناك مجموعة كاملة من الانعطافات المضللة والحلول الخاطئة . وتتغيب تذكير هولمز ، فإنك ربما تميل إلى مواصلة سحب تلك الحلقة من أجل إخراجها ، وفكر في أنه تمت إزالتها بينما كان كل ما فعلته يبعدها عن القطب .

لذا يذهب هولمز إلى بلاكهيث ، ولكن لم تكن تلك نهاية رغبته في الانخراط بذلك الجزء التخيلي . من أجل النظر إلى قضية البناء من نورود كما فعل المحقق - وإنجاز ما أنجز- عليك البدء من مكان بإمكانيات منفتحة . إنك لا تستطيع مساواة أكثر مسارات الأحداث وضوحاً مع المسار الوحيد الممكن للأحداث . وإذا قمت بذلك فإنك تشعل خطر عدم التفكير في أي عدد من الاحتمالات التي ربما ينتهي بها المطاف بأن تكون الإجابة الحقيقية . ومن المحتمل أيضاً أنك ستقع ضحية لتأكيد التحيز المقرف والذي رأيناه في فصول سابقة .

في هذه الحالة ، لا يمك هولمز بالفرصة الحقيقية المتمثلة في براءة ماكفرلين فحسب ، بل إنه يحتفظ بعدد من السيناريوهات الافتراضية التي توجد في دماغه فقط ويطبقها ، وذلك حيثما كل جزء من الدليل بما في ذلك الجزء المركزي المتمثل في موت البناء ليس في الحقيقة كما يبدو عليه . ولإدراك المسار الحقيقي للأحداث ، فإن على هولمز أن يتخيل أولاً إمكانية ذلك المسار ، وإلا فإنه من المحتمل أن يظل مثل ليستر يد قائلاً : « لا أعرف فيما إذا كنت تعتقد أن ماكفرلين خرج من السجن في جنح الظلام لتثبيت الدليل ضد نفسه » . ويتابع ذلك البيان الذي على ما يبدو أنه خطابي فإنه يقول : « أنا رجل عملي يا سيد هولمز ، وعندما أحصل

على دليلي فإنني أتوصل إلى الاستنتاجات» .

إن اليقين الخطابي ليستريد في غير محله تماماً لأنه رجل عملي يذهب مباشرة من الدليل إلى الاستنتاجات . وهو ينسى تلك الخطوة الضرورية فيما بينهما ، ذلك الفضاء الذي يمنحك الوقت للتفكير ملياً ، وللتفكير باحتمالات أخرى ، وللتفكير فيما ربما يكون قد حدث ، ولاتباع تلك الخطوط الافتراضية في دماغك بدلاً من أن تجبر على استخدام ما هو أمامك فحسب . (لكن لا تقلل من قيمة تلك المرحلة المتعلقة بالقدرة على المراقبة التي حدثت مسبقاً وملء منطقة التدريب بأجزاء من المعلومات لاستخدامك : يمكن لهولمز أن يصل لاستنتاجاته حول بصمة الإبهام فقط لأنه يعرف أنه لم يفوتها من قبل . حيث يخبر واتسون قائلاً : «أعلم أنك تلك العلامة لم تكن موجودة عندما تفحصت القاعة بالأمس» . إنه يثق بملاحظاته وبانتباهه وبالمعقولة الرئيسية لعلية دماغه ومحتوياتها . أما ليستريد الذي يفتقر إلى التدريب والذي يحكمه نظام واتسون ، فإنه لا يعرف هكذا يقين)

بالتالي ، يمكن لنقص الخيال أن يقود إلى سلوك خاطئ (القبض على أو الشك في الشخص الخطأ) وإلى نقص التصرف السليم (البحث عن المجرم الحقيقي) . أما إذا سعينا إلى أكثر الحلول وضوحاً ، فإنه ربما لا يتم العثور على الحل الصحيح على الإطلاق . إن الإدراك بدون تخيل أقرب إلى نظام واتسون في الضوابط . يبدو منطقيًا وهو ما نريد فعله ، لكنه مندفع وسرور جداً . إنك من المحتمل ألا تستطيع رؤية وتقييم الصورة كاملة -حتى لو كان الحل ركيكاً- إن لم تقم بخطوة إلى الوراء لتفسح المجال بالخيال لقول كلمته .

تأمل هذا المثال المضاد لسلوك ليستريريد في «مغامرة مسكن ويستيريا» ، يجامل هولز إحدى مجاملاته النادرة للمفتش بينز قائلاً: «ستتطور بشكل كبير في مهنتك ، فلديك الحدس والموهبة لذلك» . ما الذي يقوم به هولز بشكل مختلف عن نظرائه في الشرطة البريطانية ليحصل على هكذا تمجيد؟ إنه يتوقع الطبيعة البشرية بدلاً من أن يستثنيها ، ويلقي القبض على الشخص الخطأ بشكل متعمد بهدف طمأنة المجرم الحقيقي . (بطبيعة الحال ، لديه أدلة أكثر من كافية لاعتقال الشخص الخطأ والذي يبدو لليستريريد أنه المجرم) . وتكمن في هذا التوقع واحدة من أهم مزايا المنهج التخيلي ، وهو الذهاب إلى ما وراء المنطق البسيط في شرح الحقائق ، وبدلاً من ذلك استخدام ذلك المنطق نفسه لوضع بدائل افتراضية . إن شخص مثل ليستريريد لن يفكر بالقيام بشيء لا خطي هكذا . لماذا تزداد في العالم الطاقة لإلقاء القبض على شخص إن لم يكن الشخص الذي يجب إلقاء القبض عليه بموجب القانون؟ إن نقص الخيال يجعله يفكر في اتجاه مباشر فقط .

في عام ١٩٦٨ ، كانت رياضة الوثب العالي رياضة راسخة . حيث يمكنك الركض والقفز وشنق طريقك فوق عمود ما بطرق مختلفة . فيما مضى ، كان بإمكانك استخدام آلية المقص ، أي تحريك قدميك إلى الأمام والخلف كما المقص ، لكن بحلول الستينات فإنه صار بإمكانك استخدام الفرشخة (المباعدة بين الرجلين) أو لفة البطن بالانحناء إلى الأسفل والتدحرج فوق العارضة بغض النظر عن النموذج الذي تستخدمه ، أمر واحد يظل حقيقياً وهو أن أنك ستواجه الأمام عندما تقوم بقفزتك . تخيل محاولة القفز إلى الخلف ، سيبدو ذلك مثيراً للسخرية

لكن ديك فيسبوري لا يعتقد هكذا . فبالنسبة له يعد القفز إلى الخلف هو الطريق الذي يجدر سلوكه . فخلال المرحلة الثانوية ، كان يعمل على تطوير نمط للمواجهة للخلف ، والآن في الجامعة يستغرق الأمر منه أكثر مما سبق وأن فعل . إنه لم يكن متأكدًا لماذا قام بذلك ، لكنه لو فكر بالأمر فلربما قال بأن إلهامه أتى من الشرق ؛ أي من كونفوشيوس ولاوتسي . إنه لم يكتثرت بما كان يقوم به الآخرون ، ولكنه قفز والعشور بما يقوم به يرافقه ، وضحك الناس وسخروا منه . لقد بدا فيسبوري مثيرًا للسخرية كما ظنوا (وبدت طموحاته مثيرة للسخرية كذلك . عندما سُئل عن منهجه ، قال : «إنني حتى لا أفكر بالوثب العالي . إنه تفكير إيجابي ، وأنا أجعله يحدث فقط») . في الحقيقة لم يتوقع أحد أن فيسبوري سيجعل فريق الولايات المتحدة يفوز بالأولمبياد . لكنه فاز وسجل أرقامًا قياسية أمريكية وأولمبية بقفزته ذات ال ٢,٢٤ مترًا والتي تقل عن الرقم العالمي ب ١,٥ إنش .

بتقنيته غير المسبوقة والتي أطلق عليها ارتقاء فيسبوري ، استطاع فيسبوري القيام بما لم يقم به العديد من الرياضيين التقليديين ، حيث أنه أحدث وبطريقة واقعية جدًا ثورة في رياضة كاملة . وحتى بعد فوزه ، كانت التوقعات بأن يظل وحيدًا يقفز بنمطه المقتصر على فئة أخرى بينما ينظر بقية العالم إليه . لكن منذ عام ١٩٧٨ ، لم يتم تسجيل أي رقم عالمي من أي شخص عدا الذين يقومون بالهبوط المفاجئ ، وبحلول عام ١٩٨٠ ، كان ثلاثة عشر من بين ستة عشر رياضي يقفزون من فوق القضيب . حتى هذا اليوم ، يظل الهبوط المفاجئ أسلوب القفز العالي المهيمن ، بينما تبدو طريقة الفرشحة قديمة وبطيئة بالمقابل . لماذا لم يفكر أحد

باستبدالها بطريقة أخرى مسبقاً؟

بطبيعة الحال ، يبدو كل شيء بديهياً في وقتها . ولكن ما يبدو واضحاً تماماً الآن كان مبتكراً وغير مسبوق تماماً في ذلك الوقت . لم يفكر أحد أن بإمكانك القفز للخلف ، وبدا الأمر سخيئاً وفيسبوري بنفسه لم يكن قافزاً موهوباً بشكل خاص ، وكما يقول مدربه بيرني واجنر : «عندي قاذفة رمي يمكنه القفز لمسافة أعلى من ديك» . كان كل شيء في النهج ، وبالتالي فإن الارتفاع الذي وصل إليه فيسبوري يتضاءل بالمقارنة مع الرقم القياسي الحالي وهو ٨ أقدام ، أي ٢,٤٥ متر والذي حققه خافيير سوتوماير ، وإنجازته لا يخترق العشرين مرتبة الأولى ، لكن هذه الرياضة لم تكن نفسها .

يسمح لنا الخيال برؤية الأشياء بطريقة غير التي هي عليها ، سواء أكان شخصاً ميتاً بينما هو على قيد الحياة في حقيقة الأمر ، أو طريقة للقفز للخلف لا يمكن أن تكون أمامية أكثر أو صندوق من المسامير والذي يمكن أن يكون أيضاً صندوقاً بسيطاً . إنه يجعلنا نرى ما ربما كناه وما قد نكونه في ظل غياب دليل ثابت . عندما تكون كافة التفاصيل أمامك ، كيف ترتبها؟ كيف تعرف أيها المهم؟ إن المنطق البسيط يجعلك جزءاً من الطريق إلى هناك ، هذا صحيح ، ولكنه لا يمكن أن يقوم بذلك لوحده ، ولا يمكنه القيام بذلك دون مساحة للتنفس .

إننا ليستريديون في مقاومتنا للإبداع ، لكن الجيد في الأمر أن هولمز الذي بداخلنا ليس بعيداً ، وربما يكون تمييزنا الواضح قوياً ولكن ليس ثابتاً وليس عليه التأثير على تفكيرنا بالقدر الذي يفعله

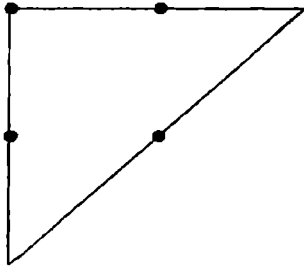
انظر إلى الصورة التالية :

حاول ربط هذه النقاط معًا بثلاثة خطوط دون رفع قلمك عن الورقة أو إعادة رسم أي من الخطوط . عليك أيضًا إنهاء الرسم من حيث بدأته ، ولديك ثلاث دقائق للقيام بذلك .

هل انتهيت؟ إن لم تفعل فلا تقلق لأنك ليست وحيداً على الإطلاق ، فأنت مثل ٧٨٪ من المشاركين في دراسة طلب منهم حل هذا السؤال . أما إن فعلت وأجبتها ، فكم استغرقك الوقت لفعل ذلك؟

فكر في هذا الأمر؛ لو أنني أضأت مصباحاً في مرمى نظرك أثناء عمالك على اللغز ، فإنك كنت من المحتمل أن تحله لو لم تقم بحله مسبقاً - حيث أن ٤٤٪ من المشاركين الذين شاهدوا مصباحاً مضاءً قاموا بحل اللغز على العكس من ال ٢٢٪ في الحالة الأصلية (تلك التي جربتها الآن) - كما أنك كنت ستحل اللغز بشكل أسرع . إن المصباح سيكون قد فعل مفاهيم لها علاقة بالبصيرة في دماغك ، وبذلك يكون قد جهز دماغك للتفكير بطريقة أكثر إبداعاً من تلك المعتادة . إنه مثال عملي على الجاهزية . لأننا نربط ضوء المصباح بالإبداع والبصيرة ، فإننا من المحتمل أن نستمر في المشاكل الصعبة ، وأن نفكر بطريقة إبداعية غير خطية عندما نراه مضاءً . إن كافة المفاهيم المخزنة في عليا أدمغتنا إلى جانب فكرة «لحظة إضاءة المصباح» أو «البصيرة» أو «وجدتها» يتم تفعيلها ، وذلك التفعيل بدوره يساعدنا لنصبح أكثر إبداعاً في نهوجنا الخاصة

بالمناسبة ، ها هو حل اللغز .



إن عقليتنا الطبيعية ربما تقيدنا ، لكن العامل الرئيسي كاف للتلميح لها . في اتجاه مختلف تمامًا . ولا يشترط أن يكون مصباحًا ، فأصناف الفنون على الجدران تقوم بذات الغرض ، واللون الأزرق وصور مفكرين مبدعين مشهورين والوجوه السعيدة والموسيقى السعيدة (في الحقيقة كل الأشياء الإيجابية) والنباتات والأزهار والمشاهد الطبيعية ، كل هذه الأشياء تزيد إبداعنا عن وعي منا أو عن غير وعي ، وذلك سبب للاحتفال به . أيًا كان الحافز ، بمجرد أن يبدأ دماغك بالتفكير مليًا بالفكرة ، فإنك تصبح أكثر احتمالية لتجسيدها . وهناك دراسات تظهر أن ارتداء معطف أبيض سيزيد من احتمالية تفكيرك بالمصطلحات العلمية وأن تكون أفضل في حل المشاكل ، ذلك أن المعطف من المحتمل أن يفعل مفهومي الباحثين والأطباء ، وتبدأ بالاضطلاع في الصفات التي تربطها بهؤلاء الناس .

لكن ماذا عن نقص مصابيح الإضاءة في غرفة زرقاء تحوي صور لأينشتاين على الجدران أثناء الاستماع إلى موسيقى سعيدة وارتداء معطف أبيض وري الزهور الجميلة ، كيف يمكننا حينها شق طريقنا نحو قدرة هولمز على التفكير الخيالي؟

إن واحدة من أكثر الطرق أهمية لتيسير التفكير التخيلي والتأكد أننا لا نتقل مثل ليستريد من الدليل إلى الاستنتاج مباشرة هي من خلال المسافة بالأحاسيس المختلفة لهذه الكلمة . في «مغامرة الخطط البروسية البارتيغوتية» تظهر قضية بشكل متأخر في شراكة هولمز وواتسون ، حيث يقول واتسون :

«إن واحدة من أكثر الخصائص المميزة لشارلوك هولمز هي قدرته على رمي دماغه عن العمل وتحويل كافة أفكاره للأشياء الأخف عندما أقنع نفسه أنه لم يعد بإمكانه العمل للأفضل . أتذكر أنه على مدار ذلك اليوم الذي لا ينسى أنه أضع نفسه في دراسة قام بها على التراثيل المجسدة لأورلان دي أسوس . بالنسبة لي ، لم تكن لدي طاقة الانفصال هذه ، وبدا اليوم بالنهاية بلا نهاية .

إن إجبار دماغك على اتخاذ خطوة للوراء هو شيء صعب التنفيذ ، ويبدو الابتعاد عن مشكلة تريد حلها أمراً بديهياً . لكن في حقيقة الأمر إن الخاصية ليست مميزة للغاية سواء بالنسبة لهولمز أو للأفراد الذين يفكرون بعمق . أما حقيقة أنها مميزة بالنسبة لواتسون (وأنه يعترف بافتقاره إلى المهارة) تقطع شوطاً طويلاً لتوضيح سبب فشله غالباً بينما ينجح هولمز .

يقول عالم النفس يعقوب تروب أن المسافة النفسية ربما تكون واحدة من أكثر الخطوات أهمية والتي يمكنك القيام بها لتحسين التفكير واتخاذ القرارات . ويمكن أن يحدث هذا بصور عديدة ؛ زمانية أو مسافة في الوقت (كل من الماضي والمستقبل) ، مكانية أو المسافة في المساحة (قربك أو بعدك الفيزيائي عن شيء ما) ؛ اجتماعية أو المسافة بين الناس (كيف يراه شخص آخر) ؛ وافترضياً

أو المسافة عن الحقيقة (الكيفية المحتملة لحدوث الأشياء) . ولكن أيًا كانت الصورة ، فإن بين كل هذه المسافات شيئًا مشتركًا ، حيث أنها جميعها تتطلب منك تجاوز اللحظة الفورية في دماغك ، وأن تأخذ خطوة إلى الوراء .

يفترض تروب بأننا كلما تقدمنا في المسافة ، صارت تفسيراتنا ومنظوراتنا أكثر عمومية وتجريدية . وأنه كلما زاد ابتعادنا عن منظورنا الخاص ، اتسعت الصورة التي نستطيع التفكير بها . بالمقابل ، ما إن نقترّب مرة أخرى حتى تصبح أفكارنا أكثر صلابة وتحديدًا وعملية ، وكلما ازداد قربنا من آرائنا الأنانية ، كلما قلت وانحصرت الصورة المواجهة لنا . بدوره يؤثر مستوى التفسير لدينا على كيفية تقييمنا لحالة ما وكيفية اختيارنا للتفاعل معها . ويؤثر على قراراتنا ومقدرتنا على حل المشاكل ، حتى أنه يغير كيفية معالجة أدمغتنا للمعلومات على مستوى عصبي (خاصة أنه يميل إلى إدماج الفص الجبهي والفص الصدغي ، وسنتحدث عن هذا لاحقًا) .

في الأصل ، تحقق المسافة النفسية شيئًا رئيسيًا واحدًا ، وهو إدماج نظام هولمز وفرض الانعكاس الهادئ . حيث تبين أن الإبعاد يحسن الأداء الإدراكي من حل المشاكل إلى القدرة على ممارسة التحكم بالذات . والأطفال الذين يستخدمون آليات الإبعاد النفسي (على سبيل المثال يرون المارشميلو على أنه غيوم منتفخة ، وهي تقنية سندرسها لاحقًا) أكثر قدرة على تأجيل الإشباع ويصمدون لأجل الحصول على جوائز لاحقة . أما الشباب الذين يُخبرون باتخاذ خطوة إلى الوراء وتخيل حالة من منظور أكثر عمومية ، فإنهم يصدرون أحكامًا وتقييمات أفضل ، ولديهم تقييمات أفضل

لذواتهم وانخفاض في التفاعل العاطفي . إن الأشخاص الذين يوظفون الإبعاد في سيناريوهات نموذجية لحل المشاكل يتقدمون على نظرائهم الأكثر اندماجًا . وأولئك الذين يأخذون وجهة نظر نائية حول الأسئلة السياسية يميلون للاندماج مع تقييمات أكثر قدرة على الصمود أمام اختبارات الزمن .

يمكنك التفكير في التمرين على أنه لغز كبير معقد ، حيث فُقد الصندوق ولا تعرف تمامًا ما الذي تضعه معًا ، ومزجت أجزاء من ألغاز أخرى على مدى السنين ، وبالتالي فإنك لست متأكدًا أي الأجزاء تنتمي له . لحل اللغز ، يجب أن يكون لديك بداية إحساس بالصورة ككل . إن بعض الأجزاء ستقفز خارجًا مباشرة ؛ الزوايا والحواف والألوان والأنماط التي تسير جنبًا إلى جنب معًا . وقبل أن تعرف ذلك ، يكون لديك إحساسًا أكثر وضوحًا حول إلى أين يتجه اللغز ، وأين وكيف يجب أن توضع باقي الأجزاء . ولكنك لن تحل اللغز ما لم تأخذ الوقت لوضع أجزائه بصورة ملائمة وتحديد تلك التي تخبر بتحركات البداية ومحاولة تشكيل صورة في دماغك للصورة الكاملة . إن محاولة فرض أجزاء بشكل عشوائي يمكن أن يأخذ وقتًا طويلًا للغاية ويتسبب بإحباط لا داعي له ، وربما يقود إلى عدم قدرتك على حل المشكلة على الإطلاق .

عليك أن تتعلم كيف تجعل العنصرين المادي ؛ أجزاء محددة (تفاصيلها وألوانها وما تلمح له) والصورة الكلية الواسعة (الانطباع العام الذي يمنحك شعورًا باللوحة الفنية ككل) تعمل معًا لمساعدتك على وضع أجزاء اللغز معًا . كلاهما مهم ، والأجزاء تم تجميعها من خلال الملاحظة الدقيقة ورؤية كيف أن تناسبها يمكن إنجازها فقط من خلال مسافة التخيل . يمكن أن تكون المسافات أيًا

من التي ذكرها تروب - زمانية ، مكانية ، اجتماعية أو افتراضية - ولكن يجب أن تكون مسافة .

عندما كنت صغيرة ، كنت أحب ألغاز «نعم أو لا» . حيث كان أحدهم يحمل إجابة لغز بسيط (وكان واحدًا من الألغاز المفضلة عندي كطفلة هو : جو وماندي مستلقيان على الأرض ميتان وحولهما زجاج مكسور وتجمع ماء وبيسبول . ماذا حصل؟) فيحاول البقية معرفة الإجابة من خلال توجيه أسئلة تتم الإجابة عليها ب نعم أو لا فقط . كان بإمكانني لعب هذه اللعبة لساعات ، مما يضطر العديد من رفقائي التعساء لمشاركتي الهواية الغريبة نوعًا ما .

في ذلك الوقت لم أكن أرى الألغاز أكثر من كونها طريقة ممتعة لتمضية الوقت واختبار براعتي البوليسية . وجزء من سبب حبي لها هو أنها جعلتني أشعر بأنني على مستوى المهمة . إنني الآن فقط أفهم تمامًا كان أسلوب اختراع السؤال ذلك مبتكرًا ، حيث أنه يجبرك على فصل الملاحظة عن الاستنتاج سواء أردت ذلك أم لا بطريقة ما ، للألغاز خارطة طريق مدمجة حول كيفية الوصول إلى الحل وذلك عن طريق أخذ فواصل تدريجية للسماح لخيالك بدمج وإعادة تشغيل ما تعلمه . إنك لا تستطيع الانطلاق بسرعة فائقة ، فأنت تلاحظ وتتعلم وتأخذ الوقت للتفكير في الاحتمالات والنظر إلى الزوايا المختلفة للموضوع ومحاولة وضع الأجزاء في سياقها المناسب . وكذلك رؤية فيما إذا كنت توصلت إلى استنتاج خاطئ عند نقطة سابقة . إن ألغاز نعم-و-لا تفرض المسافة التخيلية . (حل لغز جو وماندي أنهما سمكتان ذهبيتان ، اخترقت البيسبول النافذة وكسرت الوعاء الذي يضمهما) .

ولكن بغياب هكذا تلميح يحمل في ثناياه عددًا من العوامل ، كيف يمكن لأحدنا التوجه لإنشاء مسافة؟ كيف يمكن مقاومة نقص الانفصال لواتسون والقدرة - كما هولمز-على معرفة متى وكيف يبعد دماغه عن حدث ما ويحوّله لأشياء أكثر خفة؟ كما يحدث ، فإنه حتى الشيء الذي يبدو متأصلاً كالإبداع والتخيل يمكن تجزئتها إلى خطوات .

الإبعاد من خلال نشاط غير ذي صلة

ما هي المشكلة ثلاثية الغليون؟ إنها فعليًا ليست على قائمة أنواع المشاكل الشائعة في أدب علم النفس ، ولكن ربما يكون هذا هو الوقت المناسب لتكون كذلك .

في «عصبة ذوي الشعر الأحمر» ، يقدم لهولمز لغزًا غير اعتيادي يبدو للوهلة الأولى ليس له حل منطقي . لماذا يمكن تمييز شخص ما في هذا العالم بسبب لون شعره ، ثم يدفع له ليقوم بلا شيء سوى الجلوس لساعات في غرفة مغلقة برفقة الشعر محط السؤال؟

عندما يترك السيد ويلسون ، وهو الرجل صاحب الشعر المشتعل حمرة ، هولمز بعد سرد قصته ، فإن هولمز يخبر واتسون بأنه يجب أن يولي انتباهًا حثيثًا للمسألة . فيسأل واتسون : «ماذا ستفعل إذن؟» وذلك ليعرف كيف ستحل القضية . ربما تكون إجابة هولمز مفاجئة نوعًا ما ، حيث يقول : «سأدخن . تبدو المشكلة ثلاثية الغليون تمامًا ، وإنني أتوسل إليك ألا تتحدث معي لخمسين دقيقة» ويشني نفسه في الكرسي واضعًا ركبتيه السميكتين عند أنفه الذي يشبه أنف الصقر ، ويجلس هكذا بينما عيناه مغلقتان وغليونه

الصلصالي الأسود ينفث الدخان خارجًا كمنقار طائر غريب . لقد توصلت إلى نتيجة مفادها بأنه سقط نائمًا ، وكنت لذلك أحرك نفسي عندما هب من كرسيه فجأة بإيماءة رجل اتخذ قراره ، ووضع غليونه بازدرء على رف الموقد .

بالتالي فإن المشكلة ثلاثية الغليون هي تلك التي تتطلب القيام بشيء عدا عن التفكير المباشر في المشكلة . على سبيل المثال ، تدخين غليون بصمت مطبق في الوقت الكافي لتدخين ثلاثة غليونات . من المحتمل أن واحدة من المشاكل الفرعية تتراوح من مشكلة أحادية الغليون إلى أكبر عدد يمكنك تدخينه دون أن تمرض ويضيع جهد سدى .

إن هولمز طبعًا يقصد شيئًا أكثر إيجابته . فبالنسبة له الغليون هو وسيلة من بين وسائل كثيرة متعددة تستخدم للوصول إلى النتيجة النهائية وهي إيجاد مسافة نفسية بين نفسه والمشكلة التي في متناول اليد ليجعل ملاحظاته (والتي هي في هذه الحالة ما تعلمه من قصة الزائر ومظهره) تترشح في دماغه مختلطة بالمسألة بكافة جوانبها في عليّة دماغه برويّة . والهدف من كل ذلك هو معرفة الخطوة الفعلية اللاحقة في القضية . إن واتسون يريد القيام بخطوة ما بشكل فوري ، ولكن هولمز يضع غليونًا بينه وبين المشكلة ، ويمنح خياله الوقت ليقوم بكل شيء دون عوائق .

إن الغليون مجرد وسيلة تقود لنهاية . أجل ، لكنه أيضًا وسيلة مادية مهمة ، وتنبع فعاليته من كوننا نتعامل مع شيء فعلي ونشاط حقيقي . إن التغيير في النشاط لشيء يبدو غير ذي صلة بالمشكلة التي في متناول الأيدي يعد واحدًا من العناصر المفضية إلى خلق المسافة اللازمة للخيال ليترسخ . وبالتالي فهو نهج يوظفه هولمز غالبًا

ويقود إلى تأثير جيد . حيث أنه يدخن غليونه ، ولكنه أيضاً يلعب كمانه ويزور الأوبرا ويستمتع إلى الموسيقى ، حيث أن هذه أليات الإبعاد المفضلة لديه .

إن النشاط الدقيق ليس مهماً كما طبيعته الفيزيائية ومقدرتها على تدريب أفكارك باتجاهات مختلفة . حيث يجب أن تتوفر فيه العديد من المزايا ، ومنها أن يكون غير مرتبط بما تحاول إنجازه (فإذا كنت تحاول حل لغز جريمة ، فليس عليك الانتقال لحل جريمة أخرى . وإذا كنت بصدد اتخاذ قرار حول صفقة شرائية مهمة ، عليك عدم الذهاب لتسوق شيء آخر ، وهكذا) . وهذا الأمر يجب ألا يتطلب الكثير من الجهد من طرفك (فإذا كنت تحاول تعلم مهارة جديدة ، على سبيل المثال ، فإن دماغك سيكون مشغول البال في أنه لن يكون قادراً على تحرير الموارد المطلوبة للتجذر في عملية دماغك . على سبيل المثال ، عند الحديث عن عزف هولمز للكمان ، فإن لم تكن فناً مبدعاً كما هو ، فليس عليك التوجه إلى ذلك الطريق) . ومع ذلك يجب أن يكون الأمر شيئاً يعمل على إدماجك على مستوى معين (فلو أن هولمز كره دخان الغليون ، فإنه كان من الصعوبة بمكان بالنسبة له الاستفادة من مشكلة ثلاثية الغليون ، وبالمثل فإنه لو وجد دخان الغليون مملاً فإن دماغه ربما يكون مبلداً جداً للقيام بأي تفكير حقيقي على أي مستوى كان أو ربما يجد الدماغ نفسه غير قادر على الانفصال بالطريقة التي ابتلي بها واتسون .

عندما نبدل التروس ، فإننا ننقل المشكلة التي كنا نحاول حلها من دماغنا الواعي إلى اللاوعي . وفي الوقت الذي نعتقد فيه أننا ربما نقوم بشيء آخر وبالتالي تصبح شبكاتنا الانتباهية منخرطة في

شيء آخر . إن أدمغتنا لا تتوقف فعلياً عن العمل على المشكلة الأصلية . ربما نكون قد تركنا عليّة دماغنا من أجل تدخين غليون أو عزف مقطوعة ما ، لكن منطقة التدريج الخاصة بنا تظل مكاناً مشغولاً ببند متعددة يتم جرّها إلى النور ، كما ويتم محاولة العديد من الارتباطات وتقييم العديد من المناهج .

إن المفتاح لفحص عجز واتسون عن خلق مسافة بين نفسه وقضية ما ربما يكون بسبب أنه لم يجد بعد نشاطاً يساعد على الانخراط بشكل جيد وغير ساحق في جوهره . فهو يحاول القراءة في بعض الحالات ، وهي مهمة صعبة جداً ذلك أنه لا يفتل في التركيز في القراءة فحسب وبالتالي يفقد الهدف من النشاط ، ولكنه لا يستطيع إيقاف دماغه عن العودة إلى الشيء الذي لا يجب أن يفكر به (ومع ذلك ، تعد القراءة بالنسبة لهولمز نشاط إبعاد مناسب) . وفي أوقات أخرى يحاول واتسون الجلوس للتأمل . وكما يقولها بنفسه أن الأمر مل جداً ، وبالتالي ما يلبث وأن يجد نفسه يومئ .

في كلتا الحالتين يفتل الإبعاد . إن الدماغ ببساطة لا يقوم بما يفترض أن يقوم به ، أي فصل نفسه عن البيئة المحيطة وبالتالي إدماج شبكة الانتباه الأكثر انتشاراً والخاصة به (وهي ذات الشبكة الافتراضية التي تكون نشيطة خلال راحة أدمغتنا) . وهذا على العكس من مشكلة تشتت الانتباه التي واجهناها في الفصل السابق . إن واتسون لا يستطيع الآن التشتت بما فيه الكفاية . وما يجب عليه القيام به هو صرف انتباهه عن القضية ، ولكن ما يقوم به هو جعل القضية تشتتته عن المشت الذي تم اختياره وبالتالي الفشل في الحصول على فائدة أي من التفكير المركز أو الانتباه المشتت . إن التشتت ليس شيئاً سيئاً دائماً ، حيث أن الأمر برمته

يعتمد على التوقيت والنوع . (وهنا نورد حقيقة ممتعة ، وهي أننا نكون أفضل في حل مشاكل البصيرة حين نكون متعبين أو ثملين . لماذا؟ إن وظائفنا التنفيذية مقيدة ، وبالتالي فإن المعلومات التي تعتبر عادة أنها مشتتة يُسمح لها بالترشيح . وبالتالي فإننا نصبح أفضل في رؤية الارتباطات البعيدة) . لقد كان الفصل الأخير بأكمله حول التشتت الطائش ، ولكن هذا تشتت عن وعي .

ومن أجل أن يعمل بشكل صحيح ، فلا بد من اختيار النشاط الصحيح ، سواء أكان الغليون أم الكمان أم الأوبرا أم أي شيء آخر مختلف تمامًا . شيء منخرط بما فيه الكفاية حتى أنه يشترك بالشكل الصحيح ، ولكنك مع ذلك ليس ساحقًا لدرجة أن يمنع حدوث الانعكاس . وما إن تجد خطيئة الاختيار حتى يصبح بإمكانك وصف المشاكل والقرارات التي تواجهها بناء على ذلك : ثلاثة أنابيب ، حركتين ، زيارة واحدة لمتحف ، وصلت الفكرة؟

في الحقيقة ، هناك نشاط واحد يمكن القول بأنه تقريبًا مصمم خصيصًا للعمل ، وهو بسيط . إنه المشي (ذلك الشيء الذي كان يقوم به هولمز عندما كانت لديه فطنته في «بداة الأسد») تبين أن المشي يحفز التفكير الإبداعي وحل المشاكل ، خاصة إذا كان في محيط طبيعي كالغابات بدلاً من البيئات الأكثر تحضرًا (لكن كلا النوعين أفضل من العدم ، وحتى المشي على طول شارع تصطف على جانبيه الأشجار يمكن أن يكون مفيدًا) . بعد المشي ، يصبح الناس أفضل في حل المشاكل ، حيث يشابرون على حل المهام الصعبة وتزداد احتمالية أن يكونوا قادرين على اغتنام حل ثاقب (كالقدرة على الربط بين تلك النقاط الأربعة التي شاهدها لاحقًا)

بالتالي فكون أحدهم محاطاً بالطبيعة يزيد من مشاعره بالرفاهية ، وهذه المشاعر بدورها تسهل حل المشاكل والتفكير الإبداعي محورة آليات الانتباه والتحكم الإدراكي في الدماغ بطريقة تجعلنا ميالين لخيال كخيال هولز . وحتى المشي يمكن - في بعض الأوقات حيث يبدو الضغط مرتفعاً جداً ويصعب التعامل معه حتى أنك لا تستطيع أن تبدأ بفعل شيء آخر كما واتسون - أن تتم مصادرتة لصالح النظر إلى لقطات من مشاهد طبيعية . إن هذا ليس بالشيء المثالي ، ولكنه يمكن أن يؤدي الغرض .

في كل حالة ، تكون شبكة الانتباه المنتشرة تلك قادرة على القيام بمهامها . حين ينخفض تشبيطنا ، تستحوذ شبكة الانتباه على كل ما يزعجنا ، وتصعد إذا جاز التعبير لكل ما هو قادم . إنها تجعلنا أكثر احتمالاً لفهم الروابط البعيدة وتفعيل الذكريات والأفكار والتجارب غير ذات الصلة والتي ربما تساعدنا في هذه الحالة لتجميع المواد التي تحتاج إلى إعادة تصنيع . إن معالجتنا غير الواعية أداة قوية إذا منحناها المجال والوقت اللازمين للعمل .

فكر في نموذج كلاسيكي لحل المشاكل يعرف بالروابط النائية المركبة . انظر إلى هذه الكلمات :

سرطان البحر ، صنوبر ، صلصلة

الآن حاول التفكير في كلمة واحدة يمكن إضافتها إلى كل من هذه الكلمات لتشكيل عبارة مركبة أو من كلمتين .

جاهز؟ كم استغرق الأمر؟ وكيف تحققت من إجابتك؟

هناك طريقتان لحل هذه المشكلة . تنبع الأولى من البصيرة ، أو معرفة الكلمة الصحيحة بعد ثوانٍ قليلة من البحث ، والثانية تنبع من منهج تحليلي أو محاولة كلمة بعد الأخرى حتى تكون إحداها

مناسبة . إن الإجابة الصحيحة هنا هي تفاح (التفاح الحامض ، أناناس ، صوص التفاح) ويمكن الوصول إلى الحل إما من خلال رؤية الحل أو المرور عبر قائمة من الإجابات الممكنة (كيك؟ لا تعمل مع صنوبر . عشب؟ الخ) إن المثال السابق يعادل انتقاء تلك البنود في الزوايا المعاكسة من علية دماغك وتحويلها إلى شيء ثالث ذي صلة وغير ذي صلة يؤدي المعنى الكامل لحظة رؤيتك إياه . والأخير يعادل التفتيش في علية دماغك ببطء وألم ، وفي صندوق وراء الآخر مع استبعاد شيء وراء الآخر حتى تجد المناسب .

في حال غياب الخيال فإنك ستعلق بذلك البديل غير المستساغ ، كما سيكون واتسون . وبينما ربما يصل واتسون إلى الإجابة الصحيحة في لغز كما ارتباطات الكلمة ، فإنه في العالم الحقيقي لا يوجد ضمان لنجاحه لأن العناصر ليست موضوعة أمامه بشكل جميل كما الكلمات الثلاثة الواردة قبل قليل . ولم يخلق الفضاء الدماغى المطلوب لتكون البصيرة ممكنة . وليس لديه فكرة حول أي العناصر التي تتطلب الاندماج معاً . بكلمات أخرى ، ليس لديه تصور حول المشكلة .

حتى دماغه سيكون مختلفاً عن دماغ هولمز عند اقترابه من المشكلة ، سواء أكانت ارتباطات الكلمات أو قضية عامل البناء . إن المسح الدماغى يمكن أن يرينا أنه توصل إلى الحل قبل حوالي ثلاثمئة ميلي من الثانية قبل أن يدرك ذلك . على وجه التحديد ، فإننا سنرى موجه من النشاط من الفص الصدغى الأمامى (وهي منطقة فوق الأذن اليمنى متورطة في العمليات المعرفية المعقدة) ، وتخفيف متزايد في التلفيف الصدغى العلوي الأيمن (وهي منطقة ارتبطت بإدراك علم العروض العاطفى ، أو إيقاع ونبرة اللغة والتي

تنقل شعوراً معيناً وتجمع المعلومات المتفرقة في استيعاب اللغة المعقدة) .

حتى أننا يمكن أن نتنبأ فيما إذا كان واتسون ينطلق في الاتجاه الصحيح من خلال إلى نشاط عصبي في منطقتين : الفص الصدغي الأيمن والأيسر الذين يرتبطان بمعالجة المعلومات المعجمية والدلالية ، و القشرة منتصف الأمامية والتي تتضمن الحزامية الأمامية ، وهي ترتبط بنقل الانتباه و كشف الأنشطة المتعارضة والمتنافسة . إن التفعيل الأخير يمكن أن يكون مثيراً للاهتمام بشكل خاص ، ذلك أنه يقترح العملية التي نستطيع من خلالها الحصول على نظرة ثاقبة حول مشكلة غامضة : فمن المرجح أن الحزام الأمامي ينتظر من أجل الكشف عن إشارات متباينة من الدماغ ، حتى تلك الإشارات الضعيفة التي لا نكون مدركين لإرسالها ، ويحول انتباهه لها من أجل الحصول على حل ممكن ، مضخماً ، إذا جاز التعبير ، المعلومات الموجودة مسبقاً والتي تحتاج دفعة قليلة ليتم دمجها ومعالجتها بشكل كلي .

في الحقيقة ، إذا كنا سنسبسط مقارنة دماغ واتسون لدماغ هولمز ، فإننا سنجد إشارات واضحة لقابلية هولمز لهكذا أفكار بينما يفتقرها واتسون ، حتى غياب هدف لعقله . ويمكننا أن نكتشف بشكل خاص أن دماغ المحقق كان أكثر نشاطاً في مناطق الشق الأيمن المرتبطة بمعالجات معجمية ونحوية أكثر من دماغ واتسون ، ويظهر ذلك تفعيلاً أكثر انتشاراً للنظام البصري .

ماذا تعني هذه الفروقات؟ إن الشق الأيمن أكثر انخراطاً في معالجة هكذا ارتباطات طليقة أو بعيدة والتي تأتي معاً غالباً في لحظات البصيرة ، بينما الشق الأيسر يركز على ارتباطات أكثر شدة

ووضوحًا . إن الاحتمال الأكبر بأن النماذج المحددة التي ترافق
الفطنة تشير إلى أن الدماغ جاهز دائمًا لمعالجة الارتباطات التي لا
تبدو من الوهلة الأولى ارتباطات على الإطلاق . بكلمات أخرى ،
إن الدماغ الذي يستطيع إيجاد روابط بين الأشياء التي تبدو غير
مرتبطة يمكن أن يصل إلى شبكته الواسعة من الأفكار
والانطباعات ، ويكتشف روابط ضعيفة يمكن لاحقًا تضخيمها من
أجل التعرف على فعالية أكثر شمولية إذا كان لها وجود . ربما تبدو
الفطنة وكأنها تأتي من لا مكان ، ولكنها في الحقيقة تأتي من
مكان محدد ، أي من علية الدماغ والمعالجة التي كانت تتم أثناء
انشغالك بأشياء أخرى .

إن الغليون والكمان والمشي والحفلة بينها شيء آخر مشترك ما
وراء المعايير السابقة التي استخدمناها لترشيحها على أنها أنشطة
جيدة ممكنة لخلق الإبعاد . إنها تسمح لدماغك بالراحة ، وتمتص
الضغط . في الأصل ، إن كل السمات المذكورة غير مرتبطة ، وغير
مجدية كثيرًا ولكنها في ذات الوقت مجدية بما فيه الكفاية حين
تندمج معًا لتقدم لنا البيئة المناسبة للاسترخاء العصبي . فليس
بإمكانك الاسترخاء إذا كان يفترض بك العمل على مشكلة ما ،
ومن هنا جاء عدم الارتباط . وكذلك ليس بإمكانك الاسترخاء إذا
كان شيء ما يتطلب الكثير من الجهد . وربما أنك لا تكون متحفزًا
للقيام بأي شيء ، أو ربما أنك تسترخي بشكل زائد حتى تغفو .

إذا لم تتوصل إلى أي استنتاجات أو تحصل على أي وجهات
نظر وقت خروجك من مشكلة ، فإن الاحتمالات الواردة أنك
ستعود لها نشيطًا وجاهزًا لبذل المزيد من الجهد . في عالم ١٩٢٧ ،
لاحظت عالمة النفس بلوما زيجنارنك شيئًا ممتعًا وهو أن النوادل في

مطعم في فيينا يمكنهم تذكر الطلبات التي يجري العمل عليها فقط ، وما إن يتم إرسال الطلب والانتهاء منه حتى كأنهم يحونه من ذاكراتهم ، ثم قامت زيجنارنك بما كان سيقوم به أي عالم نفس جيد ، حيث عادت إلى مختبرها وصممت دراسة . حيث أعطي مجموعة من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين مهام لإجهاها (سواء أكانت جسدية كصنع تماثيل فخارية أو ذهنية كحل الألغاز) ، لكن نصف هذه المهام تمت مقاطعتها بحيث لم يتم إنهاؤها . في النهاية ، تذكر أفراد العينة المهام التي تمت مقاطعتها بشكل أفضل من تلك التي تم الانتهاء منها بضعفين .

وقد عزت زيجنارنك النتيجة إلى حالة من التوتر . حيث أن دماغك يريد معرفة ماذا سيأتي لاحقاً والانتهاء من المهمة . إنه يريد مواصلة العمل ، وسيفعل حتى لو طلبت منه التوقف عن ذلك . وخلال كل تلك المهام الأخرى ، فإنه سيتذكر لا شعورياً تلك المهام التي لم يتم الانتهاء منها . إنها نفس الحاجة إلى الإغلاق والتي واجهتنا سابقاً ، إنها رغبة أدمغتنا على إنهاء حالات عدم اليقين وحل الأشياء غير المكتملة . إن هذه الحاجة تحفزنا على العمل بجد أكبر ، وبشكل أفضل وعلى العمل لأجل الإنهاء . والدماغ الذي يتم تحفيزه ، كما نعرف ، هو دماغ أكثر قوة .

الإبعاد من خلال المسافة الحقيقية

وماذا لو أنك - كما واتسون - لا تستطيع فهم القيام بشيء من شأنه أن يجعلك قادراً على التفكير بشيء آخر حتى لو كانت لديك كل تلك الاقتراحات لتختار منها؟ من حسن الحظ أن

المسافة ليست محصورة في تغيير في النشاط (على الرغم من أن ذلك واحداً من أسهل الطرق) . عن طريقة أخرى للتلميح للمسافة النفسية هي بالحصول على مسافة حرفية ، أي الانتقال جسدياً إلى نقطة أخرى . بالنسبة لواتسون ، يعد ذلك مرادفاً للنهوض والمشي خارج شاعر بيكر بدلاً من الجلوس هناك للنظر إلى زميله في الشقة . ربما يكون هولمز قادراً على تغيير الموقع عقلياً ، لكن التغيير الفيزيائي الحقيقي يمكن أن يساعد الأقل عزيمه ، ويمكنه أيضاً مساعدة المحقق العظيم نفسه حين لا يلوح الإلهام التخيلي .

في «وادي الخوف» يقترح هولمز العودة مساء لمسرح الجريمة التي يتم البحث فيها تاركاً الفندق الذي كان يقوم فيه بغالبية التفكير ، يتعجب واتسون : «مساء لوحدي!» سيكون ذلك أكثر كآبة من أي شيء آخر . هراء ، يرد هولمز . يمكن أن يكون في الحقيقة توضيحياً . «أقترح الذهاب إلى هناك الآن . لقد رتبت لها مع المحترمة أميس ، والتي لا تعد بحال من الأحوال صادقة حول بيكر . يتوجب عليّ الجلوس في تلك الغرفة ورؤية فيما إذا كان جوها سيجلب لي الإلهام . إنني أؤمن بعبقرية الأماكن . أنت تبتسم عزيزي واتسون ، حسناً سنرى» . وبذلك يتجه هولمز للدراسة .

وهل يجد الإلهام؟ إنه يفعل . فقد صار لديه في الصباح التالي الحل للغز الغامض . كيف يمكن ذلك؟ هل منحت عبقرية المكان هولمز الإلهام الذي أراه؟

في الحقيقة ، لقد كان للمكان ذلك الأثر ، حيث أن المكان يؤثر على الأفكار بأكثر طريقة ممكنة مباشرة ، وحتى أنه يؤثر علينا جسدياً ، ويعود ذلك إلى واحدة من أكثر التجارب شهرة في عم النفس ؛ وهي كلاب بافلوف . حيث أراد إيفان بافلوف بأن إشارة

جسدية (وكانت في هذه القضية صوت ، ولكنها يمكن أن تكون كذلك شيئاً مرتبياً أو رائحة أو مكاناً عاماً) يمكنها أن تثير نفس الرد كما تفعل المكافأة الفعلية . لذا بإمكانه أن يقرع الجرس ومن ثم يقدم الطعام لكلايه . لدى مشاهدتها للطعام ، فإن لعاب الكلاب سيسيل بشكل طبيعي ، ولكن لاحقاً ما يلبث وأن يسيل لعابها لدى سماع صوت الجرس قبل حضور الطعام او حتى رائحته . لقد حفز صوت الجرس توقع الطعام وحفز بالتالي ردة فعل جسدية

إننا نعرف الآن أن هذا النوع من الارتباط المتعلم يتجاوز الكلاب والجرس واللحم . فالبشر يميلون لبناء هكذا أنماط بطبيعة الحال ، حتى أن الأشياء غير الضارة كالأجراس تحفز ردود الأفعال المتوقعة في أدمغتنا . عندما تدخل إلى عيادة طبيب ، على سبيل المثال ، فإن الرائحة وحدها يمكن أن تكون كافية للقيام بذلك التأثير ، لا لأنك تعرف بأن هناك شيئاً مؤلماً (فقد يكون الهدف من زيارتك أخذ قطرة ما) ولكن لأنك تعلمت الربط بين تلك البيئة وقلق الزيارة الطبية .

إن طاقة الارتباطات المتعلمة كلية الوجود . فعلى سبيل المثال ، نحن نميل إلى تذكر المادة بشكل أفضل من تذكرنا للمكان الذي تعلمناها فيه . فالطلاب الذين يخضعون للامتحانات في الغرف التي أخذوا دروسهم فيها يكون أدائهم أفضل من لو خضعوا لذات الامتحانات في بيئة جديدة . والعكس صحيح ، إذا ارتبط مكان محدد بالإحباط أو الملل أو التشتت ، فإنه ليس مكاناً جيداً للدراسة .

عند أي مستوى ، فيزيائياً كان أم عصبياً ، ترتبط الأماكن بالذكريات . وتتجه الأماكن للارتباط بنوع النشاط الذي يحصل

هناك ، وهذا النمط من الصعب كسره . فعلى سبيل المثال ، إن مشاهدة التلفاز في الفراش ربما تجعل من الصعب بمكان عليك النوم (ما لم تذهب للفراش أثناء مشاهدتك للتلفاز) . وكذلك فإن الجلوس على ذات الطاولة طوال اليوم تجعل من الصعب بمكان عليك فصل نفسك عنها إذا علق دماغك .

إن الرابط بين المكان والتفكير يوضح لماذا لا يستطيع الكثيرون العمل من المنزل ويحتاجون للذهاب إلى مكاتبهم المحددة . فهم غير معتادين على العمل في المنزل ، ويجدون أن حتى أبسط الأشياء الاعتيادية التي تحدث في المنزل تشتت انتباههم . إن تلك الارتباطات العصبية ليست تلك التي من شأنها أن تفضي إلى جعل الأشياء المرتبطة تعمل . فببساطة ، إن آثار الذاكرة ليست هناك ، والموجودة منها ليست تلك التي تريد تفعيلها . وهذا يوضح أيضاً لماذا يعد المشي فعالاً جداً ، ذلك أنه من الصعوبة بمكان أن يكون لديك نمط تفكير بنتائج عكسية إذا كان المشهد الخاص بك يتغير طوال الوقت .

إن المكان يؤثر على التفكير ، فتغيير المكان يجعلنا نفكر بطريقة مختلفة . إنه يجعل ارتباطاتنا الراسخة غير ذات صلة ، وبالتالي يحررنا لتشكيل ارتباطات جديدة ، واكتشاف طرق للتفكير وممرات لم نفكر بها مسبقاً . وبينما ربما يوضع خيالنا في موضع محرج بسبب أماكننا المعتادة ، فإنه يصبح واسعاً عندما نفصله عن المحددات المتعلمة . ليس لدينا ذكريات للروابط ، ولا روابط عصبية لتركل بنا لتشغلنا . وهنا يكمن الرابط السري بين التخيل والمسافة الفيزيائية . ما يهم في الأمر هو أن التغيير في المنظور الفيزيائي يمكنه تعزيز تغيير في المنظور الذهني . وحتى هولمز ، الذي هو ليس

كواتسون ولا يحتاج لأن يتم اقتياده وإبعاده عن شارع بيكر بقوة من أجل الاستفادة من مسافة ذهنية ، يستفيد من هذه الخاصية

لنعد مرة أخرى لطلب هولمز الغريب في «وادي الخوف» لقضاء ليلته وحيداً في الغرفة التي حصلت فيها الجريمة . في ضوء الرابط بين الموقع والذاكرة والمسافة التخيلية ، فإن إيمانه بعبقرية الأماكن لم يعد يبدو غريباً . إن هولمز فعلياً لا يعتقد أنه بإمكانه إعادة خلق الأحداث عن طريق تواجده في الغرفة التي حدثت فيها الجريمة ، وبدلاً من ذلك فإنه يعتمد على القيام تماماً بما ناقشناه للتو . إنه يريد إحداث تغيير في وجهة نظر عن طريق التغيير بالمعنى الحرفي للمكان ، وهو في هذه القضية مكان محدد بذاته ومنظور محدد جداً أيضاً وهو يتعلق بالأشخاص المنخرطين في الجريمة . وبفعل هذا فإنه يحزر خياله لثلا يسلك طريق تجربته الخاصة وذكرياته وروابطه ، ولكن تلك الخاصة بالناس المنخرطين بالأحداث أنفسهم . ما هي الروابط التي ربما تكون الغرفة قد أثارها عنده؟ وماذا ربما تكون قد أوحى له؟

يدرك هولمز كلاً من الحاجة للاندماج في عقلية الممثلين المنخرطين في الدراما والصعوبة المباشرة لفعل ذلك مع كل العناصر التي يمكن أن تكون خاطئة عند أي لحظة . فما هي أفضل طريقة لدفع كل المعلومات المشتتة جانباً والتركيز على الخصوصيات الرئيسية بطريقة أكثر احتمالية لتذكر كافة العوامل الأصلية بدلاً من طلب العزلة في مسرح الجريمة . إن هولمز بطبيعة الحال لا يزال بحاجة إلى كل مهاراته التخيلية ومهارات الملاحظة حين يكون هناك ، لكنه الآن يستطيع الوصول إلى الصورة الحية والعناصر التي تقدم نفسها لكل من هو متواجد في المسرح الأصلي للجريمة . ومن هناك يمكنه التقدم على أساس أكثر يقيناً .

بالتالي ، إنه في تلك الغرفة حيث يلاحظ وجود مغفل واحد مخمناً فوراً أن الشخص المفقود من الاثنين لا بد وأنه متورط بطريقة أو ما في الأحداث التي تنكشف شيئاً فشيئاً ، ومن تلك الغرفة يستنتج الموقع الأكثر احتمالية . خارج النافذة الوحيدة التي من الممكن أن يكون سقط منها . وعندما يظهر في الدراسة ، يكون قد غير دماغه من وضعه الأصلي إلى المسار المناسب للأحداث .

وبذلك المعنى ، يطلب شارلوك هولمز مبدأ الذاكرة السياقي كما بحثناه للتو مستخدماً السياق ليلمح إلى أخذ المنظور والخيال . بإعطاء هذه الغرفة بذاتها في هذا الوقت من اليوم ، كيف يمكن لشخص كان يرتكب الجريمة أو ارتكبها لتوه أن يفكر أو يتصرف؟

في حال غياب التغيير الفيزيائي والمسافة ، حتى هولمز ربما وجد خياله يتعثر ، كما فعل قبل ذلك المساء . ونحن لسنا مدربون غالباً على النظر إلى العالم من وجهة نظر أخرى بطريقة أكثر أساسية واتساعاً تتجاوز التفاعل البسيط . كيف يمكن لشخص آخر تفسير موقف ما بطريقة مختلفة عنا؟ وكيف يمكنه التصرف في ظل مجموعة من ظروف معينة؟ ما الذي ربما يعتقده بالنظر إلى مدخلات معينة؟ إن هذه الأسئلة لا نجد أنفسنا نسألها غالباً

بالتالي ، إننا لسنا مدربون بشكل جيد على تبني وجهة نظر شخص آخر بشكل فعلي حتى أنه عندما يطلب منا فعل هذا بوضوح ، فإننا لا نزال نتقدم من مكان أناني . في سلسلة من الدراسات ، وجد باحثون أن الأشخاص يتبنون وجهات نظر الآخرين من خلال تعديل وجهات نظرهم . إنها مسألة درجة لا نوع ؛ حيث أننا نميل للبدء بوجهة نظرنا كنقطة رسو ، ثم نعدل بشكل خفيف باتجاه واحد بدلاً من تغيير وجهة النظر بالكامل .

إضافة إلى ذلك ، بمجرد وصولنا إلى تقدير يبدو مرضياً لنا ، فإننا نوقف التفكير ونعتبر أنه تم حل المشكل ونكون حصلنا على وجهة النظر المطلوبة . تعرف تلك النزعة بالإرضائية ، وهي مزيج من الاكتفاء والتلبية ؛ أي تحيز استجابة تخطئ في الجانب الأناني من الإجابات المعقولة لسؤال ما . حين نجد إجابة مرضية ، فإننا نوقف النظر سواء كانت الإجابة نموذجية أم لا أو حتى دقيقة عن بعد . (في دراسة حديثة حول السلوك عبر الانترنت ، على سبيل المثال ، كان الأشخاص متأثرين بشكل كبير بتفضيلات شخصية قائمة في تقييماتهم للمواقع الالكترونية ، واستخدموا تلك التفضيلات باعتبارها مرتكزاً لتقليل عدد المواقع التي كانوا ينظرون إليها وفي وضع حد لبحثهم عبر الانترنت . والنتيجة أنهم غالباً ما عادوا إلى المواقع المعروفة فعلياً بدلاً من أخذ الوقت لتقييم مصادر ممكنة جديدة للمعلومات ، وقد اختاروا التركيز على ملخصات محركات بحث بدلاً من استخدام زيارات فعلية للمواقع لاتخاذ قراراتهم) إن النزعة نحو التحيز الأناني في الإرضائية قوية خاصة عندما تُقدم الإجابة المنشودة . في عملية البحث . ثم إننا نميل إلى اعتبار مهمتنا منتهية حتى لو كانت بعيدة كل البعد عن كونها كذلك .

إن التغيير في المنظور وفي الموقع الفيزيائي يقوي التعقل ببساطة ، حيث أنه يجبرنا على إعادة النظر في العالم والنظر إلى الأشياء من منظور آخر . وأحياناً يمكن أن يكون ذلك التغيير في المنظور الشرارة التي تجعل قراراً صعباً واحداً يمكن إدارته ، أو التي تحدث الإبداع حيث لم يسبق له وأن تواجد مسبقاً . فكر في تجربة مشهورة لحل المشاكل صممها نورمان مايير عام ١٩٣١ . حيث وضع مشاركاً في غرفة يتدلي من سقفها خيطان ، وكانت مهمته أن

يربطهما معاً ، لكن كان من المستحيل الوصول إلى أحد الخيطين أثناء الإمساك بالآخر . وتواجدت كذلك أشياء عديدة في الغرفة ، كعمود وامتداد حبل وزردية ، فما الذي يمكن فعله؟

حاول غالبية المشاركين جاهدين مع العمود وامتداد الحبل باذلين جهدهم للوصول إلى النهاية أثناء الإمساك بالخيط الثاني ، وكان الأمر مخادعاً حقاً .

ما هو أكثر الحلول روعة؟ اربط الزردية في نهاية أحد الخيطين ثم استخدمها كبندول وأمسكها بينما تطفو نحوك وأنت تمسك بالخيط الثاني ، إنها طريقة بسيطة وذات بصيرة وسريعة .

لكن قليلون جداً من استطاعوا تصور التغيير في استخدام المادة (وهي هنا تخيل الزردية على أنها شيء آخر عدا عن كونها زردية ، أي على أنها وزن يمكن ربطه بخيط) أثناء تورطهم في المهمة . أولئك الذين قاموا بشيء واحد مختلف وهو أنهم رجعوا للوراء نظروا إلى الموضوع من مسافة حرفية ، ورأوا الصورة كاملة ثم حاولوا تصور كيف بإمكانهم جعل التفاصيل تعمل . قام البعض بهذا بشكل طبيعي بينما احتاج البعض الآخر لأن يتم تعزيزه من المجرّب الذي يبدو أنه نعم بالصدفة أحد الخيطين ليحث وجود حركة متأرجحة (كان الفعل كافياً لجعل المشاركين يفكرون بشكل عفوي بحل الزردية) . لكن لم يقم بهذا أيهم دون تغيير في المنظور وإن كان خفيفاً ، أو لنقل بمصطلحات تروب انتقال من المادي (الزردية) إلى المجرد (وزن البندول) ، من أجزاء اللغز تلك إلى اللغز كاملاً . لا تقلل من قوة المنظور الفيزيائي ، وكما يقولها هولمز في «مشكلة جسر ثور» : «عندما تتغير وجهة نظرك ، يصبح الشيء الذي كان لعيناً جداً مفتاحاً للحقيقة»

الإبعاد من خلال تقنيات ذهنية

لنعد للحظة لمشهد مرنا به مسبقاً في «كلب عائلة باسكرفيل». فبعد الزيارة الأولية للدكتور مورتيمر، يغادر الدكتور واتسون شارع بيكر للذهاب إلى ناديه. لكن هولمز يظل جالساً في كرسيه، وهو حيث يجده واتسون عندما يعود إلى الشقة في حوالي التاسعة مساءً. هل ظل هولمز كالأثاث طوال اليوم؟، يتساءل واتسون. فيجيب هولمز: «على العكس، لقد ذهبت إلى ديفونشير». ولأن واتسون لا يفوت منافسة، قال متسائلاً: «في روحك؟» ليجيب هولمز: «تماماً».

ما الذي يقوم به هولمز تماماً أثناء جلوسه في كرسيه بينما دماغه بعيد عن فيزيائية اللحظة؟ ما الذي يحدث في دماغه؟ ولماذا يعد هذا أداة مهمة للخيال وعنصر مهم لعملية التفكير لديه قلما يمنعه؟ إن الرحلة الذهنية لهولمز تسمى بأسماء كثيرة، أكثرها شيوعاً هو التأمل.

عندما أقول تأمل، فإن الصور التي تتشكل لدى غالبية الناس ستتضمن رهباناً أو ممارسي اليوغا أو بعض الصفات التي تبدو روحانية. لكن ذلك حقاً مجرد جزء صغير مما تعنيه الكلمة. إن هولمز ليس راهباً ولا ممارس لليوغا، ولكنه يفهم ما هو التأمل في جوهره. حيث أنه تمرين ذهني بسيط لتصفية دماغك. إنه لا شيء أكثر من المسافة الهادئة التي تحتاجها للتفكير الشامل والتخيلي والملاحظ والواعي. إنه القدرة على خلق مسافة في الوقت والمساحة بينك وبين كل المشاكل التي تحاول معالجتها في دماغك بمفردك. ولا يشترط أن يكون، كما يعتقد غالبية الناس، طريقة لتجربة لا شيء، فالتأمل الموجه يمكن أن يأخذك نحو هدف أو وجهة معينة

(مثل ديفونشير) ما دام دماغك خالٍ من كل المشتتات الأخرى ، أو لنكون أكثر دقة ، ما دام دماغك ينقي نفسه من كل المشتتات ويواصل القيام بهذا ما دامت المشتتات تظهر (وهو ما سيحدث حتماً) .

في عام ٢٠١١ ، أجرى باحثون من جامعة ويسكونسن دراسة على مجموعة من الناس الذين لم يكونوا معتادين على التأمل ، وقاموا بتوجيههم بالطريقة التالية : استرخوا مع إغماض عيونكم والتركيز على تدفق نفسكم من أعلى أنوفكم . فإذا ما ظهرت فكرة عشوائية ، أقروها ثم اسمحوا لها بالذهاب ببساطة عن طريق استعادة انتباهكم على انسياب النفس . حاول المشاركون الخمسة عشرة دقيقة اتباع هذه التوجيهات ، ثم انقسموا إلى مجموعتين كان لإحدهما خيار الخضوع لجلسات تأمل لمدة خمسة أسابيع ، مدة كل جلسة تسعة وثلاثين دقيقة ، وكان لدى المجموعة الثانية ذلك الخيار في نهاية التجربة ولكن ليس قبل ذلك . في نهاية الخمسة أسابيع ، أنهى الجميع مهمة التفكير السابقة مرة ثانية .

قام الباحثون خلال كل جلسة بقياس النشاط الكهربائي للمشاركين ، وهو سجل للنشاط الكهربائي على طول فروة الرأس ، وما وجدوه يمثل صورة محيرة . وحتى هكذا فترة تدريب قصيرة - تراوحت فيها مدة تدريب المشاركين بين خمسة وستة عشرة دقيقة ويوم ممارسة- يمكن أن تسبب تغييرات في المستوى العصبي كان الباحثون مهتمون تحديداً في النشاط الكهربائي الأمامي اللامتناسق نحو نموذج مرتبط بالمشاعر الإيجابية (والتي ثبت أنها تتبع سبعين ساعة تدريبية أو أكثر في آليات التأمل الواعي) . بينما ام تظهر اختلافات بين كلا المجموعتين قبل التدريب في نهاية الدراسة ،

أظهر الذين حصلوا على تدريبات إضافية تحولاً نحو اليسار في التماثل ، مما يعني حركة نحو نمط مرتبط بحالات شعورية إيجابية موجهة نحو منهج ، وهكذا حالات تم ربطها مراراً وتكراراً بازدياد الإبداع والقدرة على الخيال .

ماذا يعني ذلك؟ أولاً ، على الخلاف من الدراسات السابقة حول التأمل والتي طالبت بمدخلات حقيقية جداً من الوقت والطاقة ، فإن هذه التجربة لم تتطلب التزاماً مكثفاً في الموارد ولكنها أظهرت نتائج عصبية مذهشة . إضافة على ذلك ، كان التدريب مرناً للغاية ، حيث كان بإمكان الناس اختيار متى يريدون الحصول على التوجيهات ومتى يريدون الممارسة . وربما الأهم من ذلك أن المشاركين أظهروا تصاعداً في الممارسات السلبية العفوية عندما وجدوا أنفسهم عن دون قرار واع بالتأمل في ظروف غير ذات صلة يفكرون على غرار التعليمات التي تم تزويدهم بها

صحيح أنها دراسة واحدة فقط ، ولكن هناك ما هو أكثر من مجرد ذلك بالنسبة للدماغ . فقد تبين أن تدريب التأمل يمكن أن يؤثر على الشبكة الافتراضية ، تلك الشبكة الانتباهية المنتشرة التي تحدثنا عنها مسبقاً والتي تسهل الرؤى الخلاقة وتسمح لأدمغتنا بالعمل على روابط بعيدة بينما نقوم بأشياء أخرى مختلفة تماماً . أظهر الأشخاص الذين يتأملون بشكل منتظم ربطاً وظيفياً مريحاً متزايداً في الشبكة بالمقارنة بأولئك الذين لا يمارسون التأمل . الأكثر من ذلك أنه في إحدى الدراسات على تأثيرات التخيل على مدى ثمانية أسابيع ، وجد الباحثون تغييرات في كثافة الجانب الرمادي في مجموعة من المشاركين البسيطين في التأمل (أي أنهم لم يمارسوا التأمل قبل بدء الدراسة) بالمقارنة إلى مجموعة تحكم .

كانت هناك نحو في الحصين الأيسر والقشرة الحزامية الخلفية والتقاطع الصدغي الجداري والمخيخ ، وهي مناطق منخرطة في المشاركة في التعلم والذاكرة وتحديد المشاعر والمعالجة ذاتية المرجع وأخذ المنظور . يشكل الحصين و القشرة الخلفية الحزامية والتقاطع الصدغي الجداري شبكة عصبية تدعم كلاً من الإسقاط الذاتي - بما في ذلك التفكير بالمستقبل الافتراضي - و أخذ المنظور أو فهم وجهات نظر الآخرين . بكلمات أخرى ، إنه تمامًا نوع الإبعاد الذي كنا نناقشه .

إن التأمل هو طريقة للتفكير . وهو عادة المسافة التي لها النتيجة المحظوظة لكونها ذاتية التعزيز . إنه أداة في ترسانة الآليات العقلية التي يمكنها مساعدتك على خلق الإطار الصحيح للدماغ من أجل الحصول على المسافة الضرورية للتفكير التخيلي الواعي . إنه أكثر قرب المنال والتطبيق من دلالات الكلمة التي يمكن أن تتخيلها .

فكر في حالة شخص مثل راي داليو ، حيث أنه يمارس التأمل كل صباح تقريبًا ، أحيانًا قبل التوجه إلى عمله وأحيانًا في مكتبه حيث يحني ظهره ويغلق عينيه ويشبك يديه بقبضة بسيطة . لا شيء أكثر من ذلك مهم ، حيث قال ذات مرة لمراسل جريدة نيويورك في مقابلة أجريت معه : «إنه مجرد تمرين ذهني تطهر فيه عقلك» .

إن داليو ليس ذلك الشخص الذي يخطر بالبال بسهولة عندما تفكر بممارسي التأمل . فهو ليس راهبًا أو متعصبًا لليوغا ، وهو لا يقوم بهذا مجرد الاهتمام في المشاركة بدراسة نفسية . لقد شاء حظه أن يكون مؤسس أكبر صناديق التحوط في العالم «بردج ووتر» ، وهو شخص ليس لديه وقت ليضيعه ولديه الكثير من الطرق لقضاء

وقته . ومع ذلك فحُو يختار أن يخصص جزءاً من برنامجه اليومي للتأمل بأوسع معانيه الكلاسيكية .

عندما يتأمل داليو ، فإنه يصفى دماغه ويحضره لاستقبال اليوم من خلال الاسترخاء ومحاولة استبعاد كل الأفكار التي ستزعجه للساعات القادمة . نعم ، ربما يبدو الأمر إضاعة للوقت وأن لا شيء يبدو منتجاً . لكن قضاء تلك الدقائق في فضاء دماغه سيجعل داليو أكثر إنتاجية ومرونة وتخيلاً وبصيرة . باختصار ، سيساعده ليكون صانع قرار أفضل .

لكن هل ينطبق هذا على الجميع؟ إن التأمل ، ذلك الفضاء الذهني ، ليس لا شيء . فهو يتطلب طاقة حقيقية وتركيز (وبالتالي الطريق الأسهل للمسافة الفيزيائية) . فبينما ربما يكون شخص مثل هولمز أو داليو قادراً على الغوص في التبلد بفاعلية كبيرة ، فإنني أراهن أن واتسون سيصارع . فمع عدم وجود شيء آخر ليشغل باله ، فإن تنفسه وحده من المحتمل ألا يكون كافياً للاحتفاظ بكل تلك الأفكار في الاختيار . من السهل أن تبعد نفسك بإشارات مادية من ان تعتمد على دماغك بمفرده .

لحسن الحظ ، وكما ذكرت في السياق ، فليس من الضروري أن يكون التأمل شيئاً بلا تعبير وأجوفاً . ففي التأمل يمكننا أن نركز على شيء من الصعب الإمساك به كالنفس أو المشاعر أو أحاسيس الجسد إلى استثناء كل شيء آخر . لكننا نستطيع أيضاً استخدام ما يعرف بالتصور ، وهو التركيز على صورة ذهنية محددة ستبدل ذلك الفراغ بشيء أكثر ملموساً ويمكن الوصول إليه . عد للحظة إلى «كلب عائلة باسكرفيل» حيث تركنا هولمز عائم فوق مستنقعات ديفونشير . إن ذلك أيضاً تأمل ، ولم يكن فارغاً أو بلا هدف أو خالٍ

من الصور العقلية على الإطلاق . فهو يتطلب ذات التركيز الذي يتطلبه أي تخيل ، ولكنه بطرق أكثر ودية ويمكن بلوغها . لديك خطة محددة ، شيء يمكنك إشغال دماغك به والاحتفاظ بالأفكار التطفلية جانباً . شيء يمكنك تركيز طاقتك عليه أكثر حيوية وتعدد أبعاد من ارتفاع نفسك وانخفاضه . والأكثر من ذلك أنه يمكنك التركيز على الحصول على المسافة التي يسميها تروب بالافتراضية لبدء التفكير بالـ«إذا» والـ«ماذا إذا» .

حاول هذا التمرين . أغلق عينيك ، (أغلقها حين تهني قراءة التعليمات) . فكر في حالة معينة شعرت فيها بالغضب أو العدائية ، على سبيل المثال أحدث نزاع لك مع صديقك مقرب . هل لديك لحظة في دماغك؟ تذكرها بقدر ما تستطيع كما لو كنت تمر بها مجدداً . عندما تنهي ، أخبرني كيف شعرت ، وأخبرني قدر الاستطاعة ما الذي لم يحدث بشكل جيد . من الملام؟ ولماذا؟ وهل تعتقد أنه شيء يمكن إصلاحه؟

أغمض عينيك مجدداً وتخيل ذات الحالة ، واكن أريدك الآن أن تتخيل هذا الأمر يحصل مع شخصين وليس معك . أنت فقط ذبابة صغيرة على الحائط تنظر إلى المشهد وتدون ملاحظاتك . ولك الحرية للتنقل في كل الاتجاهات والملاحظة من كل الزوايا ، ولن يراك أحد . مرة أخرى ، أخبرني بشعورك عندما تنهي ، ثم أجب عن ذات السؤال كما سبق .

لقد أنهيت لتوك تمريناً كلاسيكياً في الإبعاد الذهني من خلال التصور . إنها عملية لتصوير شيء بشكل واضح لكن من مسافة وبالتالي من منظور مختلف عن الفعلي الذي خزنته في ذاكرتك . من السيناريو الأول إلى الثاني تكون قد انتقلت من ذهنية مادية

إلى مجردة ، ومن المحتمل أنك أصبحت أهدأ عاطفياً وترى أشياء لم ترها المرة الأولى ، وربما حتى تخرج بذاكرة معدلة قليلاً لما حصل . في الحقيقة ، يمكن أن تصبح أكثر حكمة وأفضل في حل المشاكل غير ذات الصلة بالسيناريو محط السؤال . (وستكون تمارس شكلاً من أشكال التأمل . أمر مخادع ، أليس كذلك؟)

وضح عالم النفس إيثان كروس أن هكذا إبعاد ذهني (السيناريو أعلاه مأخوذ من إحدى دراساته) ليس جيداً فقط للتحديد العاطفي ، ولكن بإمكانه أيضاً تحسين حكمتك فيما يتعلق بالجدلية (إدراك التغيير والتناقضات في العالم) والتواضع الفكري (مثلاً معرفة محدداتك الخاصة) ، كما ويجعلك أكثر قدرة على حل المشاكل واتخاذ الخيارات . عندما تبعد نفسك ، فإنك تبدأ بمعالجة الأشياء بأكثر شمولية ورؤية روابط لم يكن بإمكانك رؤيتها من مسافة أقرب . بكلمات أخرى ، أن تكون أكثر حكمة يعني أن تكون أكثر تخيلاً . ربما لا يؤدي هذا إلى «لحظة وجدتها» ولكنه سيقود إلى التبصر . ستفكر كما لو قمت فعلياً بتغيير مكانك بينما تبقى جالساً في كرسيك .

يعقوب راينو ، وهو مهندس كهربائي ، كان واحداً من أكثر المخترعين موهبة وإنتاجاً في القرن العشرين . ومن بين براءات الاختراع المبتن والثلثين الخاصة به في الولايات المتحدة آلة فرز الحروف الأوتوماتيكية التي لا زالت الخدمة البريدية تستخدمها لفرز البريد ؛ آلة ذاكرة مغناطيسية مهدت لظهور محرك القرص الصلب وذراع الفونوغراف الثابت . فما هي الحيل التي ساعدت على استدامة إبداعه المميز وإنتاجيته؟ لا شيء سوى التصور . وكما أخبر ذات مرة عالم النفس ميهالي سيكزنتمهالي ، أنه حيثما توجد

مهمة صعبة أو تتطلب وقتًا أو ليس لها إجابة واضحة ، فإنني «أظهار كما لو أنني في سجن . وحين أكون في السجن فإن الوقت ليس له أثر . بكلمات أخرى ، إذا كان الأمر يتطلب أسبوعًا لفصل هذا ، فإنه سيستغرق اسبوعًا . ما الذي عليّ فعله أيضًا؟ سأظل هنا لعشرين سنة . أترى؟ إنه نوع من الخدع الذهنية ، وإلا ستقول : «يا إلهي! إنها لا تعمل» ثم ترتكب الأخطاء . بأسلوبى ، أنت تقول إن الوقت ليس له نتيجة على الإطلاق» . لقد ساعد التصور رينبو على تحويل عقليته إلى أخرى حيث كان قادرًا على معالجة الأشياء التي كانت تجتاحه مانحًا الفضاء التخيلي المطلوب وهكذا حل مشكلة ليحصل .

إن هذه التقنية منتشرة ، حيث أن الرياضيين غالبًا ما يتصورون عناصر محددة من لعبة أو يتحركون قبل إنجازها فعليًا معالجين إياها في أدمغتهم قبل أن يقوموا بذلك على أرض الحقيقة . فلاعب التنس يتصور الضربة قبل أن تغادر الكرة يده ، ولاعب الغولف يرى مسلك الكرة قبل أن يرفع العصا . يستخدم المعالجون السلوكيون المعرفيون هذه التقنية لمساعدة الناس الذين يعانون من الرهاب أو حالات أخرى للاسترخاء وليكونوا قادرين على معاشة تجارب دون تجربتها فعليًا . فعالم النفس مارتن سيليمان يقول بأنها ربما تكون الأداة الوحيدة الأكثر أهمية لتبني عقلية أكثر خيالاً وحدسًا . حتى أن الأمر يذهب به ليقترح أنه عن طريق المحاكاة البصرية المتكررة «يمكن أن يصبح الحدس قابلاً للتعليم بشكل عملي وبنسبة كبيرة» . كيف يتم ذلك للمصادقة عليه؟

إن المسألة كلها تتعلق بخلق مسافة مع الدماغ عبر التصور الفعلي لعالم ما كما لو كنت تراه وتعيشه فعليًا . وكما قال

الفيلسوف لودفيغ فيتغنشتاين : « لا تفكر ولكن انظر » وذلك جوهر التصور ؛ أي تعلم النظر داخليًا وخلق سيناريوهات وبدائل في دماغك . والنظر إلى الأشياء غير الحقيقية كما لو كانت حقيقية . هذا يساعده على رؤية ما وراء الواضح وعدم ارتكاب أخطاء ليستريد أو جريجسون من خلال التعاطي مع السيناريو الموجود أمامك فقط أو ذلك الذي تريد رؤيته فقط . إنه يفرض الخيال لأنه يتطلب استخدامه .

إن هذا أسهل بكثير مما قد تظنه . في الحقيقة إن الأمر برمته هو ما نقوم به بشكل طبيعي عندما نحاول استرجاع أمر ما في ذاكرتنا ، حتى أنه يستخدم الشبكة العصبية ذاتها ، واللحاء الجانبي المؤقت والفصوص الجدارية الوسطية والجانبية والفص الصدغي الذي هو منزل الحصين . ما عدا أنه بدلاً من تذكر ذاكرة تمامًا ، فإننا نراوغ حول تفاصيل من تجربة لخلق شيء لا يحصل فعليًا ، سواء أكان مستقبلًا غير موجود بعد أو ماضي مغاير . إننا نختبره في أدمغتنا بدلاً من أن يتوجب علينا تجربته على أرض الواقع . وبفعل هذا فإننا نحصل على ذات الشيء الذي نحصل عليه عن طريق المسافة الفيزيائية ؛ أي أننا نفصل أنفسنا من الحالة التي نحاول تحليلها .

إن هذا هو التأمل بشكل أو آخر . عندما نرى هولمز في « وادي الخوف » ، فإنه يطلب إجراء فيزيائي في المكان ، وهو دفع فوري فعلي لدماغه من العالم الخارجي . لكن ذات التأثير يمكن إنجازه بدون أن يتوجب علينا الذهاب لأي مكان ، من وراء مكتبك لو كنت داليو أو كرسيك إذا كنت هولمز أو أي مكان آخر ربما تجد نفسك فيه . كل ما عليك فعله هو أن تكون قادرًا على تحرير الفضاء اللازم في

دماغك ، اجعله قماشاً أبيضاً ، ثم يمكن أن يكون عالم الخيال برمته طبقك .

الحفاظ على استدامة خيالك

أهمية الفضول

ذات مرة ، حدثنا شارلوك هولمز على أن نحافظ على عليّة دماغنا نظيفة وناضرة وذلك بإخراج الخردة عديمة الفائدة وإدخال صناديق منظمة بدقة غير مزدحمة بأشياء عديمة الفائدة . ولكن الأمر ليس بتلك البساطة ، فلماذا يعرف هولمز على سبيل المثال في «بداة الأسد» عن أنواع غامضة من قنديل البحر في زاوية دافئة من المحيط؟ من المستحيل توضيح هذا بموجب المعايير الصارخة التي يفرضها مبكراً . وكما مع غالبية الأشياء ، من الافتراض أن هولمز كان يبالغ من أجل التأثير . مرتبة وغير مزدحمة ، نعم ، ولكن ليست مبهرجة . إن عليّة دماغ تضم فقط ضرورات نجاحك المهني ستكون عليّة كثيبة قليلاً ، وبالكاد ستحتوي أية مواد للعمل بها وستكون من الناحية العملية غير قادرة على القيام بأي تبصر عظيم أو خيال .

كيف يشق قنديل البحر طريقه إلى قصر هولمز؟ إن الأمر بسيط . لا بد أن هولمز عند نقطة ما قد أصبح فضولياً ، تمامًا كما أصبح فضولياً بشأن التراتيل وكما أصابه الفضول لإقناع الشرطة البريطانية بأن البروفسور موريارتي ليس من المحتمل أن يكون جيداً وكما يقول للمفتش ماكدونالد في «وادي الخوف» حين يرفض عرض هولمز لقراءة كتاب عن تاريخ المنزل : «عزيزي ماك من أساسيات المهنة» .

إن تفاعل الأفكار والاستخدامات غير المباشرة للمعرفة فوائد استثنائية . الوقت والوقت مجدداً ، يصبح هولمز فضولياً ويدفعه فضوله ليجد المزيد . وال«مزيد» تدس بعيداً في صندوق غامض ولكنه مصنف في عليا دماغه .

ولأن ذلك ما نخبرنا به هولمز بشكل رئيسي ، فإن لعلية دماغك مستويات من التخزين .

هناك فرق بين المعرفة الفاعلة والسلبية ، بين تلك الصناديق التي تحتاجها للوصول بانتظام كأمر مفروغ منه وتلك التي ربما تحتاجها للوصول ذات يوم ولكن لا تتطلع إليها بالضرورة بشكل منتظم . إن هولمز لا يطلب منا التوقف عن الفضول والحصول على قناديل البحر ، ولكنه يطلب منا أن نحافظ على المعرفة الفاعلة نظيفة وواضحة ، وأن المعرفة السلبية بطريقة نظيفة وواضحة في صناديق مسماة بشكل جيد في المجلدات والأدراج الصحيحة

إن الأمر ليس أنه علينا الذهاب بعكس تحذيره السابق فجأة والتعامل مع حالتنا الذهنية الثمينة الحقيقية مع غير المرغوب فيها . الأمر ليس كذلك على الإطلاق ، إننا فقط لا نعرف دائماً متى لا يكون شيء بدا للوهلة الأولى أنه يشبه غير المرغوب فيه ليس مرغوباً فيه على الإطلاق ولكنه إضافة مهمة لترسانتنا الذهنية . لذا علينا إبعاد تلك البنود بشكل آمن للاستخدام المستقبلي . حتى إننا لا نحتاج لتخزين البند كاملاً ، وإنما فقط أثر لما كان ، وتذكير سيسمح لنا بإيجاده مرة أخرى . تماماً كما يبحث هولمز عن تفاصيل قناديل البحر في كتاب قديم بدلاً من معرفتها على أنها أمر مفروغ منه . إن كل ما يحتاج فعله هو تذكر أن الكتاب والمرجع موجودة .

إن عليا الدماغ المنظمة ليست عليا ثابتة . فالتخيل يسمح لك

بعمل المزيد من فضائك الدماغى أكثر مما كان بإمكانك عمله مسبقاً . والحقيقة أنك لا تعرف تمامًا ما هو العنصر ومتى ربما ينتهي به المطاف ليكون أكثر فائدة مما كنت تظنه .

وهنا تحذير هولز المهم بأكمله : إن أكثر البنود مفاجئة يمكن أن ينتهي بها المطاف لتكون مفيدة بأكثر الطرق دهشة . عليك أن تفتح لدماغك للمدخلات الجديدة وإن بدت غير ذات صلة .

وذلك حيث تدخل عقليتك العامة . هل هناك انفتاح دائم على المدخلات بغض النظر عن مدى غرابتها أو كونها تبدو غريبة بالمقارنة مع وجود اتجاه لاستبعاد أي شيء ربما يكون مشتتًا؟ هل ذلك الانفتاح يشكل منهجك المؤلف والطريقة التي تدرب نفسك على التفكير بها والنظر من خلالها للعالم؟

بالممارسة ربما نصبح أفضل في استشعار ما قد يكون أو لا يكون مفيدًا وما نخزنه بعيدًا لأجل الاستخدام المستقبلي وما نخرجه في الوقت الحالى . وما ربما يبدو للوهلة الأولى أنه حدس بسيط هو فعليًا أكثر من ذلك ؛ معرفة مبنية فعليًا على ساعات غير معدودة من التدريب ، ومن تدريب نفسك على أن تكون صريحًا ، ودمج التجربة في دماغك حتى تصبح مطلعًا على الأنماط والاتجاهات التي تميل تلك التجارب لأخذها .

تذكر تجارب الارتباطات البعيدة تلك حيث كان عليك أن تجد كلمة يمكن أن تستكمل الأجزاء الثلاثة من مجموعة؟ بطريقة ما ، يحيط ذلك بغالبية الحياة ؛ أي سلسلة من الارتباطات البعيدة التي لا تراها ما لم تخصص الوقت للتوقف والتخيل والتفكير . إذا كانت عقليتك تخشى الإبداع ، حتى ولو بشكل لا شعوري ، فإنك ستواجه صعوبة أكبر لتكون مبدعًا . ولن تكون أبدًا مثل هولز مهما

حاولت . ولا تنسى أن هولمز كان متمرداً ، وذلك ما جعل منهجه قوياً

يصل هولمز إلى صميم المسألة في «وادي الخوف» عندما يخاطب واتسون قائلاً : «يجب ألا يكون هناك مزيج من الأحداث لا تستطيع فطنة الإنسان تصور تفسير لها . ببساطة كتمرين ذهني دون تأكيد على صحته ، دعني أشير إلى خط ممكن من التفكير . إنني أعترف أنه مجرد تخيل ، ولكن كم مرة يكون التخيل أم الحقيقة؟»

الجزء الثالث

فن الاستنتاج

الفصل الخامس التنقل في علية الدماغ؛

الاستنتاج من الحقائق

تخيل أنك هولمز ، وأنا ماريا زبون محتمل . لقد أمضيت المئة صفحة الغربية السابقة بالتعرض للمعلومات بالقدر الذي ترغب به لو كنت تلاحظني أثناء تواجدي في غرفة الجلوس الخاصة بك لبعض الوقت . خذ دقيقة للتفكير بما ربما تعرفه عني كشخص . ما الذي تستطيع استنتاجه بناء على ما كتبت؟

لن أمر على قائمة كافة الإجابات المحتملة ، ولكن هنا واحدة لجعلك تتوقف : كانت أول مرة سمعت بها اسم شارلوك هولمز بالروسية . تلك القصص التي كان أبي يقرأها لنا أثناء اجتماعنا حول موقد النار ، وكانت بالتالي ترجمات روسية وليست الإنجليزية الأصلية . إنك ترى أننا جئنا حديثاً للولايات المتحدة ، وعندما يقرأ لنا فإنه يفعل باللغة التي تستخدمها عائلتي حتى هذا اليوم في الحديث مع بعضنا البعض في المنزل . فالكسندر دوما وهنري رايدر هاجارد وجيروم كلابكا جيروم والسيد آرثر كونان دويل هم أشخاص سمعت أصواتهم للمرة الأولى بالروسية

ماذا يعني هذا بالنسبة لأي شيء؟ كان هولمز سيعرف دون أن يتوجب عليّ إخباره ، وكان سيقوم باستنتاج بسيط بناء على الحقائق المتوفرة مشبعاً بعض الشيء بتلك الجودة التخيلية التي

تحدثنا عنها في الفصل الأخير . وكان سيدرك أنني ربما لم أكن لأحصل على مواجهتي الأولى مع أساليبه بأي لغة ما عدا الروسية . ألا تصدقني؟ إن كافة العناصر متوفرة ، أنا أعد . وفي نهاية هذا الفصل عليك أن تكون أيضاً في موضع لاتباع هولمز في دمجها معاً في التفسير الوحيد الذي يناسب كل الحقائق المتوفرة . وكما يقول المحقق مراراً وتكراراً ، عندما تستنفد كافة السبل ، فإن ما يبقى ومهما يكن بعيد الاحتمال ، فإنه الحقيقة .

وبالتالي فإننا نتجه أخيراً إلى أكثر الخطوات خطفاً للبصر ، وهي الاستنتاج ؛ الخاتمة الكبرى والألعاب النارية في نهاية يوم عمل شاق واللحظة التي يمكنك عندها أخيراً إنهاء عملية التفكير الخاصة بك والوصول إلى الخاتمة واتخاذ القرار وعمل ما خططت عمله . كل شيء تم تجميعه وتحليله ، وكل ما تبقى هو النظر إلى ما يعنيه وإلى ما يلمحه ذلك المعنى بالنسبة لك ، وأن توجه التلميحات إلى نهايتها المنطقية .

إنها اللحظة التي ينطق فيها هولمز ذلك السطر الخالد في «الرجل المعوق» ؛ ابتدائي .

«لدي ميزة معرفة عاداتك عزيزي واتسون» قال هولمز . «حين تكون جولتك قصيرة فإنك تمشي ، وعندما تكون بعيدة فإنك تستخدم عربة . وكما أرى فإن حذاءك وإن كان مستعملاً ، إلا أنه ليس قدرًا على أي حال . لا أستطيع الشك في أنك حاليًا مشغول بما فيه الكفاية لتبرر استخدام العربة» .

«بممتاز» صرخت .

قال : «ابتدائي . إنه واحد من تلك الأمثلة حيث يمكن أن يصنع المفكر تأثيراً يبدو مميزاً لجاره لأن الأخير فقد النقطة البسيطة

التي هي أساس الاستنتاج»

ماذا يتضمن الاستنتاج فعلياً؟ إن الاستنتاج هو الإبحار الأخير لعلية دماغك ؛ تلك اللحظة التي تضع فيها كل العناصر التي ظهرت قبل ذلك معاً في كل واحد متماسك يصنع الإحساس بالصورة الكاملة ، فتهد العلية بطريقة منظمة ما جمعه بطريقة منهجة . إن ما يعنيه هولز بالاستنتاج وما يعنيه المنطق الرسمي بالاستنتاج ليسا ذات الشيء . فبالعنى المنطقي البحث ، الاستنتاج هو الوصول إلى مسافة محددة من مبدأ عام . ربما يكون أكثر الأمثلة شهرة على ذلك :

كل الناس هالكون

سقراط من الناس .

سقراط هالك .

لكن بالنسبة لهولز ، فهذه مجرد طريقة واحدة ممكنة للوصول إلى الخاتمة ، فاستنتاجه يتضمن طرق متعددة للتفكير ما دمت تتقدم من الحقيقة وتصل إلى إفادة لا بد وأن تكون صحيحة إلى استثناء بدائل أخرى . في الواقع إن بعض استنتاجاته يمكن تسميتها بمصطلحات المنطق استقراء . وكل الإشارات إلى المنطق الاستنتاجي أو الاستقرائي تستخدمها في المنطق الهولزي وليس المنطق الرسمي

تظل العملية بشكل أساسي ذاتها ، سواء أكانت حل جريئة أو اتخاذ قرار أو تصميم شخصي . فأنت تأخذ كل ملاحظاتك -أي محتويات العلية تلك والتي قررت تخزينها وإدماجها مع هيكلية عليتك الموجودة والتي بحثت سبل تطويرها وأعدت تشكيلها في خيالك- وتضعها بترتيب بدءاً من البداية دون ترك شيء خارجاً ،

وترى الإجابة الممكنة والتي تجمعها كلها وتجيّب سؤالك الأولي . أو لنضعها بمصطلحات هولزية ، إنك تضع سلسلة المنطق الخاصة بك وتختبر الاحتمالات حتى يكون ما تبقى هو الحقيقة . «تبدأ تلك العملية عند افتراض أنك عندما أزلت ما هو غير ممكن فإن ما تبقى وإن كان غير محتما ، فهو الحقيقة» إنه يخبرنا . «ربما يكون صحيحًا أن الكثير من التوضيحات تبقى ، حين تتم محاولة اختبارها واحدة بعد الأخرى حتى يكون لأحدها أو أكثر قدرًا كافيًا من الدعم لتكون مقنعة» .

وذلك في الأصل هو الاستنتاج أو ما يسميه هولز «المنطق السليم المنهج» . لكن الفطرة السليمة ليست كما هو شائع أو مباشرة كما ربما يرغب المرء لها أن تكون . عندما يحاول واتسون بنفسه محاكاة هولز ، فإنه غالبًا ما يجد نفسه قد وقع في الخطأ ، وهذا طبيعي . حتى لو كنا دقيقين حتى هذه النقطة . فإن علينا الصد مرة أخرى خشية أن يقودنا نظام واتسون لنكون ضالين عند اللحظة الأخيرة .

لماذا يعد الاستنتاج أصعب بكثير مما يبدو عليه؟ لماذا غالبًا ما يتعثر واتسون عندما يحاول اتباع خطوات رفيقه؟ ما الذي يحصل في طريق منطقتنا النهائي؟ لماذا غالبًا ما يكون من الصعب بمكان التفكير بوضوح حتى عندما يكون لدينا كل ما نحتاجه للقيام بذلك؟ وكيف يمكننا التحايل على تلك المصاعب حتى يمكننا استخدام نظام هولز لمساعدتنا على الاستنتاج السليم والخروج من المستنقع ، وألا نكون مثل واتسون الذي يكرر أخطاءه مرارًا وتكرارًا؟

عصابة من ثلاثة من اللصوص سيثي السمعة توجه أنظارها إلى دير المزرعة ، وهو مكان إقامة السيد يوستاس راكينستال الذي يعد أحد أثرياء كينت . ذات ليلة ، وعندما افترض أن الجميع قد ناموا ، شق اللصوص الثلاثة طريقهم من خلال نافذة غرفة الطعام محضرين لنهب المكان كما فعلوا مع عقار مجاور قبل أسبوعين . لكن خطتهم أحبطت عندما دخلت السيدة راكينستال الغرفة ، حيث ضربوها بسرعة على رأسها وربطوها في إحدى كراسي غرفة الطعام . كان كل شيء سيبدو جيداً بالنسبة لهم لولا أن السيد راكينستال جاء ليتفحص مصدر الأصوات الغريبة ، ولكنه لم يكن محظوظاً كما زوجته ، حيث تعرض لضربة قوية بقضيب تذكية النار على رأسه وسقط ميتاً . على عجل ، أفرغ اللصوص الدولاب من الفضة ، ليس كذلك فحسب ، بل إنهم فتحوا زجاجة نبيذ لتهدئة أعصابهم .

هذا ما حصل بناء على شهادة الشاهد الحي الوحيد على الجريمة وهو السي ، السيدة راكينستال ، ولكن في «مغامرة دير المزرعة» ، القليل من الأمور في الحقيقة كما تبدو عليه .

تبدو القصة منطقية بما فيه الكفاية . وقد أؤكد الشرح الذي قدمته السيدة راكينستال من قبل خادمتها تيريزا ، وكل الإشارات تشير إلى أحداث جرت بالطريقة التي وصفتها . ولكن ثمة شيء ما لا يبدو صحيحاً بالنسبة لشارلوك هولمز ، حيث يخبر واتسون قائلاً : «كل موهبة أملكها تصرخ ضدها . إنه خطأ ، كل شيء خطأ ، أقسم أن ذلك خطأ» . ثم يبدأ بعد الأخطاء المحتملة ، وبينما يقوم بذلك

فإن التفاصيل التي تبدو معقولة تماماً إذا ما أخذت كل على حدة تبدأ الآن معاً بإلقاء ظلال من الشك على احتمالية القصة . ولم يعرف هولمز أنه محق إلا عندما وصل إلى كؤوس النبيذ ، فيقول لرفيقه : «الآن ، على رأس هذا تأتي حادثة زجاجات الخمر»

- «هل تراها بعيون دماغك؟»

- «أراها بوضوح» .

- «أخبرنا أن ثلاثة رجال شربوا بها ، هل يدهشك ذلك؟»

- «لماذا؟ لقد كان في كل منها نبيذ» .

- «تماماً ، لكن كان هناك رواسب في واحدة منا فقط . لا بد

وانك لاحظت ذلك . ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة لك؟»

- «الكأس الأخيرة التي تم ملؤها من المحتمل أنها تحتوي على

الرواسب» .

- «ليس كذلك على الإطلاق . لقد كان في الزجاج ، ومن

غير المقتنع أنه لم يسقط في أول زجاجتين بينما فعل في الثالثة .

هناك حلان ممكنان ، واثنان فقط . واحد أنه بعد أن تم ملء الكأس

الثانية تم تحريك الزجاج بعنف ، فكانت الرواسب من نصيب

الكأس الثالثة ، ولا يبدو ذلك محتملاً . لا ، لا . إنني متأكد أنني

على صواب» .

- «إذن ماذا تفترض؟»

- «أنه تم استخدام كأسين فقط ، ووضعت رواسبهما في

الثالثة من أجل الإيحاء بأن ثلاثة أشخاص قد تواجدا في

المكان» .

ما الذي يعرفه واتسون عن فيزيائية النبيذ؟ أجرؤ على التخمين

بأنه ليس بالشيء الكثير ، وعندما يسأله هولمز عن الرواسب فإنه

يأتي مباشرة بالإجابة أنه لا بد وأن الكأس الأخيرة التي تم سكب النبيذ بها هي التي تحتوي على الرواسب . يبدو السبب منطقيًا بما فيه الكفاية ، ولكنه لا يعتمد على شيء منطقي . أراهن على أن واتسون لم يفكر بها لولا أن هولمز شجعه ، ولكنه عندما سئل فإنه كان سعيدًا جدًا لخلق توضيح منطقي . إن واتسون لا يدرك حتى أنه فعلها ، ولو لم يوقفه هولمز للحظة لربما وضعها كحقيقة مستقبلية كدليل إضافي على صحة القصة الأولى بدلاً من كونها ثقبًا ممكنًا في نسيج القصة .

بتغيير هولمز ، إن منهج واتسون في السرد هو المنهج الطبيعي الغريزي . وباستبعاد إصرار هولمز ، فمن الصعب جدًا مقاومة رغبتنا في تشكيل سرد وإخبار القصص حتى لو لم تكن صحيحة . إننا نحب البساطة ، والأسباب المادية والأشياء التي تصنع الشعور الحدسي (حتى لو كان ذلك الشعور خاطئًا) .

على الجانب المقابل ، إننا لا نحب أي عامل يقف في طريقنا للحصول على تلك البساطة والطابع الملموس العفوي . فعدم اليقين والاحتمالات والعشوائية واللاخطية هي عناصر تهدد مقدرتنا على الشرح والشرح السريع المنطقي ، وبالتالي فإننا نقوم بأفضل ما لدينا لإزالة هذه العناصر عند كل منعطف . في كلا الحالتين إننا نستخدم القليل جدًا من الملاحظات . ففي حالة الكؤوس ، إننا نعلم فقط على تلك الزجاجات وليس على سلوك زجاجات أخرى مشابهة تحت ظروف مختلفة . وفي قضية كرة السلة ، غننا نعلم على الخط القصير (قانون الأعداد الصغيرة) وليس على التغيير المتأصل في لعبة أي لاعب . أو فلنأخذ مثالاً آخر ، حيث أننا نعتقد أن القطعة النقدية من المحتمل أن تسقط على الراس إذا

سقطت على الذيل لعدة مرات (مغالطة المقامر) مع نسيان أن التسلسلات القصيرة لا يشترط بالضرورة أن يكون لها توزيع النصف بالنصف الذي يمكن أن يظهر في المدى البعيد .

سواء أكننا نوضح سبب حدوث شيء ما أو نذكر الخواتم المتعلقة بالسبب المحتمل لشيء ما ، فإن حدسنا غالبًا ما يفشلنا لأننا نفضل أن تكون الأشياء قابلة للسيطرة ومتوقعة ومصممة برابطة سببية أكثر مما هي في الحقيقة .

من هذه التفضيلات تنبع الأخطاء في التفكير والتي نرتكبها دون التفكير لمرة ثانية . إننا نميل للاستنتاج كما لا يجب ، ونجادل - كما يقول هولمز-البيانات ، وغالبًا رغمًا عنها . عندما تكون الأشياء منطقية ، فمن الصعب جدًا رؤيتها بأية طريقة أخرى .

كان (أو . جي) محاربًا قديمًا في الحرب العالمية الثانية ، وكان أنيسًا وجذابًا وبارعًا ، وكان يعاني من أحد أشكال الصرع بشكل تعجيزي حتى أنه في عام ١٩٦٠ اختار أن تجرى له عملية جراحية صعبة في الدماغ . حيث تم قطع النسيج الرابط بين الشقين الأيمن والأيسر من الدماغ والذي يسمح لهما بالتواصل . في الماضي ، كان لهذا النوع من العلاج تأثير جوهري على حدوث النوبات ، والمرضى الذين لم يكونوا قادرين على الأداء صار بإمكانهم فجأة التمتع بحياة خالية من النوبات . لكن هل يمكن لهكذا تغير في الروابط الطبيعية للدماغ أن يكون مكلفًا؟

في وقت إجراء عملية أو . جي لم يعرف أحد الإجابة ، لكن روجر سبيري ، وهو عالم أعصاب في معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا وحصل على جائزة نوبل في الطب لعمله في مجال التوصيلية وانقسام الدماغ شك في احتماليته . ففي الحيوانات على الأقل

انقسام الجزء الثفني يعني أن نصفي الدماغ أصبحا غير قادرين على التواصل . فالذي حصل في أحد النصفين أصبح الآن سرّاً غامضاً بالنسبة للآخر ، فهل يمكن لهذا العزل الفعال أن يحدث لدى البشر أيضاً؟

إن أدمغتنا البشرية ليست أدمغة حيوانات ، فهي أكثر تعقيداً وذكاءً وتطوراً . وما من دليل على ذلك أفضل من المرضى مرتفعي الأداء والذين خضعوا للعملية . لم تكن تلك عملية جراحية دقيقة مباشرة . فهؤلاء المرضى ظهرت لديهم معدلات ذكاء سليمة وقدرات تفكير وفيرة . وبدت ذاكرتهم غير متأثرة وكانت قدراتهم اللغوية طبيعية .

لقد بدت الحكمة المدوية حدسية ودقيقة وإن كانت فعلياً خاطئة . لم يجد أحد على الإطلاق طريقة لاختبارها من الناحية العلمية ؛ لقد كانت قصة واتسون فقط منطقية وتم تأسيسها على ذات الأسس الواقعية الموثوقة حتى وصل المعادل العلمي لهولمز المشهد وهو مايكل غازانيغا ، وهو عالم أعصاب شاب في مختبر سبيري . وجد غازانيغا طريقة لاختبار نظرية سبيري -والتي تنص على أن قطع الجسم الثفني يجعل نصفي الدماغ غير قادرين على التواصل- وذلك باستخدام المنظار التومضي ، وهو أداة يمكنها تقديم مشيرات بصرية لفترات زمنية محددة ، وبشكل حاسم يمكنها فعل هذا للشق الأيمن أو الشق الأيسر بشكل منفصل . (إن هذا الغرض الأخير يعني أن أي معلومة بإمكانها الذهاب إلى أحد النصفين فقط)

عندما فحص غازانيغا أو . جي بعد العملية الجراحية ، كانت النتائج مذهلة . فذات الرجل الذي أبحر في اختباراتهِ قبل أسابيع

لم يستطع وصف شيء واحد عرض على مجاله البصري الأيسر .
عندما أومض غازانيجا بصورة معلقة إلى المجال الأيمن ، قام أو . جي
بتسميتها بسهولة . لكن عندما عرضت ذات الصورة إلى اليسار بدا
المريض وكأنه أصيب بالعمى . لقد كانت عيناه تعملان بشكل
كامل ، لكنه لم يستطع التعبير بالألفاظ ولا تذكر رؤية شيء .

ما الذي جرى؟ لقد كان أو . جي مرض غازانيجا من نقطة
الصفير ، والأول في خط طويل من الأشخاص الذين أشاروا جميعاً
في اتجاه واحد وهو أن نصفي دماغنا لم يُخلقا متساويين ، فأحدهما
مسؤول عن معالجة المدخلات البصرية - وهو النافذة الصغيرة على
العالم الخارجي إذا كنت تتذكر صورة شيل سيلفرستاين - بينما
النصف الآخر مسؤول عن تحويل ما يعرفه إلى ألفاظ - وهو ذلك
الجزء الذي يحتوي السلالم المؤدية لبقيّة البيت . عندما تم فصل
الجزئين ، لم يعد الجسر الذي كان يربطهما موجوداً . وبالتالي فإن
أي معلومة متوفرة لجانب ربما لا تكون كذلك ما دام الجانب الثاني
قلقاً . وبالتالي فإن لدينا عليتي دماغ منفصلتين تحتوي كل منهما
على مخزونها الخاص ومحتوياتها ، وتميز إلى حد ما بهيكليتها
الخاصة .

وهنا حيث تصبح الأمور مخادعة حقاً . فإذا ما عرضت صورة ،
ولنقل صورة مخلب دجاجة ، للجزء الأيسر من العين فقط (مما يعني
أن الصورة ستتم معالجتها من خلال النصف الأيمن للدماغ ؛ ذلك
الجزء البصري ذي النافذة) وصورة درب ثلجي للجانب الأيمن من
العين فقط (مما يعني أنه ستتم معالجتها من قبل الشق الأيسر من
الدماغ ذي سلالم التواصل) ، ثم اطلب من الشخص أن يشير إلى
صورة أكثر ارتباطاً بما رآه ؛ اليدان لا تتفقان : فاليد اليمنى (وهي

مرتبطة بالمدخل الأيسر) ستشير إلى مجرفة ، بينما ستشير اليد اليسرى (وهي مرتبطة بالمدخل الأيمن) إلى دجاجة . اسأل الشخص عن سبب إشارته إلى الشيثين الذي بدلاً من أن يرتبك سيخلق شرحاً مباشرة قائلاً إنك تحتاج لمجرفة لتنظيف قن الدجاج . لقد خلق دماغه قصة كاملة وسرد منطقي سيصنع معنى منطقي لتناقض يديه ، بينما في الحقيقة يعود كل الأمر إلى تلك الصور الصامتة .

يسمى غازانيجا الشق الأيسر من المخ بمفسر الدماغ الأيسر ، وهو يتحرك للحصول على أسباب وتفسيرات -حتى للأشياء التي ربما لا تملكها أو على الأقل غير متاحة بسهولة لأدمغتنا- بطريقة طبيعية وغريزية . لكن بينما يصنع المترجم الشعور بالكمال ، فإنه غالباً ما يكون مخطئاً .

إن مرضى الدماغ المنقسم يزودون بعض أفضل الأدلة العلمية على براعتنا في خداع الذات السردية ، في خلق تفسيرات منطقية ولكنها في الواقع بعيدة عن الحقيقة . لكننا لا نحتاج حتى لقطع الجسم الشفني حتى نتصرف بتلك الطريقة . فنحن نقوم بذلك طوال الوقت على أنه أمر مفروغ منه . أتذكر دراسة البندول تلك حول الإبداع حيث تمكن الأفراد من حل المشكلة بعد أن وضع المجرب أحد الزرديتين في وضع الحركة؟ عندما سئل الأفراد بعدها عن مصدر بصيرتهم ، ذكروا أسباب عديدة «لقد كان الشيء الوحيد المتبقي» . و«أدركت لتوي أن الحبل يمكن أن يتأرجح إذا ما ربطت جسماً ثقيلاً إليه» . و«فكرت في حالة التآرجح عبر نهر» و«تخيلت قروداً تتأرجح بين الأشجار» .

كل ما ذكر معقول بما فيه الكفاية ، ولكن لا يوجد بينها ما هو

صحيح ، فلم يذكر أحدهم حيلة المجرب . وحتى عندما تم إخبارهم عنها لاحقاً ، واصل ما يزيد على ثلثيهم إصرارهم أنهم لم يلاحظوها وأنه لم يكن لها تأثير على حلولهم ، على الرغم من أنهم توصلوا لهذه الحلول بعد ما معدله خمسة وأربعين ثانية من إعطائهم التلميح . الأكثر من ذلك أن الثلث الذين اعترفوا بإمكانية التأثير أثبتوا سرعة التأثير بالتوضيح الخاطئ . وعندما قدمت إشارة خاطفة (لف ثقل على الحبل) ، ولم يكن لها أي تأثير على الحل ، فقد اقتبسوا تلك الإشارة وليست الإشارة الفعلية التي ساعدتهم عن طريق تعزيز سلوكهم .

إن أدمغتنا تكون طروحات متسقة من العناصر المتباينة . فنحن لا نشعر بالارتياح إذا لم يكن لشيء سبب ، وبالتالي فإن أدمغتنا تحدد سبباً بطريقة أو أخرى دون الحصول على إذننا للقيام بذلك . بينما في حالة الشك فإن أدمغتنا تسلك أسهل الطرق عند كل مرحلة من مراحل عملية الاستدلال ، من تشكيل الاستدلالات حتى التعميمات .

إن أو . جي هو مثال أكثر تطرفاً لذات الشيء الذي يقوم به واتسون مع كؤوس المشروب . ففي كلا الحادتين هناك الهيكلية العفوية للقصة ثم اعتقاد ثابت بصحتها حتى عندما تتوقف على لا شيء أكثر من تماسكها الظاهري . إن تلك هي المشكلة الاستنتاجية الأولى .

رغم ان كل المادة موجودة لأخذها ، فإن احتمالية تجاهل بعضها هو أمر حقيقي ، سواء أكان عن دراية أم لا . فالذاكرة غير كاملة بدرجة عالية ، وهي تخضع للتغيير والتأثير بدرجة كبيرة . حتى ملاحظتنا بنفسها ، وبينما تعد دقيقة بما فيه الكفاية للبدء بها ، إلا

أن الأمر قد ينتهي بها بالتأثير على تذكرنا ، وبالتالي على استدلالنا الاستنتاجي أكثر مما نعتقد . علينا أن نكون حذرين خشية أن ندع شيئاً يستحوذ على انتباهنا سواء لأنه لا يتناسب إطلاقاً (البروز) أو فقط لأنه حصل (الحداثة) ، أو لأننا كنا نفكر بشيء غير ذي صلة على الإطلاق (التجهيز أو التأطير) والذي يزن كثيراً في نظرنا ويجعلنا ننسى التفاصيل الأخرى المهمة للاستنتاج السليم . علينا أيضاً أن نكون متأكدين من إجابتنا لذات السؤال الذي أثرناه في البداية ، ذلك السؤال الذي شكلته أهدافنا الأولية وتحفيزنا ، وليس الذي يبدو نوعاً ما أكثر بديهية أو سهولة أو صلة بالموضوع . وهنا نكون قد وصلنا نهاية عملية التفكير . لماذا عادة ما يستمر ليستريد وبقية المحققين في اعتقالات خاطئة حتى عندما تشير كافة الأدلة إلى العكس؟ لماذا يواصلون دفع قصصهم الحقيقية كما لو فشلوا في ملاحظة أنها تتمزق عند الندب؟ الأمر بسنيط حقاً . إننا لا نحب الاعتراف بأن حدسنا الأولي خاطئ ونفضل دحض الدليل الذي يتعارض معه . وربما لهذا السبب تعد الاعتقالات غير المشروعة ملازمة حتى خارج عالم كونان دويل .

إن الأخطاء الدقيقة أو الأسماء التي نعطيها إياها لا تهتم بقدر الفكرة العامة ، حيث أننا غالباً لسنا مدركين لاستنتاجاتنا ، ويصبح إغراء القفز إلى النهاية أقوى كلما اقتربنا من خط النهاية . إن قصصنا الطبيعية مقنعة بشكل لا يصدق حتى أنه من الصعب تجاهلها أو عكسها . وهي تقف في طريق إملاء هولمز للحس السليم الممنهج وللمرور على كافة البدائل واحداً بعد الآخر . وغربلة الضروري من العارض والممكن من المستحيل تى نصل الإجابة الوحيدة .

كتوضيح بسيط لما أعنيه ، فكر في الأسئلة التالية . أريد منك أن تكتب الإجابة الأولى التي تخاطر ببالك ، هل أنت جاهز؟

١ . يكلف المضرب والكرة ١,١٠ دولار معاً . يكلف المضرب دولاراً واحداً أكثر من الكرة ، فكم تكلف الكرة؟

٢ . إذا احتاجت ٥ ماكينات ٥ دقائق لصناعة ٥ قطع ، كم ستستغرق ١٠٠ ماكينة لصنع ١٠٠ قطعة؟

٣ . في بحيرة ، هناك بقعة من الزئبق يتضاعف حجمها كل يوم . إذا كانت هذه البقعة تحتاج ٢٨ يوماً لتغطي البحيرة كاملة ، فكم تحتاج من الوقت لتغطية نصف البحيرة؟

لقد خضعت لتوك لاختبار التأمل الإدراكي لشين فريديريك (سي . آر . تي) . إذا كنت كغالبية الناس ، فإن الاحتمالات أنك كتبت على الأقل واحداً من التالي : ١٠ دولار للسؤال الأول ، و ١١٠ دقيقة للسؤال الثاني و ٢٤ يوم للسؤال الثالث . في كل حالة أنت منحط ، ولكن ليس وحدك . حيث أنه عندما طرحت الأسئلة على طلاب من جامعة هارفارد ، كان المتوسط للإجابات الصحيحة هو ١,٤٣ (٥٧٪) من الطلاب كانت إجابة واحدة فقط لهم صحيحة أو لم تكن أي إجاباتهم صحيحة على الإطلاق) . وفي جامعة برنستون كانت النتائج مشابهة ، حيث كان متوسط الإجابات الصحيحة ١,٦٣ و ٤٥٪ حصلوا على صفر أو واحد . وحتى في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا كانت النتائج بعيدة عن الكمال ، حيث كان معدل الإجابات الصحيحة ٢,١٨ مع حوالي ٢٣٪ أو ما يقارب ربع الطلاب حصلوا على إجابة صحيحة واحدة أو ولا إجابة . إن هذه المشاكل «البسيطة» ليست مباشرة كما قد تبدو من الوهلة الأولى .

إن الإجابات الصحيحة هي ٥٠ دولار ، ٥ دقائق و٤٧ يوم على التوالي . إذا خصصت لحظة للتفكير ، فربما ستعرف لماذا هي كذلك ، وستقول لنفسك طبعًا ، كيف لم أفكر بذلك؟ الأمر بسيط ، لقد فاز نظام واتسون مجددًا . إن الإجابات المبدئية هي الإجابات الحدسية التي تخطر بالبال بسرعة وبشكل طبيعي إذا لم نتوقف للتفكير . حيث أننا ندع بروز عناصر محددة (وقد تم تشكيلها لتكون بارزة عمدًا) لتأخذنا بعيدًا عن التفكير بكل عنصر بشكل عادل وبدقة ، ذلك أننا نستخدم استراتيجيات حرفية طائشة - تكرر عنصر في الإجابة السابقة وعدم إعطاء انعكاس حول الاستراتيجية الأفضل فعليًا لحل المشكلة القائمة-بدلاً من الاستراتيجية الواعية المدركة (في الأصل ، استبدال سؤال بدهي بالسؤال الأكثر صعوبة والبديل الأكثر استهلاكاً للوقت فقط لأن الاثنين يبدوان ذي صلة) . إن تلك الإجابات الثانية تتطلب منك أن تقمع الاستجابة الحريصة لنظام واتسون وتسمح لهولمز بأن يلقي نظرة ؛ أي أن يعطي انطباعًا ويشبط حدسك الأولي ثم يحرره بناء على ذلك ، وهو ما لا نتحمس لفعله عادة خاصة نتعب من كل التفكير الذي حصل مسبقًا . من الصعب الحفاظ على ذلك التحفيز واليقظة من البداية حتى النهاية ، وأسهل بكثير بأن نبدأ المحافظة على مواردنا الإدراكية من خلال السماح لواتسون بتولي زمام الأمور .

في الوقت الذي يبدو فيه اختبار ال (سي . آر . تي) بعيدًا عن أية مشاكل حقيقية قد تواجهنا ، لكن يحصل وأن يكون متنبئًا بشكل لافت للنظر لأدائنا في أي عدد من الحالات التي يدخل فيها المنطق والاستنتاج حيز التنفيذ . في الحقيقة إن هذا الاختبار

غالبًا ما يكون إخباريًا أكثر من كونه قياسًا للمقدرة الإدراكية وترتيب التفكير والأداء التنفيذي . إن الأداء الجيد في هذه الأسئلة الثلاثة البسيطة يتنبأ بمقاومة لعدد من المغالطات المنطقية المشتركة التي تتنبأ إذا ما أخذت معًا بالهيكلية الأساسية للتفكير العقلاني . حتى أن ال سي . آر . تي يتنبأ بمقدرتنا على البرهنة من خلال نوع المشكلة الاستنتاجية الرسمية -السقراطية- التي رأيناها سابقًا . فإذا ما كان أداؤك ضعيفًا في الاختبار فإنك من المحتمل أن تقول إنه إذا كانت كل الكائنات الحية تحتاج الماء ، وكانت الورود تحتاج الماء فإن الورود كائنات حية .

إن القفز إلى النهايات وإخبار قصة انتقائية بدلاً من واحدة منطقية حتى مع توفر كافة الأدلة المصنفة جيدًا أمامك هو أمر شائع (وهو أمر يمكن تجنبه كما سترى بعد قليل) . إن الاستنتاج من خلال كل شيء حتى اللحظة الأخيرة وعدم السماح لتلك التفاصيل البسيطة بأن تزعجك ، وألا تدع نفسك تتلاشى عند الاقتراب من نهاية العملية هو أمر نادر إجمالاً . إننا نحتاج لتعلم الاستمتاع بأدنى مظاهر المنطق ، والانتباه لثلاثي يبدو ذلك الاستنتاج مملًا أو بسيطًا للغاية بعد كل الجهد الذي بذل فيه ، وتلك مهمة صعبة . في الأسطر الافتتاحية لـ «منزل الأشجار النحاسية» يذكرنا هولز أنه «بالنسبة للرجل الذي يحب الفن لكونه فنًا ، فإنه في كثير من الأحيان من الأقل أهمية بمكان الحصول على أقصى متعة ممكنة . وإذا ادعيتُ عدالة كاملة لفني فذلك لأنه شيء شخصي ، شيء يتجاوز نفسي . فالجرعة شائعة والمنطق نادر» . لماذا؟ هل المنطق عمل؟ إننا نعتقد أننا حسبناها ، ويكمن التحدي في تجاوز هذا التحامل .

تعلم الإخبار عن الحاسم من العارض

إذن كيف تبدأ من البداية وتتأكد من أن استنتاجك على الطريق الصحيح ولم ينحرف عن مساره قبل أن يبدأ حتى؟

في «الرجل المعوق»، يصف هولمز قضية جديدة لواتسون، وهي موت ضابط النظام جيمس باركلي. للوهلة الأولى تبدو الحقائق غريبة، فباركلي وزوجته نانسي قد سُمعا وهما يتجادلان في الصباح. كان الاثنان غالباً رقيقين، وبالتالي كان الجدل في حد ذاته حدثاً. ولكنه أصبح أكثر دهشة عندما وجدت خادمة المنزل باب الغرفة مقفلاً ولا يستجيب الموجودون فيها لطرقاتها. أضف لذلك اسماً غريباً سمعته لعدة مرات -ديفيد- ثم الحقيقة الأكثر بروزاً منها كلها. فبعد أن لمحج الحوذي في دخول الغرفة من دخول الغرفة من الخارج من خلال الأبواب الفرنسية المفتوحة، لم يتم العثور على مفتاح. كانت السيدة مستلقية جامدة على الأريكة، والرجل ميت، وكان هناك جرح خشن على الجهة الخلفية من رأسه، بينما كان وجهه ملتويًا في حالة رعب. ولم يكن المفتاح بحوزة أي منهما ليتمكننا من فتح الباب المقفل.

كيف يمكن جعل هذه العناصر المتعددة ذات معنى؟ يقول هولمز لواتسون: «لأجمع هذه الحقائق، قمت بتدخين عدة غليونات محاولاً فصل تلك الحقائق التي كانت ضرورية من تلك التي كانت مجرد عارضة». وتلك بجملته واحدة هي الخطوة الأولى نحو الاستنتاج السليم؛ أي فصل تلك العوامل الضرورية لإصدار حكمك عن تلك العارضة فقط، والتأكد من أن العناصر المركزية فحسب هي التي تؤثر على قرارك.

فكر في الأوصاف التالية لشخصين؛ بيل وليندا كل وصف

متبوع بقائمة من المهن والهوايات . ومهمتك هي وضع البنود في القائمة بناء على الدرجة التي يمثل فيها بيل أوليندا الفرد النموذجي للطبقة .

يبلغ بيل أربعة وثلاثين سنة من العمر؛ إنه ذكي ولكنه ضيق الخيال ، استحواذي ولا حياة فيه إجمالاً . في المدرسة ، كان قويًا في الرياضيات ولكن ضعيفًا في الدراسات الإنسانية والاجتماعية .

بيل طبيب يلعب لعبة البوكر كهواية .

بيل مهندس معماري .

بيل محاسب .

بيل يعزف موسيقى الجاز كهواية .

بيل مراسل صحفي .

بيل محاسب يعزف الجاز كهواية .

بيل يتسلق الجبال كهواية .

تبلغ ليندا واحد وثلاثين سنة من العمر . وهي عزباء وجريئة

ومشرقة .

لقد تخصصت في الفلسفة . كطالبة ، كانت مهتمة بقضايا

التمييز والعدالة الاجتماعية ، وشاركت في مظاهرات ضد انتشار

الأسلحة النووية .

ليندا معلمة في مدرسة ابتدائية .

ليندا تعمل في متجر وتلتحق بتمارين اليوجا .

ليندا ناشطة في الحركة النسوية .

ليندا أخصائية اجتماعية نفسية .

ليندا عضوة في رابطة الناخبات .

ليندا تعمل أمينة صندوق في بنك .

ليندا مندوبة بائعات التأمين .

ليندا أمينة صندوق في بنك وناشطة في الحركة النسوية .

بعد أن تقوم بالتصنيف ، انظر إلى زوجين من الجمل تحديداً :

بيل يعزف الجاز كهواية ، وبيل محاسب يعزف الجاز كهواية . وليندا

أمينة صندوق في بنك ، وليندا أمينة صندوق في بنك وهي ناشطة

في الحركة النسوية . أي العبارتين قمت بتصنيفها على أنها أكثر

احتمالية في كل زوج من الجمل؟

إنني على استعداد على أن أراهن أنها كانت العبارة الثانية في

كلا الحالتين . إذا كانت كذلك ، فإنك مع الأغلبية وترتكب خطأ

كبيراً

أخذ هذا التمرين حرفياً من ورقة من عام ١٩٨٣ لعاموس

تفيرسكي ودانيال كاثان . ولتوضيح نقطتنا الحالية ، فإنه عندما

يتعلق الأمر بفصل التفاصيل المهمة من تلك العارضة ، فإننا غالباً

لا ننجح بشكل جيد . عندما عُرضت هذه القوائم على عينة

الدراسة ، أصدروا ذات الحكم الذي تنبأت أنكم ستصدرونه .

حيث كان احتمال أن بيل هو محاسب يعزف الجاز كنوع من

الهواية أكثر من احتمال أنه يعزف الجاز كنوع من الهواية . وكذلك

كان احتمال أن ليندا أمينة صندوق في بنك وناشطة نسوية أكثر

من احتمال أنها كانت أمينة صندوق في بنك .

منطقيًا ، ليست أيًا من الفكرتين منطقية . فالتزامن لا يمكن أن

يكون أكثر احتمالاً من أي من أجزائه . إذا لم تفكر أنه من المحتمل

أن بيل عزف الجاز أو أن ليندا كانت أمينة صندوق في بنك لتبدأ

به ، ما كان عليك تغيير ذلك الحكم لمجرد أنك تعتقد أنه من

الممكن أن بيل كان محاسبًا وليندا ناشطة نسوية . إن عنصر أو حدث غير محتمل عندما يتم دمجهم مع آخر محتمل فإنه لا يصبح بشكل سحري محتملاً . ومع ذلك فإن ٨٧٪ و ٨٥٪ من المشاركين في سيناريو بيل وسيناريو ليندا على التتابع أصدروا ذلك الحكم بارتكاب مغالطة التزامن الشائنة .

حتى أنهم قاموا بها عندما كانت خياراتهم محصورة . وفي حال تم تضمين الخيارين الملائمين فقط (ليندا أمينة صندوق أو ليندا ناشطة نسوية وأمينة صندوق) ، فإن ٨٥٪ من المشاركين لا يزالون يصنفون الارتباط على أنه أكثر احتمالاً من الحالة الواحدة . حتى عندما تم إخبار الناس بالمنطق من وراء الجمل ، فإنهم انحازوا إلى منطق التشابه غير الصحيح (تبدو ليندا ناشطة نسوية ، لذا سأقول إنها من المحتمل أكثر أن تكون أمينة صندوق وناشطة نسوية) على حساب المنطق الممتد الصحيح (أمينات الصندوق النسويات هن مجموعة فرعية من أمناء البنوك ، لذا لا بد وأن ليندا أمينة صندوق ذات احتمالية أكبر من أنها ناشطة نسوية بالتحديد) في ٦٥٪ من الحالات . يمكن أن تعرض ذات المجموعة من الحقائق والخصائص علينا ، لكن الاستنتاجات التي نتوصل لها لا يشترط أن تكون متطابقة .

إن أدمغتنا لم تُخلق لتقييم الأشياء على ضوء ذلك ، وأوجه قصورنا هنا تحمل قدرًا لا بأس به من المعنى . عندما يتعلق الأمر بأشياء مثل الفرص والاحتمالية ، فإننا نميل لنكون مفكرين ساذجين (وبما أن الفرص والاحتمالية يلعبان دورًا كبيرًا في الكثير من استنتاجاتنا ، فإنه ليس من العجيب أن نفضل غالبًا) . يسمى هذا بالتنافر الاحتمالي ، وينبع كله من نفس القصص الواقعية التي

ننخرط فيها بشكل طبيعي وجوهري ، وهي نزعة قد تعود إلى تفسير عصبي أكثر عمقاً ، وإلى أو . جي والدماغ المنقسم نوعاً ما ببساطة ، بينما يبدو التنافر الاحتمالي متمركزاً في النصف الأيسر من الدماغ ، فإنه يبدو وأن الاستنتاج يفعل النصف الأيمن غالباً . بعبارات أخرى ، قد تكون الأمكنة العصبية لتقييم التداعيات المنطقية وتلك التي للنظر في معقوليتها التجريبية في أنصاف متعاكسة ؛ وهي بنية معرفية لا تفضي إلى تنسيق منطق الجملة مع تقييم الفرص والاحتمالية . وبالتالي فإن النتيجة أننا لا نكون جيدين دائماً في دمج مطالب مختلفة ، ونفشل غالباً في القيام بذلك بشكل صحيح في حين أننا نظل طوال الوقت مقتنعين أننا قمنا بذلك .

إن وصف ليندا كناشطة نسوية (وبيل كمحاسب) تتزامن بشكل جيد جداً حتى أننا نجد من الصعوبة بمكان رفض الصلة كأى شيء إلا أنها حقيقة مرة . المهم هنا هو فهمنا لمدى تكرار حدوث شيء في حياتنا الواقعية ، والفكرة الابتدائية المنطقية أن الكل ببساطة لا يمكن أن يكون أكثر من مجموع أجزائه . ومع ذلك فنحن ندع التوصيف العرضي يلون أدمغتنا حتى أننا نتغاضى عن الاحتمالات الحاسمة .

ما يتوجب علينا فعله هو شيء أكثر ثرية وركاكة . علينا أن نقيس احتمالية وقوع أي حادث منفصل في الواقع . في الفصل الثالث ، قدمت مفهوم نسب الأساس أو مدى تكرار ظهور شيء بين السكان ووعدت بالعودة إلى الموضوع عندما ناقشنا الاستنتاج . وذلك لأن نسب الأساس أو تجاهلنا لها في صميم الأخطاء الاستنتاجية كمغالطات الارتباط . إنها تعيق الملاحظة ولكنها ترمي

بك حقًا في الاستنتاج ، في الانتقال من كل ملاحظتك إلى النهايات التي تلمح لها لأن الانتقائية والتجاهل الانتقائي هنا سترمي بك بشكل كامل .

لمعرفة احتمالية انتماء بيل وليندا لأي من المهن ، علينا فهم انتشار المحاسبين وأمناء الصناديق وهواة موسيقى الجاز والناشطات النسويات الفاعلات والخصص الكلية في السكان بشكل عام . إننا لا نستطيع أخذ أنصارنا من السياق ، ولا يمكننا السماح لصلة واحدة ممكنة بأن تلقي بمعلومات أخرى ربما تكون لدينا بعيدًا .

لذا كيف يمكن مقاومة هذه المصيدة وتصنيف التفاصيل بشكل صحيح بدلاً من الغوص في غير ذات الصلة؟

ربما تأتي ذروة براعة هولمز في الاستنتاج في حالة أقل تقليدية من العديد من مساعيه في لندن . فذو الغرة الفضية ، الحصان الفائز بالجائزة في عنوان القصة ، يذهب في عداد المفقودين قبل سباق كأس ويسكس بأيام . في ذات ذلك الصباح ، يعثر على مدربه ميتًا على بعد بعض المسافة من الاسطبلات . تبدو جمجمته كما لو أنها ضربت بشيء صلب كبير . والشخص الذي كان يحرس الحصان تم تحديره ، ويتذكر القليل جدًا مما حدث في تلك الليلة

إن القضية مثيرة ، فذو الغرة الفضية واحد من أشهر الأحصنة في بريطانيا . ولذلك أرسلت الشرطة البريطانية المفتش جريجسون للتحقيق . ولكن جريجسون في حيرة من أمره ، حيث ألقى القبض على أكثر الأشخاص المشكوك بأمرهم ، وهو رجل شوهد حول الاسطبل مساء حادثة الاختفاء . ولكنه يقر بأن كل الأدلة ظرفية وبأن الصورة قد تتغير عند أية لحظة . ولهذا ، بعد ثلاثة أيام يشق شارلوك هولمز وواتسون طريقهما إلى دارتمور دون ظهور الحصان .

هل سيخوض الحصان السباق؟ هل سيعرض قاتل المدرب على العدالة؟ تمر أربعة أيام أخرى . إن الوقت هو صباح يوم السباق . فيطمئن هولمز السيد كولونيل روس بأن الحصان سيخوض السباق ، فلا داعي للخوف . ولن يخوض السباق فحسب ، بل سيربحه أيضاً ، وسيعرف قاتل مدربه قريباً .

سنعود لـ«ذو الغرة الفضية» مرات عديدة لدورها في علم الاستنتاج ، ولكن لنرى بداية كيف يقدم هولمز القضية لوatson . يقول هولمز : «إنها واحدة من تلك القضايا التي يجب أن يستخدم فيها فن المفكر لغربلة التفاصيل بدلاً من الحصول على أدلة جديدة . لقد أصبحت المأساة غير مألوفة جداً ، ومكتملة جداً وذات أهمية شخصية للعديد من الناس ذلك أننا نعاني من الكثير من الحدس والتخمين والافتراض» . بكلمات أخرى ، هناك الكثير من المعلومات التي يمكن البدء بها ، والكثير من التفاصيل التي نكون قادرين على البدء بعمل كل متناسق منها ، ومن فصل الضروري عن العارض . عندما تتكدس الكثير من الحقائق معاً ، تصبح المهمة مسببة للمشاكل على نحو متزايد . لديك الكثير من ملاحظاتك وبياناتك ولكن أيضاً كمية أكبر من المعلومات التي يحتمل أنها غير صحيحة من الأفراد الذين ربما لا يكونوا قد لاحظوا بشكل واع كما فعلت .

يصنغ هولمز المشكلة بهذه الطريقة : «إن الصعوبة تكمن في فصل إطار الحقيقة - الحقيقة المطلقة التي لا يمكن إنكارها- من تزيينات المنظرين والصحفيين . ثم بعد ترسيخ أنفسنا على هذا الأساس المعقول ، فإن واجبنا رؤية أي الاستدلالات يمكن استخلاصها وما هي النقاط الخاصة التي ينعطف حولها الغموض

بأكمله» . بكلماتٍ أخرى ، في الفرز من خلال مستنقع بيل وليندا ، ستكون قد قمنا بما هو جيد لنحدد في أدمغتنا الحقائق الفلية والتزيينات أو قصص أدمغتنا .

عندما نفصل الحقيقي عن العارض ، علينا ممارسة ذات الاهتمام الذي نوليه للملاحظة لتتأكد أننا سجلنا كافة الانطباعات بدقة . إذالم نكن حذرين ، ومدركين ومتحاملين أو تابعين ، فإن الانعطافات يمكن أن تؤثر حتى على ما نظن أننا لاحظناه في المقام الأول .

في واحدة من الدراسات الكلاسيكية ل إليزابيث لوفتس حول شهادات شهود العيان ، شاهد المشاركون فيلماً يصف حادث سيارة . ثم طلبت لوفتس من كل مشارك أن يقدر سرعة السيارات عند حدوث الحادث ؛ أي استنتاج تقليدي من بيانات متوفرة ، ولكن الحيلة هنا : أنه في كل مرة كانت تسأل السؤال ، كانت تغير صياغته بمهارة . فتنوع وصفها للحادث من خلال استخدام الفعل ، مثل السيارات تحطمت ، اصطدمت ، ارتطمت ، التصقت أو ضربت . ما وجدته لوفتس هو أنه كان لتعبيرها تأثير جذري على ذاكرة عينة البحث . ليس أن أولئك الذين شاهدوا الوضع «المحطم» قدروا سرعة أكبر من أولئك الذين شاهدوا الأوضاع الأخرى فحسب ، بل إنهم أيضاً كانوا أكثر احتمالاً ليتذكروا بعد أسبوع رؤية زجاج مكسور في الفيلم ، على الرغم من أنه فعلياً لم يكن هناك زجاج مكسور على الإطلاق .

يسمى هذا بتأثير المعلومات المضللة . فعندما نتعرض لمعلومات مضللة ، فإننا من المحتمل أن نتذكرها على أنها صحيحة ونأخذها بعين الاعتبار في عملياتنا الامتتاجية . ففي تجربة لوفتس ، لم

يتعرض أفراد عينة البحث لأي شخص كاذب بوضوح ، فقط مضلل . إن كل ما يقوم به اختيار الكلمات المحددة هو التصرف كإطار بسيط يؤثر على خط التفكير لدينا وحتى على ذاكرتنا . وهنا الصعوبة والحاجة الملحة تكمن في أن هولمز يصف التعلم لغرلة ما هو غير ذي صلة (وكل ذلك تخمين وسائل الإعلام) عن الحقائق الحقيقية الموضوعية الثابتة والقيام بذلك بتفكير وبشكل ممنهج . إذا لم تفعل ، فإنك قد تجرد نفسك تتذكر الزجاج المكسور بدلاً من الزجاج الأمامي السليم الذي رأيته .

في الحقيقة ، عندما تكون لدينا معلومات كثيرة وليست قليلة علينا أن نكون أكثر حذرًا . فشققتنا في استنتاجاتنا تميل للازدياد بالتزامن مع عدد التفاصيل التي نبنينا عليها ، خاصة إذا كان أحد تلك التفاصيل منطقيًا . إن قائمة أطول تبدو نوعًا ما أكثر معقولة حتى لو حكما على بنود مفردة على تلك القائمة على أنها أقل احتمالية بالنظر إلى المعلومات المتوفرة بين أيدينا . لذلك عندما نرى عنصرًا يبدو ملائمًا في اقتران ، فإننا من المحتمل أن نقبل الارتباط كاملاً حتى لو لم يكن القيام بذلك منطقيًا كثيرًا . فليندا أمينة الصندوق الناشطة النسوية وبيل المحاسب الذي يعزف الجاز هي أشياء ملتوية بطريقة ما . وكلما كانت ملاحظتنا أكبر والبيانات التي جمعناها أكثر ، كلما زادت احتمالية أن نضلل من تفصيل حاكم واحد .

على نحو مشابه ، كلما زادت التفاصيل العارضة التي نراها كلما قلت احتمالية اعتمادنا على الحاسمة وزادت احتمالية إعطائنا العرضية وزنًا لا مبرر له . فإذا ما تم إخبارنا قصة ، فإننا من المحتمل أن نجد لها مكتملة وصحيحة إذا أُعطينا تفاصيل أكثر ، حتى

لو كانت تلك التفاصيل غير مرتبطة بصحة القصة . لاحظت عالمة النفس روما فولك أنه عندما يضيف الراوي تفاصيل محددة وغير ضرورية لقصة مصادفة (على سبيل المثال فوز شخصين من ذات المدينة على جائزة اليانصيب) فإنه من المحتمل أن يجد المستمعون المصادفة مدهشة ومقنعة .

عندما نبرهن ، فإن أدمغتنا عادة ما يكون لديها نزعة للإمساك بأية معلومات تبدو مرتبطة بالموضوع في عملية استرجاع كل من الإشارات ذات الصلة وتلك التي تبدو مرتبطة نوعًا ما ، ولكنها قد لا تهم فعليًا . ربما نقوم بهذا لأسباب عديدة : الألفة أو إحساس بأننا شاهدنا هذا من قبل أو أنه علينا معرفة شيء حتى عندما لا نستطيع وضع إصبعنا عليه . ونشر التفعيل أو فكرة أن تنشيط عقدة ذاكرة واحدة صغيرة ينشط أخرى . ومع الوقت ، تنتشر الذكريات المحفزة بعيدًا عن الأصلية . وسبب آخر للقيام بذلك هو حادثة أو مصادفة بسيطة ، فنحن نفكر في شيء ما بينما نفكر فعليًا في أشياء أخرى .

فلو أن هولمز على سبيل المثال ظهر بشكل سحري من الكتاب وطلب منا ، وليس من واتسون ، أن نعدد التفاصيل المتعلقة بالقضية التي في متناول اليد ، فإننا سننقب في ذاكرتنا (ما الذي قرأته لتوي؟ هل كانت تلك القضية الأخرى؟) ونأخذ حقائق محددة من المخزن (حسنًا ، حصان مختفي ، ومدرب ميت ، وحارس مخدر ، ومشتبه محتمل مقبوض عليه . هل نسيت شيئًا؟) ، وفي العملية من المحتمل أن نشير أخرى قد لا تهم كثيرًا (أعتقد أنني نسيت تناول العشاء لأنني كنت محاصرًا بالدراما . يبدو الأمر كالمرة الأولى التي قرأت فيها «كلب عائلة باسكرفيل» ونسيت تناول

الطعام ، ثم ألمني رأسني وذهبت للنوم و .
إذا كانت النزعة للإفراط في التضمنين والتنشيط غير
مفحوصة ، فإن التنشيط ممكن أن ينتشر على نطاق واسع أوسع كثير
ما هو مفيد للغرض في متناول اليد ، ويمكن أن يتداخل مع المنظور
الصحيح المطلوب للتركيز على ذلك الهدف . ففي قضية ذي الغرة
الفضية ، بحث الكولونيل روس هولمز باستمرار ليفعل المزيد وينظر
إلى المزيد ويفكر في المزيد وألا يترك بكلماته «حجرة دون
تحريكها» . الطاقة والنشاط ، الأكثر يعني أكثر ، تلك هي مبادؤه
الحاكمة . إنه يحبط للغاية عندما يرفض هولمز ويختار بدلاً من ذلك
التركيز على العناصر الرئيسية التي حددها مسبقاً . لكن هولمز يدرك
أنه من أجل التخلص من العارض ، عليه القيام بأي شيء ولكن
مع أخذ المزيد والمزيد من النظريات والحقائق ذات الصلة وغير ذات
الصلة

إننا في الأصل نحتاج لنقوم بما يعلمنا إياه اختبار ال سي . آر .
تي ، أي أن نفكر ، نمنع ونحرر . نصل نظام هولمز ، نفحص الميل
لجمع التفاصيل بدون تفكير وبدلاً من ذلك نركز -بتفكير- على
التفاصيل الموجودة . وماذا عن كل تلك الملاحظات؟ علينا أن نتعلم
تقسيمها في أدمغتنا لزيادة المنطق الإنتاجي . علينا أن نتعلم متى لا
نفكر بها ومتى نستحضرها . وأن نتعلم التركيز والتفكير والتوقف
والتحريك وإلا قد ينتهي بنا المطاف في لا مكان من الأفكار التي لا
تعد ولا تحصى والتي تطوف في رؤوسنا . إن البقطة والتحفيز
أساسيان للاستنتاج السليم .

ولكن أساسي لا تعني بسيط ولا تعني كافي . حتى مع ذي
الغرة الفضية ، يجد هولمز مع تركيزه وحافزته من الصعب بمكان

غربلة كافة الخطوط الممكنة للتفكير . وكما يخبر واتسون عند تعافي ذي الغرة الفضية : «أعترف بأن أية نظريات كونتها من تقارير الصحف كانت خاطئة تمامًا ، ولكنها ضمت مؤشرات لو لم تغشاها تفاصيل أخرى أخفت أهميتها الحقيقية» . إن فصل الضروري عن العارض ، وهو العمود الفقري لأي استنتاج ، يمكن أن يكون صعبًا حتى لأكثر الأدمغة تدريبًا . ذلك هو السبب الذي يجعل هولمز لا يتصرف بناء على نظرياته المبدئية . فهو يفعل في البداية ما يحثنا على فعله بدقة ، أي أن نرتب الحقائق في صف مرتب وننتقل من هناك . حتى في أخطائه يكون متعمدًا ، وشبيه هولمز لا يسمح لنظام واتسون بالتصرف رغم أنه ربما يريد فعل ذلك .

كيف يقوم بهذا؟ إنه يمضي بوتيرته الخاصة متجاهلاً كل شخص يحث على التسرع . إنه لا يدع أي شخص يؤثر عليه ، ويقوم بما يحتاج للقيام به . وما بعد ذلك يستخدم حيلة أخرى بسيطة . إنه يخبر واتسون كل شيء ؛ وهو أمر يحدث بانتظام كبير في شريعة هولمز (وأنت ظننت أنها كانت مجرد آلة تفسيرية ذكية!) وكما يخبر الطبيب قبل أن يغوص في الملاحظات ذات الصلة : «لا شيء يفسر قضية كما يفعل طرحها أمام شخص آخر» . إنه ذات المبدأ الذي شاهدناه سابقًا ؛ أي أن طرح شيء ما بشكل كامل وعلناً يفرض التوقف والتأمل . ويفوض الذهن ويجبرك على النظر في كل فرضية بناء على مزاياها المنطقية ، ويسمح لك بالإبطاء من تفكيرك حتى لا ترتكب الأخطاء الجسيمة بحق ليندا النسوية . إنه يضمن أنك لا تدع شيئًا ما ذا فعالية حقيقية أن يمر لأنه ببساطة لا يجذب انتباهك بما فيه الكفاية أو لا يتناسب مع القصة العرضية التي قمت (عن دون وعي من غير شك) بخلقها في رأسك . إنه

يسمح لهولمز الذي بداخلك أن يستمع ، ويجبر واتسون الذي بداخلك ان يتوقف . وهو يسمح لك أن تؤكد بانك فهمت فعليًا ، لا أن تعتقد بانك فهمت مجرد أن الأمر بدا صحيحًا .

بالتالي ، إنه تمامًا من خلال طرح الحقائق لواتسون يدرك هولمز الشيء الذي سيسمح له بحل القضية . «لقد حدث بينما كنت في الحافلة حين وصلنا منزل المدرب أن الجدوى الهائلة من لحم الضأن بالكاري حصلت معي» . إن اختيار وجبة عشاء أمر من السهل الخطأ به لتفاهته حتى تطرحه مع كل شيء آخر وتذكر أن الطبق كان مصممًا بشكل متقن لإخفاء رائحة وطعم الأفيون المجفف ، وهو السم الذي تم استخدامه مع فتى الاسطبل . إن خصًا لم يعرف أنه سيتم تقديم لحم الضأن بالكاري لن يغامر في استخدام سم يمكن تذوقه . فالجاني إذن شخص كان يعرف ما الذي سيم تقديمه على العشاء . وذلك الإدراك يدفع هولمز لاستنتاجه الشهير : «قبل اتخاذ القرار حول ذلك السؤال ، كنت قد استوعبت دلالة صمت الكلب . لأن استنتاجًا صحيحًا واحدًا يقترح استنتاجات أخرى» . ابدأ من المسار الصحيح ومن المحتمل جدًا أن تظل عليه .

بينما أنت هناك ، تأكد أنك تتذكر كافة ملاحظاتك وكافة التعديلات الممكنة التي فكرت بها في فضائك التخيلي ، وتجنب تلك الحالات والأمثلة التي لا تعد جزءاً من الصورة . لا يمكنك التركيز فقط على التفاصيل التي تخطر بالبال بسهولة أو تلك المنطقية . عليك الحفر عميقاً . من المحتمل أنك لن تحكم على ليندا أنها أمينة صندوق في بنك من وصفها على الرغم من أنك ربما تحكم عليها أنها ناشطة نسوية محتملة . لا تدع ذلك الحكم الأخير يلون القادم ، وبدلاً من ذلك تقدم بذات المنطق الذي قمت به

مسبقاً مقيماً كل عنصر بشكل منفصل وموضوعي كجزء من كل متسق . أمينة صندوق محتملة؟ تماماً لا . ولذا ناشطة نسوية؟ إن ذلك أقل احتمالاً

عليك أن تتذكر ، مثل هولمز ، كل التفاصيل حول اختفاء ذي الغرفة الفضية ، مجرداً من كل التخمينات والنظريات التي ربما يكون دماغك قد شكلها عن غير قصد كنتيجة . لم يكن هولمز ليسمي ليندا بالناشطة النسوية وأمنة صندوق البنك ما لم يكن متأكداً من أنها كانت أمينة صندوق بالمقام الأول .

غير المحتمل ليس مستحيلاً

في «علامة الأربعة» تحصل عملية سرقة وقتل في غرفة صغيرة مقفلة من الداخل من الطابق العلوي لمبنى كبير . كيف حصل ودخل المجرم إلى الغرفة لارتكاب فعلته؟ يعدد هولمز الاحتمالات قائلاً لواتسون : «لم يُفتح الباب منذ الليلة الماضية ، والنافذة مقفولة من الجانب الداخلي . والإطار صلب ، ولا وجود للمفاصل على الجانب . لنفتحها ، ليس هناك أنبوب مياه بالقرب ، والسقف بعيد تماماً عن متناول الأيدي» . مكتبة الرمحي أحمد

ثم كيف يمكن الدخول إلى الغرفة؟ يغامر واتسون طارحاً تخمينه : «الباب مقفل والنافذة لا يمكن الوصول إليها . هل تم الأمر من خلال المدخنة؟»

فيرد هولمز : «لا ، فالنافذة المشبكية للمدخنة صغيرة جداً ، لقد فكرت في تلك الاحتمالية مسبقاً» .

فيسأل واتسون باستياء : «كيف إذن؟»

يهز هولمز رأسه قائلاً : «إنك لن تطبق مبدئي . كم مرة أخبرتك

أنه عندما تتخلص من المستحيل فإن ما يظل أيًا كان هو يمكن .
أيجب أن تكون الحقيقة؟ إننا نعرف أنه لم يدخل من الباب ولا
النافذة ولا المدخنة . ونعرف أيضاً أنه لم يكن له ليختفي في الغرفة
لأنه لا يوجد إمكانية للاختفاء . فمن أين أتى إذن؟»

ثم أخيراً يرى واتسون الإجابة : «لقد أتى من الثقب في
السقف» . فيجيب هولمز : «بالطبع هذا ما حصل» باعتبار ذلك
الثقب أكثر المداخل المحتملة منطقية .

إنه احتمال غير محتمل بشكل كبير ؛ هذا الافتراض الذي لا
يفكر فيه غالبية الناس تماماً كما واتسون . فعلى الرغم من أن مدرب
على منهج هولمز ، إلا أنه فشل في القيام بذلك دون حثه وتعزيزه .
تماماً كما نجد من الصعوبة بمكان فعل العارض من المهم بحق ، فإننا
نفضل غالباً في اعتبار غير المحتمل لأن أدمغتنا تعتبره مستحيلاً قبل
أن نعطيه حقه . والأمر متروك لنظام هولمز ليصدمنا خارج ذلك
السر السهل ويجبرنا على اعتبار أن شيئاً غير محتمل كمدخل
السطح ربما يكون الشيء الذي نريده لحل قضيتنا .

لوكرتيوس أطلق صفة الاحمق على الشخص الذي يعتقد أن
أعلى جبل موجود في العالم وأعلى جبل رآه هما نفس الشيء .
ونحن أيضاً ربما نسمى الشخص الذي يعتقد بذلك الشيء أنه أحمق
أيضاً ، ومع ذلك فنكون نقوم بذات الشيء في حياتنا اليومية
فالكاتب وعالم الرياضيات نسيم طالب يطلق عليه اسماً مستوحى
من الشاعر اللاتيني لوكرتيوس ، وهو (الاستخفاف اللوكرتيوسي) ،
بالعودة إلى أيام لوكرتيوس ، هل كان من الغريب جداً التفكير بأن
عالمك محصور فيما تعرفه؟ بطرق ما ، إن الأمر أكثر ذكاء من الأخطاء
التي نرتكبها اليوم بالنظر إلى سهولة المعرفة المتوفرة لدينا

ببساطة ، إننا ندع تجاربنا الشخصية الماضية تقود ما نراه ممكناً .
تصبح ذخيرتنا مرساة من نوع ما . إنها نقطة الانطلاق المنطقية
الخاصة بنا والمكان الذي نغادر منه لأي أفكار أبعد . وحتى لو
حاولنا التعديل من منظورنا الأناني ، فإننا لا نميل إلى التكيف بما
فيه الكفاية ، فنظل منحرفين بعناد في منهج نحو بشكل شخصي .
غنه ميلنا لسرد القصص بمعنى آخر ، حيث أننا نتخيل القصص
بناء على تلك التي مررنا بها وليس تلك التي لم نفعل .

والتعلم من السوابق التاريخية يهم قليلاً ؛ ذلك أننا لا نتعلم
بذات الطريقة من الاوصاف كما نفعل من خلال التجربة . إنه
شيء يعرف بـ«فجوة الوصف والتجربة» . فربما حدث وأن قرأ
واتسون عن مدخل جريء من السطح ، لكن لأنه ليس عنده تجربة
مباشرة منه ، فإنه لن يعالج المعلومات بذات الطريقة ومن غير
المحتمل أن يستخدمها بذات الطريقة عندما يحاول حل مشكلة
هل هو أحق لو كريتوس؟ نتيجة قراءته السطحية ، ربما أنه يزال لا
يؤمن بوجودها . وسيقول : «أريد أن أراها بعيني ، فهل أنا أحق؟»
ومع غياب سابقة مباشرة فإن غير المحتمل يقترب من المستحيل .

ومع ذلك فإنها مقدرة من المهم امتلاكها لأننا حتى لو فصلنا
الضروري عن العارض بنجاح ، وحتى لو جمعنا كل الحقائق
وتلميحاتها وركزنا على تلك ذات الصلة بحق ، فإننا سنضيق إن لم
ندع ادمغتنا تفكر بالسقف على أنه مدخل ممكن للغرفة . ولكن لو
فعلنا كما واتسون ووضعنا هذا الافتراض جانباً أو حتى فشلنا في
التفكير به ، فإننا لن نكون قادرين على استنتاج تلك البدائل التي
من شأنها التدفق مباشرة من تفكيرنا إذا سمحنا لها بذلك .

إننا نستخدم أفضل مقياس للمستقبل ، وهو الماضي . وهذا أمر

طبيعي ، ولكن هذا لا يعني أنه دقيق ، فالماضي غالباً لا يمنح مجالاً لما هو غير محتمل . إنه يحصر استنتاجنا في المعروف والمحتمل والممكن . ومن ذا الذي سيقول بأن الدليل إذا أخذ معاً وتم اعتباره بشكل صحيح لا يقود إلى بديل ما وراء هذه العوالم؟

لنعد للحظة لـ«ذو الغرة الفضية» . حيث يظهر شارلوك هولمز منتصراً - حيث يتم العثور على الحصان وكذلك على القاتل-ولكن ليس بعد التأخير الذي لا يعد معهوداً بالنسبة للمحقق العظيم . إنه متأخر في التحقيق (تأخر لثلاثة أيام لنكون دقيقين) خاسراً وقتاً ثميناً في مسرح الجريمة ، لماذا؟ إنه يفعل تماماً ما يوبخ واتسون على فعله : حيث يفشل في تطبيق المبدأ القائل بان غير المحتمل ليس مستحيلاً ، والذي يجب أخذه بعين الاعتبار إضافة إلى البدائل الأكثر احتمالية .

بينما ينطلق هولمز وواتسون إلى دارتمور للمساعدة في التحقيق ، يذكر هولمز بأنه مساء الثلاثاء طلب منه كل من مالك الحصان والمفتش جريجوري المساعدة في حل القضية . فيجيب واتسون المذهول قائلاً : «مساء الثلاثاء! والوقت الآن صباح الخميس ، لماذا لم تذهب بالأمس؟» فيجيب هولمز : «لأنني ارتكبت خطأ فادحاً عزيزي واتسون . الحقيقة أنني لم أستطع أن أصدق أنه من الممكن استمرار اختفاء أكثر الأحصنة تميزاً في لندن ، خاصة في مكان مسكون بشكل متناثر كشمال دارتمور .»

لقد رفض هولمز غير المحتمل على أنه مستحيل وفشل في التصرف في الوقت المناسب كنتيجة لذلك . بفعل هذا ، عكس تبادل هولمز-واتسون المعتاد جاعلاً توييخ واتسون مبرراً بشكل جيد وفي محله على نحو غير معهود .

حتى أفضل الأدمغة وأكثرها حدة فهي تخضع بالضرورة للتجارب الفريدة لأصحابها وتصور العالم . فبينما دماغ كما دماغ هولمز قادر على أخذ حتى أبعد الاحتمالات بالاعتبار ، إلا أن هناك أوقاتاً يصبح فيها محدوداً بأفكار مسبقة وبما هو متوفر لذخيره عند أية نقطة . باختصار ، حتى هولمز محكوم ببنية عليية دماغه .

يرى هولمز حصاناً ذا مظهر استثنائي مفقوداً في منطقة ريفية . كل شيء في تجربته يخبره بأن فقدانه لن يطول ، ومنطقه كالتالي : إذا كان الحصان أكثر حيوان مميز من هذا الصنف في كل بريطانيا ، إذن كيف يمكن أن يختفي في منطقة بعيدة حيث أماكن الاختفاء محدودة؟ بالتأكيد يمكن لأحدهم رؤية الحيوان ، حياً أم ميتاً ، والإخبار عنه . ويمكن ان يكون ذلك استنتاجاً رائعاً من الحقائق إذا كان صحيحاً . لكن اليوم الخميس ، والحصان مفقود منذ الثلاثاء ، ولم يصل أي إبلاغ عنه حتى الآن . فما الذي فشل هولمز في أخذه بعين الاعتبار إذن؟

لا يمكن أن يظل حصاناً مختلفياً ما دام يمكن التعرف عليه . إن احتمالية تنكر الحصان لم تخطر ببال المحقق العظيم ، ولو أنها فعلت لما شك في احتمالية بقاء الحيوان مختلفياً . ما يراه هولمز ليس ما هو موجود فقط ، فهو أيضاً يرى ما يعرفه . ولو أننا كنا سنشهد على شيء لا يتناسب مع المخططات السابقة بأية طريقة وليس له نظير في ذاكرتنا ، فإننا من المحتمل ألا نعرف كيف نشرحه ، أو ربما حتى نفشل في رؤيته ككل ، وبدلاً من ذلك نرى ما كنا نتوقعه .

فكر في الأمر كما إصدار معقد لأي من التفسيرات الشهيرة للإدراك البصري ، حيث نكون قادرين على رؤية شيء واحد بطرق

متعددة وبسهولة اعتماداً على سياق العرض . على سبيل المثال ،
فكر في هذه الصورة



هل ترى الرمز الذي في الوسط B أم ١٣؟ يظل الحافز ذاته ،
ولكن ما نراه هو مسألة توقع وسياق حيوان متخفي؟ ليس في
ذخيرة هولمز ، بغض النظر عن مدى امتداده ، وبالتالي فإنه لا يفكر
حتى في الاحتمالية . التوفر - من التجربة ومن الإطارات السياقية
والمراسي الجاهزة- تؤثر على الاستنتاج . فلن يكون بإمكاننا أن
نستنتج أن الإجابة ١٣ إذا أخذنا الـ A والـ B بعيداً ، كما أننا لن
نستنتج أن الإجابة ١٣ لو أنه لا توجد ١٢ و ١٤ ، حتى أنها لن تمر
من أدمغتنا على الرغم من أنها ممكنة بشكل كبير ، وهو مجرد
محتمل بالنظر إلى السياق المعطى . لكن ماذا لو تحول السياق
قليلاً؟ أو ماذا لو كان السطر المفقود حاضراً ولكنه مخفي فقط عن
مرآنا؟ من شأن ذلك أن يغير الوضع ، لكنه لن يغير بالضرورة
الخيارات التي نأخذها بعين الاعتبار .

ويشير هذا نقطة ممتعة أخرى ؛ وهي أن تجربتنا لا تؤثر على ما
تعتبره ممكناً فحسب ، بل وتوقعاتنا أيضاً تقوم بذلك . فهولمز كان
يتوقع أنه سيتم العثور على ذي الغرة الفضية ، وبالتالي نظر إلى
دليله بمنظور آخر سامحاً لاحتمالات محددة أن تنتقل غير
مفحوصة

ترفع خصائص الطلب رأسها القبيح مرة أخرى ، وهذه المرة فقط تأخذ ستار تحيز التأكيد ، وهذا واحد من أكثر الأخطاء شيوعاً والتي ترتكبها العقول المبتدئة وذات الخبرة على حد سواء .

منذ الطفولة المبكرة نبدو عرضة لتكوين تحيزات تأكيدية ولا اتخاذ قرارات قبل أن نقرر فعلياً ونستبعد غير المحتمل على أنه مستحيل بفترة طويلة . في دراسة سابقة حول هذه الظاهرة ، طلب من طلاب في الصف الثالث الابتدائي أن يحددوا أي معالم الرياضات الكروية مهمة لمستوى تكون الشخص . عندما قرروا (على سبيل المثال ؛ الحجم مهم ولكن اللون ليس كذلك) ، فهم إما فشلوا تماماً في إقرار أدلة منافية لنظرياتهم المفضلة (مثل الأهمية الفعلية للون أو تقلص الحجم) أو أنهم نظروا للأمر بطريقة انتقائية ومشوهة للغاية فسرت تفسيراً بعيداً أي شيء لا يتوافق مع أفكارهم الأولية . إضافة إلى ذلك فقد فشلوا في خلق نظريات بديلة ما لم يتم تعزيزهم لفعل ذلك ، وعندما تذكروا لاحقاً كلاً من النظرية والدليل ، لم يحسنوا تذكر العملية حتى أصبح الدليل أكثر تلاؤماً مع النظرية مما كان عليه في الواقع . بكلمات أخرى ، لقد أعادوا صياغة الماضي ليناسب منظورهم للعالم بشكل أفضل .

مع تقدمنا في العمر يصبح الأمر أسوأ ، أو على الأقل لا يتحسن على الإطلاق . والمراهقون أكثر احتمالية ليحكموا على الحجج ذات الجانب الواحد على أنها متفوقة على تلك التي تعرض جانبي قضية ما ، وأكثر احتمالية للتفكير بأن هكذا جدالات تمثل تفكيراً جيداً . ونحن أيضاً أكثر احتمالاً للبحث عن التأكيد والأدلة الإيجابية للنظريات والاعتقادات المؤسسة حتى عندما لا نكون مستثمرين فعلياً في تلك الفرضيات . في إحدى الدراسات ، وجد الباحثون أن

المشاركين اختبروا مفهوماً فقط من خلال النظر إلى أمثلة من شأنها أن تثبت لو أن ذلك المفهوم كان صحيحاً . وفشلوا في إيجاد أشياء من شأنها أن تظهره على أنه غير صحيح . أخيراً ، إننا نحمل تبايناً ملفتاً فيما يتعلق بقياسنا لأدلة فرضية ما ؛ حيث أننا نميل إلى زيادة تقديرنا لوزن أي دليل نفي سلبي ، وهي نزعة استغلها قراء الذهن المهينين لعصور عديدة . إننا نرى ما نبحت عنه .

في هذه المراحل الأخيرة من الاستنتاج ، فإن نظام واتسون سيستمر في منعه لنا من المضي حتى لو توفرت لدينا كافة البراهين وهو أمر حتمي عند هذه النقطة من العملية . ربما نكون لا نزال نضع النظريات قبل الأدلة ، ونسمح لتجاربتنا وفهمنا لما هو ممكن وما هو غير ممكن يلون رؤيتنا وتطبيقنا لذلك الدليل . إن تجاهل هولمز للإشارات في «ذو الغرة الفضية» كان سيضعه في الاتجاه الصحيح لأنه لا يعتبر أنه من الممكن أن يظل الحصان مختفياً . إنه تجاهل واتسون للسقف كخيار للمدخل المحتمل لأنه يعتبر أنه من غير الممكن أن بإمكان شخص دخول غرفة بتلك الطريقة . فربما تتوفر لدينا كافة الأدلة لكن ذلك لا يعني أننا حين نبرر فإننا سنأخذ بعين الاعتبار أن كل تلك الأدلة منطقية وسليمة وأمانا

لكن هولمز ، كما نعرف ، ينجح في الإمساك بخطئه وتصويبه أو جعله يُمسك له . وبمجرد أن يسمح لتلك الإمكانية غير المحتملة أن تصبح ممكنة ، ويتغير كامل تقييمه للقضية وكذلك الأدلة التي تصبح منظمة . وينطلق هو وواتسون لإيجاد الحصان وعدم إضاعة الوقت . وبالمثل فإن واتسون قادر على تصحيح سوء فهمه عندما يُدفع لفعل ذلك . حالما يذكره هولمز أنه مهما يكن شيء غير محتمل ، فإنه يجب أخذه بعين الاعتبار ، فيأتي مباشرة بالبديل

الذي يناسب الدليل ، وهو بديل كان قد استبعده تمامًا قبل لحظات .
إن غير المحتمل ليس مستحيلًا . وبينما نستنتج فإننا نكون
عرضة لذلك الاتجاه الإرضائي ، ونتوقف حين يكون هناك ما هو
جيد بما فيه الكفاية . وإلى أن نستنفذ الإمكانيات ونتأكد من أننا
قمنا بذلك ، فإننا لا نكون على بينة . فعلينا أن نتعلم كيف نمد
خبرتنا ونذهب إلى ما وراء غرائزنا الأولية . وعلينا أن نتعلم البحث
عن أدلة تؤكد ولا تؤكد ، والأهم من ذلك أن علينا النظر إلى ما وراء
المنظور الذي من الطبيعي جدًا أخذه ، أي منظورنا

علينا باختصار أن نعود إلى اختبار سي . آر . تي ذلك وخطواته ؛
أي أن نعطي انعكاسات حول ما تريد أدمغتنا فعله ، وأن نمنع ما لا
معنى له (وهو هنا السؤال فيما إذا كان شيء ما مستحيلًا بحق أو
مجرد غير محتمل) وتحرير منهجنا بناء على ذلك . لن يكون لدينا
دائمًا هولمز ليشجعنا ، لكن ذلك لا يعني أننا لا نستطيع تعزيز
أنفسنا من خلال تلك الذهنية التي قمنا بغرسها . بينما ربما لا نزال
غميل للتصرف أولاً ومن ثم التفكير ، وأن نستبعد خيارات قبل أن
نأخذها بعين الاعتبار حتى ، نستطيع على الأقل التعرف على
المفهوم العام : أي التفكير أولاً والتصرف لاحقًا ، ونحاول بأقصى
جهدنا الاقتراب من كل قرار بنظرة جديدة .

إن العناصر الضرورية موجودة جميعها (على الأقل إذا قمت
بعملك الملاحظاتي والتخيلي) وتكمن الحيلة فيما تفعله بها . هل
تستخدم كافة الأدلة المتوفرة وليس فقط ما تتذكره أو تفكر به أو
تواجهه؟ هل تعطىها كلها ذات الأهمية لتكون قادرًا بحق على
غريبة الضروري من العارض بدلاً من أن تنجر وراء عوامل أخرى
غير ذات صلة؟ هل تضع كل جزء بترتيب منطقي حيث تلمح كل

خطوة إلى الخطوة اللاحقة ويقود كل عامل إلى استنتاجاته وبالتالي لا تقع ضحية خطأ الاعتقاد بأنك فكرت في الأمر بشكل كلي في الوقت الذي لم تقم بفعل ذلك؟ هل تأخذ كل الطرق الممكنة بعين الاعتبار حتى تلك التي قد تبدو لك مستحيلة؟ وأخيراً هل أنت مركز ومتحفز؟ وهل تتذكر ماذا كانت المشكلة في المقام الأول أو هل تم إغراؤك لتخرج عن المسار أو لتتوقف لأجل مشكلة أخرى دون أن تعرف كيف أو لماذا؟

بداية لقد قرأت شارلوك هولمز بالروسية لأنها كانت لغة طفولتي ولغة كافة كتبي في مرحلة الطفولة . عد بتفكيرك إلى الأدلة اليت تركتها لك . لقد أخبرتك أن عائلتي روسية ، وأن أختي وأنا ولدنا في الاتحاد السوفييتي . وأخبرتك بأن أبي كان يقرأ لي القصص ، وأن الكتاب الذي كان يقرأ منه كان قديماً جداً حتى أنني أشك بأن والده كان يقرأ له منه . بأي لغة أخرى كان من الممكن أن يحدث هذا بمجرد أن ترى كل شيء موضوع معاً . لكن هل توقفت للتفكير في ذلك بينما كنت ترى كل جزء من المعلومات بشكل منفصل؟ أم لم يخطر ذلك ببالك بسبب عدم احتماليته؟ لأن هولمز كذلك ، حسناً ، ماذا عن الإنجليزية؟

لا يهم بأن كونان دويل كتب بالإنجليزية وهولمز بنفسه متجذر في الوعي باللغة الإنجليزية . لا يهم أنني الآن أقرأ وأكتب بالإنجليزية بالجودة التي كنت أنا فيها بالروسية . ولا يهم أنك ربما لم تواجه شارلوك هولمز روسي أو حتى فكرت في احتمالية وجوده . المهم هو ما هي المقدمات المنطقية وإلى أين تأخذك إذا أبقيتها غبير مرتبطة بنهاياتها المنطقية ، سواء أكانت أم لم تكن المكان الذي يستعد دماغك للذهاب إليه

الفصل السادس الحفاظ على علية الدماغ؛

التعليم لا يتوقف

كان سلوك مستأجر غير معتاد بشكل ملحوظ . فصاحبة السكن الذي يستأجره ، السيدة وارين ، لم تراه ولو لمرة واحدة لمدة عشرة أيام . فهو يظل دائماً في غرفته - ما عدا مساء أول يوم لإقامته حيث ذهب خارجاً وعاد إلى البيت في وقت متأخر - خاطياً ذهاباً وإياباً ، يوم في الداخل ويوم في الخارج . الأكثر من ذلك أنه عندما يحتاج شيئاً فإنه يطبع كلمة واحدة على ورقة ويتركها خارجاً : صابون ، كبريت ، الجريدة اليومية . فتقلق السيدة وارين وتشعر بأنه لا بد وأن أمراً خطأ يحدث ، لذا تنطلق لمشاورة شارلوك هولمز .

في البداية يكون لدى هولمز اهتمام قليل بالقضية . فمستأجر غامض بالكاد يكون شيئاً يستحق التحقيق في أمره . لكن شيئاً فشيئاً تبدأ التفاصيل بان تصبح مثيرة للاهتمام . بداية هناك أمر الكلمات المطبوعة ، فلماذا لا يكتبها بخط اليد بدلاً من ذلك؟ لماذا يختار هكذا وسيلة مرهقة وغير طبيعية للتواصل؟ ثم أن هناك أمر السيجارة التي أحضرتها السيدة وارين من باب المساعدة ، فبينما أخبرت صاحبة السكن هولمز بأن المستأجر ذو لحية وشارب ، يؤكد هولمز بأن رجلاً حليق الذقن فقط يمكنه أن يدخن هذه السيجارة . ومع ذلك ، ليس هناك الكثير للمواصلة به . لذا يخبر المحقق السيدة وارين بأن تخبره إذا ما حصل جديد .

وبالفعل يحصل شيء . ففي صباح اليوم التالي تعود السيدة وارين إلى شارع بيكر مع التعجب التالي : «إنها مسألة شرطة يا سيد هولمز . لن أتعاطى مع المزيد منها» حيث تمت مهاجمة السيد وارين وهو زوج مالكة السكن من رجلين وضعا معطفًا على رأسه وألقيا به في سيارة أجرة ليطلقا سراحه بعد حوالي ساعة من ذلك . والسيدة وارين تلوم المستأجر ، وترى الحل في إخراجه من المنزل في ذلك اليوم .

يقول هولمز : «ليس بهذه السرعة . لا تتسرعى . فقد بدأت أفكر في أن هذا الأمر ربما يكون أكثر أهمية مما بدا عليه من النظرة الأولى . من الواضح الآن أن هناك خطرًا يهدد حياة المستأجر لديك ، وواضح أيضًا أن أعداءه يتربصون به قرب باب بيتك ، فأخطأوا وأخذوا زوجك بدلاً منه في ذلك الصباح الضبابي ، وحين اكتشفوا خطأهم أطلقوا سراحه» .

في ظهيرة ذلك اليوم ، يسافر هولمز وواتسون إلى شارع «جريت أورمند» ليلقيا نظرة خاطفة على هوية الضيف الذي شكل وجوده هكذا ضجة . وخلال وقت قصير يراها ، لأنها كانت في حقيقة الأمر أنثى . لقد كان حدس هولمز صحيحًا ، فقد تم تبديل المستأجر . يوضح هولمز لواتسون قائلاً : «يبحث زوجان عن ملجأ في لندن من خطر فظيع جدًا وفوري ، ومقياسه هو صرامة الاحتياطات المتخذة» . «يرغب الرجل الذي لديه عمل عليه إنجازه بترك المرأة في أمان مطلق أثناء قيامه بعمله . إنها ليست مشكلة سهلة ، ولكنه تمكن من حلها بطريقة أصلية وفعالة جدًا حتى أن وجودها لم يكن معروفًا بالنسبة لمالكة السكن التي تزودها بالطعام . وكانت الرسائل المطبوعة ، كما يتضح الآن ، لثلاث تفضح جنسها من خط يدها . لا

يستطيع الرجل الاقتراب من المرأة وإلا سيقود أعداءهما لها . ولأنه لا يستطيع التواصل معها مباشرة ، يلجأ إلى عمود من الجريدة لذلك . حتى اللحظة كل شيء واضح .»

لكن ما النهاية؟ يريد واتسون معرفة ذلك . لماذا السرية والخطر؟ يفترض هولمز أن المسألة مسألة حياة أو موت . فالهجوم على السيد وارين ونظرة الرعب التي صدرت من المستأجرة عندما شكت في أن أحداً ربما يكون ينظر لها ، كل شيء يشير إلى شر مسبوك .

يسأل واتسون : «لماذا إذن على هولمز مواصلة التحري؟ لقد حل قضية السيدة وارين ، وهي بنفسها لا تريد سوى إجبار المستأجرة على مغادرة المنزل . لماذا ينخرط في القضية أكثر من ذلك خاصة إذا كانت القضية خطيرة كما تبدو عليه؟ سيكون من السهل بما فيه الكفاية المغادرة وترك الأحداث تأخذ مجراها . فيسأل المحقق : «ما الذي ستجنيه من ذلك؟»

هنا لدى هولمز إجابة جاهزة .

«ماذا في الواقع؟ إنه فن لأجل الفن يا واتسون . وأنا أفترض أنك عندما تتلاعب ، فإنك تجد نفسك تدرس في القضايا دون التفكير في رسوم؟»

«لأجل تعليمي يا هولمز»

«التعليم لا ينتهي يا واتسون . إنها سلسلة من الدروس أعظمها في الآخر . هذه حالة تثقيفية ، وليس من ورائها نقود ولا أرباح . ومع ذلك يرغب الشخص بترتيبها . بحلول الغسق علينا أن نجد أنفسنا متقدمين لمرحلة في تحرينا .»

لا يهم بالنسبة لهولمز أنه تم تحقيق الهدف المبدئي . ولا يهم أن التعقب اللاحق للقضية في غاية الخطورة . إنك لا تترك شيئاً

عندما يكون هدفك الأصلي قد انتهى إذا أثبت ذلك الشيء نفسه على أنه أكثر تعقيداً مما بدا عليه للمرة الأولى . القضية إرشادية ، ولا يزال هناك المزيد لتعلمه . عندما يقول هولز أن التعليم لا ينتهي ، فإن رسالته لنا ليست ذات بعد واحد كما قد تبدو . بطبيعة الحال من الجيد مواصلة التعلم ، فهو يبقي على أدمغتنا يقظة ويمنعنا من الجمود في طرقنا . لكن بالنسبة لهولز فالتعليم يعني شيئاً أكثر من ذلك ، إنه طريقة لمواصلة تحدي نفسك والتساؤل عن عاداتك وعدم السماح لنظام واتسون بالسيطرة ، حتى ولو كان قد تعلم الكثير من نظام هولز . إنه طريقة لإعادة تنظيم سلوكياتك المعتادة وعدم نسيان أنه لا يهم كم نظن أنفسنا خبراء في شيء ما ، فعلينا دوماً أن نظل يقظين ومتحفزين في كل شيء نفعله .

لقد أكد الكتاب بأكمله على الحاجة إلى الممارسة . فهولز قد وصل إلى حيث هو بسبب ممارسته الدائمة لتلك العادات اليقظة في التفكير والتي تشكل جوهر نهجه في الحياة . بينما نمارس وتصبح الأشياء أكثر وأكثر بساطة وذات طبيعة ثانية ، فإنها تنتقل إلى نطاق نظام واتسون . ورغم أن العادات قد تكون الآن هولزية ، إلا أنها أصبحت أشياء نقوم بها على أنها أمر مفروغ منه . إنه حين نأخذ تفكيرنا على أنه من المسلمات ونتوقف عن الانتباه لما يحصل فعلياً في عمليات أدمغتنا نصبح عرضة للفوضى ، حتى لو كانت تلك العملية الآن أكثر مكان تنظيمًا ولمعانا قد رأيت . على هولز أن يواصل تحدي نفسه لئلا يخضع لذات الشيء . لأنه على الرغم من أن عاداته الإدراكية حادة في الواقع ، إلا أنها يمكن أن تضلله إذا لم يواصل تطبيقها . وإذا لم يواصل تحدي عادات التفكير الخاصة بنا فإننا نواجه خطر السماح لتنبيه الذهن الذي لدينا لينزلق للخلف

إلى حالته الما قبل هولزية الطائشة .

إنها مهمة صعبة ، و دماغنا كالمعتاد قليل المساعدة . عندما نشعر أننا انتهينا من شيء جدير بالاهتمام ، سواء أكان مهمة بسيطة مثل تنظيف خزانة مزعجة ، أو شيء أكثر تورطاً مثل حل لغز غامض ، فإن دماغ واتسون الخاص بنا لن يحب شيئاً أكثر من الاستراحة ، ومكافئة نفسه على إنجاز مهمة بشكل حسن . فلماذا تقوم بالمزيد إذا قمت بما عقدت العزم على تحقيقه ؟

إن التعلم الإنساني مدفوع إلى حد كبير بشيء يعرف بخطأ تنبؤ المكافئة (آر . بي . إي) . فعندما يكون شيء ما أكثر مردوداً من المتوقع - لقد انحرفت يساراً! لم أضرب الزامورا في حالة تعلم السياقة - فإن ال آر . بي . إي يؤدي إلى إفراز الدوبامين إلى الدماغ . إن ذلك الإفراز يحصل عادة عندما نبدأ بتعلم شيء جديد . ومع كل خطوة ، يكون من السهل رؤية نتائج مرضية ؛ حيث نبدأ بفهم ما نفعله ، ويتحسن أداؤنا ، ونرتكب أخطاء أقل . وكل نقطة من الإنجاز تتضمن فعلياً بعض العائدات علينا . إننا لا ننجز بشكل أفضل فحسب (والذي من المفترض أن يجعلنا سعداء) بل إن أدمغتنا تُكافئ على تعلمها وتحسنها .

ولكن بعد ذلك يتوقف فجأة . ولا يعود من المفاجئ بمكان أنني أستطيع القيادة بسلاسة ، ولا أنني لا أرتكب أخطاء في طباعتي ، ولا أنني أستطيع الإخبار بأن واتسون جاء من أفغانستان . أعرف أنني سأكون قادراً على القيام بذلك قبل أن أقوم به فعلياً ، ولذلك لا يوجد آر . بي . إي ولا دوبامين ولا متعة ولا حاجة لمزيد من التعلم . لقد بلغنا مرحلة مناسبة وقررنا - على مستوى عصبي وواعي - أننا تعلمنا كل ما نحتاج إلى معرفته .

إن الحيلة تكمن في تدريب دماغك على تجاوز تلك النقطة من المرود المباشر ، وإيجاد عدم اليقين من المرود المستقبلي بنفسه . إن الأمر ليس بالسهل لأنه كما قلت مسبقاً أن عدم اليقين بشأن المستقبل هو تمامًا ما لا أحبه . ومن الأفضل جني الفوائد الآن وخوض رحلة الدوبامين وانعكاساته .

إن الخمول قوة عظمى ؛ حيث أننا كائنات العادات وليست العادات التي يمكن ملاحظتها فقط ، مثلاً كتشغيل التلفاز دائماً عندما نتجه إلى غرفة المعيشة بعد العمل ، أو فتح الشلاجة لمجرد رؤية ما فيها ، ولكن عادات التفكير ، حلقات التفكير التي يمكن التنبؤ بها والتي عندما تتم إثارها تنزل في مسار يمكن التنبؤ به . وعادات التفكير عصبية على الكسر .

إن واحدة من أكثر قوى الاختيار تأثيراً هي التأثير الافتراضي ؛ أي النزعة لاختيار الطريق الأقل مقاومة ، والمضي مع ما هو أمامنا ما دام خياراً منطقياً بما فيه الكفاية . إننا نراه تدور رحاه طوال الوقت . ففي العمل يميل الموظفون إلى المساهمة في خطط التقاعد عندما تكون المساهمة افتراضية ، بيت=نما يوقفون المساهمة - حتى عندما يقابلون بسخاء من أرباب العمل-عندما يتوجب عليهم الاشتراك . ففي الدول التي يعد فيها التبرع بالأعضاء أمراً افتراضياً (يعد كل شخص متبرعاً بالأعضاء ما لم يحدد أنه لا يريد ذلك) لديها نسب أعلى من المتبرعين مقارنة بتلك الدول التي على المتبرعين فيها الاشتراك . بصورة فعالة ، عندما نخير بين القيام بشيء ولا شيء ، فإننا نختار اللاشيء ونميل لنسيان أن ذلك أيضاً هو فعل شيء . ولكنه فعل شيء سلبي تماماً بالرضا ، وهو نقيض المشاركة الفعالة التي يؤكد عليها هولمز دائماً .

وهنا الشيء الغريب ؛ أنه كلما كنا أفضل وأصبحنا أفضل ، كلما تعلمنا أكثر وأصبحت الرغبة في الراحة أقوى . إننا نشعر أننا نستحق ذلك نوعًا ما بدلاً من إدراك أن ذلك هو أعظم ضرر يمكن أن نرتكبه بحق أنفسنا .

إننا نرى هذا النمط يقدم نفسه ليس على المستويات الفردية فقط ، ولكن في المؤسسات والاتحادات أيضًا . فكر في كم شركة أنتجت ابتكارات خارقة لتجد أنفسها قد اجتاحت من قبل المنافسين وتراجعت إلى الوراء بعد سنوات (فكر على سبيل المثال في كوداك أو أتاري أو آر .أي . إم ، مؤسس البلاك بيري) وهذا غير محصور على عالم الأعمال . فنمط الاختراعات المذهلة تلتها نزعة تحصل في الأوساط الأكاديمية والعسكرية وتقريبًا أي صناعة أو مهنة يمكن تسميتها . وذلك متجذر في كيفية تنصيب نظام المكافأة الخاص بأدمغتنا .

لماذا هذه الأنماط شائعة؟ يعود السبب إلى تلك التأثيرات الافتراضية وإلى ذلك القصور الذاتي ، وعلى مستوى أوسع إلى استحكام العادة . وكلما كانت العادة أكثر مكافئة ، كلما كان من الصعب كسرها . فإذا كانت نجمة ذهبية على اختبار تهجئة كافية لإرسال الدوبامين إلى دماغ الطفل ، فتخيل ما يمكن أن يفعله الفوز بجائزة كبيرة أو ارتفاع الحصص السوقية أو تحقيق شهرة أكاديمية .

لقد تحدثنا سابقًا عن الفرق بين الذاكرة قصيرة الأمد وطويلة الأمد ؛ تلك الأشياء التي نتمسك بها قبل السماح لها بالانطلاق ، وتلك التي نخزنها في عليات أدمغتنا بشكل دائم . إن الأخيرة تبدو أنها تكون على شكلين (رغم أن آلياتها لا تزال قيد الفحص) : الذاكرة التصريحية أو الواضحة ، والذاكرة الإجرائية أو الضمنية .

فكر في الأولى كنوع من موسوعة المعلومات حول أحداث (ذاكرة استطرادية) أو حقائق (ذاكرة دلالية) أو أشياء أخرى يمكنك تذكرها بوضوح . في كل مرة تتعلم واحدة جديدة ، يمكنك كتابتها تحت مدخلها الخاص المنفصل . ثم إذا سُئلت عن ذلك المدخل المحدد ، يمكنك الانتقال إلى تلك الصفحة من الكتاب - وإذا سار كل شيء على ما يرام وكتبتته بشكل صحيح ولم ينتهي الخبر- استرجعه . لكن ماذا لو أن هناك شيئاً لا يمكن كتابته بحد ذاته؟ ماذا لو أنه شيء تعرف نوعاً ما أو تشعر بكيفية القيام به؟ إذن لقد انتقلت إلى مملكة الذاكرة الإجرائية أو الضمنية ، أي التجربة . إنها لم تعد بسهولة مدخل الموسوعة . لو أنني أسألك عنها مباشرة ، فربما لا تكون قادراً على إخباري وربما يشوش هذا الشيء الذي كنت أسألك عنه . إن النظامين ليسا منفصلين بشكل كامل وهما يتفاعلان قليلاً . لكنك لأغراضنا يمكنك التفكير بهما كنوعين مختلفين من المعلومات المخزنة في علية دماغك . كلاهما موجود لكنهما ليسا مدركين أو يمكن الوصول إليهما بشكل متساوي ، ويمكنك الانتقال من واحدة إلى أخرى دون إدراك أنك قمت بذلك .

فكر في الأمر كتعلم قيادة مركبة . ففي البداية تتذكر بوضوح كل شيء عليك فعله ، تشغيل المفتاح وفحص المرايا وإخراج المركبة من الموقف وما إلى ذلك . عليك القيام بكل خطوة عن وعي ، ولكنك ما تلبث وأن توقف التفكير في الخطوات ، حيث تصبح ذات طبيعة غريزية . وإذا سألتك عما تفعله ، فربما لا تكون قادراً على إخباري . لقد انتقلت من الذاكرة الواضحة إلى الضمنية ومن المعرفة النشطة إلى العادة . وفي مملكة الذاكرة الضمنية ، من

الصعب التحسن عن وعي أو أن تكون مدرّكًا وحاضرًا . عليك العمل بجد للحفاظ على ذات مستوى اليقظة كالذي كان عندما كنت تتعلم (ولذلك يصل الكثير من التعلم ما يسميه كي . أندريس إريكسون بالارتفاع ، وهي نقطة لا يمكننا التحسن من بعدها . وكما سنجد ، فذلك ليس صحيحًا فعليًا ، لكنه من الصعب التغلب عليه) .

عندما نبدأ التعلم ، فإننا في ملكة الذاكرة الواضحة أو التصريحية . تلك الذاكرة المشفرة في الحصين والتي يتم لاحقًا دمجها وتخزينها (إذا ما جرى كل شيء على ما يرام) من أجل الاستخدام المستقبلي . إنها الذاكرة التي نستخدمها بينما نحفظ التواريخ أو نتعلم خطوات عملية جديدة في العمل . وهي أيضًا الذاكرة التي حاولت استخدامها في حفظ عدد الدرجات في كل المنازل الممكنة (وأخفقت في ذلك بشكل مأساوي) عندما أسأت فهم نقطة هولز ، وهي الذاكرة التي نستخدمها بينما نحاول احتضان عملية تفكير هولز خطوة بخطوة حتى نستطيع البدء في تقدير طاقات البصيرة الخاصة به .

لكنها ليست ذات الذاكرة التي يستخدمها هولز عندما يقوم بذات الشيء . لقد أتقن خطوات التفكير تلك ، وبالنسبة له أصبحت ذات طابع غريزي . إنه لا يحتاج للتفكير في التفكير بالطريقة الصحيحة ، إنه يقوم بها بشكل تلقائي ؛ تمامًا كما أننا افتراضيون تلقائيًا لنظام واتسون الداخلي لدينا لأن ذلك ما تعلمنا القيام به ولا نتعلمه الآن .

إن ما هو هين بالنسبة لهولز لا يمكن أن يكون أكثر إثارة لواتسون الذي بداخلنا . علينا أن نوقف واتسون عند كل نقطة

ونظب رأي هولمز بدلاً من ذلك . لكن بينما نمارس هذا أكثر وأكثر ، وبينما نجبر أنفسنا على الملاحظة والتخيل والاستنتاج - ولنقوم به حتى في تلك الظروف التي ربما يبدو فيها ساذجًا كاتخاذ قرار ما سنتناوله على وجبة الغداء- فإن تغييرًا يحدث . وفجأة تناسب الأشياء بسهولة ، وتقدم بسرعة أكبر ، وهو شعور طبيعي أكثر ولا يتطلب الكثير من الجهد .

في الأصل ، إن ما يحصل هو أننا نبدل أنظمة الذاكرة . إننا نتقل من الواضحة إلى الضمنية ، الاعتيادية والإجرائية . يصبح تفكيرنا أقرب إلى الذاكرة التي نمتلكها عند القيادة أو ركوب دراجة أو إنهاء مهمة حاولنا القيام بها عدة مرات . لقد انتقلنا من كوننا موجهين بالهدف (في حالة التفكير والمرور بخطوات هولمز عن وعي والتأكد من تنفيذ كل منها بشكل صحيح) إلى كوننا آليين (ليس علينا التفكير بالخطوات ، فأدمغتنا تنتقل بينها على أنها أمر مفروغ منه) . ومن شيء مبني إلى حد كبير على الذاكرة التي تتطلب الكثير من الجهد إلى شيء ينشط نظام مكافأة الدوبامين دون إدراكنا بالضرورة للأمر (على سبيل المثال ، فكر في تصرف المدمن- وهو مثال متطرف) واسمحوا لي هنا بتكرار نفسي لأن الأمر يحتمل التكرار : كلما كان شيء ما أكثر مكافئة ، كلما أصبح عادة بشكل أسرع وأصبح كسره أمر أصعب .

استقدام العادات من الغفلة إلى اليقظة

تحدث «مغامرة الرجل الزاحف» عندما لا يعود هولمز وواتسون يعيشان معًا . فذات مساء أيلول ، يستقبل واتسون رسالة من شريكه السابق في السكن يقول فيها «تعال فورًا إذا كان ذلك

يناسبك ، وإن لم يناسبك فتعال أيضاً . من الواضح أن هولمز يريد رؤية الطبيب الجيد وبأقصى سرعة ممكنة ، ولكن لماذا؟ فما الذي ربما يملكه واتسون ويريده هولمز بشكل عاجل ولا يحتمل الانتظار؟ إذا عدت بتفكيرك إلى الوقت الذي كانا فيه معاً ، فلا يتضح أبداً بأن واتسون قام بدور يتعدى دور مؤرخ الأحداث والداعم المخلص . لم يكن بالتأكيد الشخص الذي سيحل لغز الجريمة أو الذي سيأتي بالفكرة الرئيسية أو يؤثر على القضية بأية طريقة ذات معنى . بالتأكيد إن استدعاءات هولمز الآن لا يمكن أن تكون طارئة لذلك الحد ، فهي رسالة طلب فيها مساعدة واتسون في حل قضية ما .

ولكن ذلك تماماً ما هي عليه . فكما يتبين أن واتسون ليس مجرد مؤرخ وصديق ورفيق مخلص وداعم خلوق . إن واتسون في الحقيقة جزء من السبب الذي جعل شارلوك هولمز ينجح في البقاء بذات الحدة واليقظة التي كان عليها منذ البدء . لقد كان واتسون ضرورياً (ولا يمكن تكراره) في حل قضية ، وسيظل كذلك ، وسترى قريباً لم ذلك .

إن العادة مفيدة ، حتى أنني سأقدم خطوة وأقول إنها ضرورية . إنها تحررنا معرفياً من أجل التفكير بشكل أوسع حول قضايا استراتيجية بدلاً من القلق بشأن التفاصيل . إنها تسمح لنا بالتفكير على مستوى أعلى وسهل بشكل مختلف من ذلك الذي كنا سنكون قادرين على القيام به . ففي الخبرة تكمن حرية كبيرة واحتمالية .

من ناحية أخرى ، العادات قريبة بصورة خطيرة من الغفلة . فمن السهل جداً إيقاف التفكير بمجرد أن يصبح إن شيء ما سهلاً وتلقائياً . إن رحلتنا المجهدة لاكتساب العادات الهولمية في التفكير

هي رحلة موجهة الهدف ، حيث أننا نركز على الحصول على مكافأة مستقبلية تأتي مع تعلم التفكير عن إدراك ، واختيار خيارات أفضل وأكثر إعلامًا وشمولية ، وأن نكون مسيطرين على أدمغتنا بدلاً من السماح لها بأن تحكمنا . أما العادات فهي على العكس من ذلك ، فعندما يكون شيئاً ما عادة ، فإنه يكون قد نقلنا من نظام هولز الواعي المحفز إلى نظام واتسون الأقل إدراكًا والذي لا يعتمد على التفكير ، والذي يعالج كافة تلك التحيزات والاستدلالات ، وتلك القوى الخفية التي تبدأ التأثير على سلوكك دون معرفتك . انت لست مدركًا لها ، وبسبب ذلك فإنك أقل قدرة على الانتباه لها .

ولكن ماذا عن شارلوك هولمز؟ كيف ينجح في البقاء مدركًا؟
ألا يعني ذلك أن العادات لا يشترط ان تكون متوافقة مع الذهن؟
لنعد إلى الرسالة العاجلة التي أرسلها هولمز إلى واتسون ، ودعوته له بالحضور بغض النظر عن مدى ملاءمة الزيارة . إن واتسون يعرف تمامًا لماذا تم استدعاؤه رغم أنه ربما لا يدرك مدى أهميته . يقول واتسون إن هولمز «رجل العادات الضيقة والمركزة ، وأصبحت واحدة من هذه العادات . كمؤسسة ، لقد كنت كالكمال والتبغ والغليون القديم الأسود وكتب الفهارس» . فما هو دور واتسون ككيان تمامًا؟ «لقد كنت حجر الشحذ لعقله ، وكنت أحفره . لقد أحب التفكير بصوت مرتفع في حضوري ، ولا يمكن القول بأن تصريحاته وجدت لأجلي -فالعديد منها كانت موجهة لمعارفه- ولكن على الرغم من ذلك ، فبعد أن شكلت هذه العادات ، صار من المفيد بطريقة ما أن عليّ التسجيل والاقترام» . وذلك ليس كل شيء «فلو أنني أغضبته بسبب بطيء منهجية معينة في عقليتي ،

فإن ذلك الغضب كان مفيداً في جعل حدسه الذي يشبه اللهب وانطباعاته تبرق بأسهل وأنعم ما يمكن . وقد كان هذا دوري المتواضع في تحالفنا .

لقد كان لدى هولمز طرق أخرى للتأكد - وما دور واتسون إلا مكون من ضمن موضوع أكثر اتساعاً كما سنرى-ولكن واتسون هو أداة لا يمكن أن تتكرر في ترسانة هولمز متعددة الاتجاهات ، ووظيفته كأداة أو عادة (إذا أردت) هو التأكد من أن عادات هولمز في التفكير لا تندرج تحت الروتين غير المدرك ، والتأكد من أنها تظل واعية وحاضرة ومشحوزة .

لقد تحدثنا سابقاً عن تعلم القيادة والخطر الذي نواجهه حين نصبح اكفاء بما فيه الكفاية ، حيث نتوقف عن التفكير بتصرفاتنا ، وبالتالي ربما نجد انتباهنا يذهب بعيداً ، وأدمغتنا تنتقل إلى الغفلة . لو أن كل شيء كالمعتاد ، فإننا نكون بخير وراضين عن ذلك . ولكن ماذا لو أن شيئاً ما انحرف عن المسار؟ إن وقت ردة فعلنا يكون سريعاً كما كان في المراحل الأولى من التعلم حين ركزنا على الطريق .

لكن ماذا لو أننا أجبرنا حقاً على التفكير بقيادتنا مرة أخرى؟ قام أحدهم بتعليمنا كيفية قيادة السيارة ، وربما يتم استدعاؤنا لأجل تعليم أحد آخر . فإذا ما تم ذلك فربما نكون حكماء بما فيه الكفاية لخوض التحدي . عندما نتحدث مع شخص آخر ونقل إليه كلاماً ما ، فإننا لا نجبر فقط على الانتباه لما نفعله ، ولكننا ربما نرى أنفسنا نفكر بالخطوات بشكل مختلف ونصبح أكثر إدراكاً لما نفعله أثناء قيامنا به -حتى ولو لمجرد أن نكون قدوة حسنة . ربما نرى أنفسنا ننظر إلى الطريق بشكل مختلف ، ونكون قادرين على تشكيل

صورة عما يحتاج السائق المبتدئ معرفته وملاحظته ، وكيف علينا أن نرى ونتصرف . ربما نرى أنماطاً لم نفكر بها أو لم نكن قادرين على رؤيتها في المرة الأولى حين كنا مشغولين بإتقان الخطوات . لن تكون مواردنا الإدراكية أكثر حرية لرؤية هذه الأشياء فقط ، بل إننا سنكون حاضرين بما فيه الكفاية للاستفادة من الحرية .

وهولمز بالمثل . فهو لا يحتاج إلى حضور هولمز في «مغامرة الرجل الزاحف» فقط : لاحظ كيف أنه يعلم رفيقه في كل قضية ، ويخبره دومًا بكيفية وصوله لهذا الاستنتاج أو ذاك ، وما الذي قام به دماغه وأي الطرق سلكها . ولفعل ذلك ، فإن عليه أن يعطي انعكاسًا عن عملية التفكير . عليه أن يركز على ما أصبح عادة ، وأن يكون مدركًا لتلك الاستنتاجات التي توصل لها عن إدراك ، مثل معرفة لماذا جاء واتسون من أفغانستان (على الرغم من أنه ، وكما ناقشنا مسبقًا ، فالغفلة الهولمزية بعيدة كل البعد عن الغفلة الواتسونية) . فواتسون يمنع دماغ هولمز من نسيان التفكير بتلك العناصر التي تأتي بشكل طبيعي .

الأكثر من ذلك أن واتسون يعمل كمذكر دائم بالأخطاء الممكنة . وكما رأينا فإن هولمز يصيغها كالتالي : «بملاحظة مغالطتك ، كنت أقاد إلى الحقيقة» . وذلك ليس بالأمر البسيط ، ففي طرح أبسط الأسئلة ؛ تلك التي تبدو واضحة لهولمز ، فإن واتسون لا يجبر هولمز على النظر مرتين على وضوح الشيء ، سواء للتساؤل حولها أو لتوضيح لماذا هي واضحة بذلك القدر . بكلمات أخرى ، لا غنى عن واتسون .

وهولمز يعرف ذلك جيدًا . انظر إلى قائمة عاداته الخارجية ، الكمان والدخان والغليون وكتاب القوائم . كل من هذه العادات تم

اختياره بشكل واع ، وكل منها يسهل التفكير . فماذا كان يفعل قبل واتسون؟ أيا كان ، لقد أدرك حتمًا وبسرعة أن عالم ما بعد واتسون ليس عالمًا مفضلًا . حيث يخبره قائلاً : «ربما لا تكون مشرفًا بذاتك ، لكنك موصل للضوء . لقد كان بعض الناس الذين لا يملكون العبقرية قوة مميزة في تحفيز ذلك . إنني أعترف يا صديقي العزيز أنني مدين لك» . وقد كان متيقنًا من أنه مدين له .

إن العظماء لا يرضون عن أنفسهم ، وذلك باختصار هو سر هولز . فعلى الرغم من أنه لا يحتاج أيا كان ليقوده خلال المنهج العلمي للدماغ-لأنه ربما يكون قد اخترع الشيء- إلا أنه يواصل تحدي نفسه ليتعلم المزيد ويقوم بالأشياء بشكل أفضل ، وتحسين أو معالجة قضية أو منهج لم يسبق له وأن رآه في الماضي . ويعود جزء من هذا إلى تجنيده المستمر لواتسون الذي يتحده ويحفزه ويجبره ألا يأخذ شجاعته على أنها أمر توفره أمر حتمي . ويعود جزء آخر إلى اختيار القضايا نفسها . تذكر أن هولز لا يتولى أية قضية ، حيث أنه يأخذ تلك القضايا التي تثير اهتمامه فقط . إنها مدونة أخلاقية صعبة ، فهو لا يأخذ قضايا مجرد تقليل الجريمة ، ولكن لتحدي أوجه محددة من تفكيره ، وهذا لا ينطبق على الجرائم الشائعة .

ولكن أيا كان ، سواء في رفقة واتسون أو في اختيار القضايا الأصعب والأكثر استثنائية ، فإن الرسالة ذاتها ، وهي مواصلة تغذية الحاجة للتعلم والتحسين . ففي نهاية «الحلقة الحمراء» يجد هولز نفسه وجهاً لوجه مع المفتش جريجسون الذي كان يحقق في ذات القضية التي كان هولز قد قرر تعقبها بعد الانتهاء من عمله المبدئي . جريجسون متحير للغاية ، ويقول : «ولكن يا سيد هولز ، ما لا أستطيع استيعابه على الإطلاق هو كيف أدمجت نفسك في الموضوع» .

وتأتي إجابة هولز بسيطة : «التعليم يا جريجسون ، التعليم .
فأنا لا أزال أسعى للحصول على المعرفة» . إن تعقيد هذه الجريمة
الثانية وعدم ارتباطها بعملان على إخراطه بشكل أكبر بدلاً من
تراجعه ، ويدعو انه لتعلم المزيد .

بطريقة ما ، ذلك أيضاً عادة ، أي عدم قول لا للمزيد من
المعلومات مهما كانت مخيفة أو معقدة . عن القضية قيد المسألة
هي «نموذج من المساوية والبشاعة» كما يقول هولز لواتسون وبالتالي
فهي تستحق التعقب .

ونحن أيضاً علينا مقاومة الرغبة بالمرور على قضية صعبة ، او
الاستسلام لراحة نابعة من كوننا حللنا مشكلة سابقاً أو ألمجزنا
مهمة صعبة . بدلاً من ذلك علينا احتضان الأمور التي تتحدانا
حتى ولو كانت ليست سهلة على الإطلاق . بفعل هذا فقط يمكننا
مواصلة حياتنا لنحصد نتائج التفكير الهولزي .

أخطار الثقة المفرطة

لكن كيف نتأكد من ألا نقع ضحايا للتفكير الواثق بإفراط ؛
أي ذلك التفكير الذي ينسى تحدي نفسه على أساس منتظم؟ لا
توجد منهجية سهلة وغير خطيرة ، فالاعتقاد بأنه أمر سهل وغير
خطير هو الشيء الذي ربما يفشلنا . لأن عاداتنا أصبحت غير مرئية
لنا ، ولأننا لم نعد نتعلم بشكل فعال ، ولا يبدو من الصعب
التفكير إن قمنا به مرة واحدة ، فإننا نميل لنسيان صعوبة العملية .
إننا نأخذ الشيء الذي علينا تقديره على أنه مضمون ، ونعتقد أن
كل شيء أصبح تحت السيطرة ، وأن عاداتنا لا تزال واعية وأدمغتنا
لا تزال نشيطة وتتعلم باستمرار وتواصل التحدي - خاصة لأننا

عملنا بجهد للوصول إلى هناك- لكننا بدلاً من ذلك قمنا باستبدال مجموعة من العادات بأخرى ، وإن كانت الأولى أفضل بكثير . بفعل هذا ، فإننا نشعل خطر الوقوع فريسة لقاتلي النجاح الرضا عن النفس والإفراط في الثقة . وهذان عدوان قويان ، حتى بالنسبة لشخص مثل شارلوك هولمز .

فكر للحظة في «الوجه الأصفر» ، وهي واحدة من القضايا النادرة التي ظهرت فيها نظريات هولمز خاطئة تمامًا . في القصة ، يتوجه رجل يدعى جرانت مونرو لهولمز من أجل كشف سبب السلوك المحير لزوجته . فأحد الأكواخ ضمن أملاك مونرو تم استئجاره حديثاً من مستأجرين جدد وغرباء ، ويلمح السيد مونرو أحد قاطني الكوخ ويقول : «كان هناك شيء غير طبيعي وغير بشري يتعلق بالوجه» حيث أن رؤيته سببت له القشعريرة .

ولكن الأكثر غرابة من المستأجرين الغامضين هوردة فعل زوجته لدى وصولهم . حيث غادرت المنزل في منتصف الليل ، وكذبت حول مغادرتها ، ثم تزور الكوخ في اليوم التالي ، وتأخذ وعداً من زوجها ألا يتعقبها هناك . عندما تذهب للمرة الثالثة ، يتبعها السيد مونرو ليجد المكان مهجوراً . ولكنه يجد في ذات الغرفة التي رأى فيها الوجه المسبب للقشعريرة صورة لزوجته

يقول هولمز : «ما الذي يجري؟ في الأمر شيء من الابتزاز ، إنني مخطئ» . ومن المبتز؟ «الكائن الذي يعيش في الغرفة الوحيدة المريحة في المكان ولديه صورتها فوق موقد النار . بناء على كلامي يا واتسون ، هناك شيء لافت للغاية فيما يتعلق بذلك الوجه الغاضب عند النافذة ، ولم يسبق لي وأن أخفقت في حل قضية» .

مثل هذه الحكايات تشير ابتهاج واتسون ، فيسأل : «إذن لديك نظرية؟»

يجيب هولمز بسرعة : «نعم ، ولكن سأتفاجأ إن لم تكن صحيحة . إن الزوج الأول لهذه المرأة في ذلك الكوخ» .

لكن نظريته خاطئة ، فالرجل الذي يقطن الكوخ ليس زوج السيدة مونرو الأول على الإطلاق بل ابنتها . إنها ابنة لم يعرف عن وجودها السيد مونرو ولا هولمز من قبل . ما بدا ابتزازاً في هذه الحالة هو النقود التي مكنت الابنة وخادمتها من الانتقال من أمريكا إلى بريطانيا . والوجه الذي بدا غير طبيعي وغير بشري كان قناعاً صمم ليخفي الجلد الأسود للفتاة . باختصار ، كان رأي هولمز بعيداً عن الصواب ، فكيف حدث وأخطأ هذا المحقق العظيم!؟

إن الثقة بأنفسنا ومهاراتنا تسمح لنا بدفع محدداتنا وإيجاز أكثر ما يمكننا . ومحاولة تلك القضايا الحدودية التي يخرج منها شخص أقل ثقة بنفسه . إن القليل من الثقة الزائدة لا يضر ، وجرعة زائدة من الإحساس فوق المعدل الطبيعي يمكن أن تقطع شوطاً طويلاً نحو سلامتتنا النفسية وحتى فعاليتنا في حل المشاكل . حين نكون أكثر ثقة ، فإننا نتولى مشاكل أكثر صعوبة ، وندفع أنفسنا إلى ما وراء منطقة راحتنا .

لكن يمكن أن يكون هناك ما هو ككونك متأكدًا جدًا من نفسك ؛ إنه الإفراط في الثقة ؛ حين تتفوق الثقة على الدقة . حيث تصبح أكثر ثقة بقدراتنا أو بقدراتنا حين نقارنها بقدرات الآخرين ، أكثر مما يجب أن نكون عليه ، وذلك بالنظر إلى الظروف والواقع . إن وهم سرعان المفعول ينمو بقوة ، وهذا الإيمان المفرط بأنفسنا يمكن أن يقود إلى نتائج غير مرضية ، مثل أن تكون مخطئًا

بشكل لا يصدق حول قضية حين تكون غالبًا على حق ، كأن تعتقد أن الابنة هي زوج أو أن الأم الحنونة هي امرأة مبتزة . يحصل هذا في أفضل ما لدينا . وفي الحقيقة لقد ألححت إلى هذا . وقد أظهرت دراسات أنه مع التجربة ، يزداد الإفراط بالثقة بدلاً من أن يتناقص . وكلما زاد ما تعرفه وكنت أفضل في الحقيقة ، كلما زادت احتمالية زيادة تقدير قدراتك وتقليل شأن قوى الأشياء خارج سيطرتك . في إحدى الدراسات ، ظهر المدراء التنفيذيون أكثر ثقة حين اكتسبوا تجارب الاستحواذ والاندماج . حيث أصبحت تقديراتهم لقيمة الصفقات أكثر تفاؤلاً (وهو شيء لم يرى في صفقات سابقة) . في مثال آخر ، وهو المساهمة في خطط التقاعد ، ارتبط فرط الثقة بالعمر والتعليم ، فكان أكثر المساهمين ثقة هم رجال متعلمون يقربون من سن التقاعد . وجد في بحث أجرته جامعة فيينا أن الأفراد بشكل عام لا يفرطون الثقة في التداولات المحفوفة بالمخاطر في السوق التجريبية حتى يحصلوا على تجربة فعالة في مجال السوق قيد السؤال . ثم ارتفعت مستويات فرط الثقة . والمحللون الذين كانوا أكثر دقة في التنبؤ بالأرباح في الأرباع الأربعة الماضية ظهروا أقل دقة في تنبؤات قادمة . لدى التجار المهنيين مستوى أعلى من فرط الثقة من الطلاب . في الحقيقة ، واحدة من أفضل المنتبئات بفرط الثقة هي القوة ، والتي تأتي مع الوقت والتجربة .

يولد النجاح فرط الثقة كما لا يفعل أي شيء آخر . عندما نكون تقريبًا على صواب بشكل دائم ، فكم نقول بأننا دومًا على صواب؟ لدى هولمز كافة الأسباب ليكون واثقًا ، فهو محق في كل الحالات تقريبًا وأفضل من أي شخص آخر في كل شيء تقريبًا

سواء أكان في التفكير أو حل المشاكل أو عزف الكمان أو الصفير وبالتالي فلا بد وأن يقع ضحية لفرط الثقة غالبًا ، ولكن ما ينقذه هو ما قاله في القسم الأخير ؛ ذلك أنه يعرف مطبات حالته العقلية ويحاول تجنبها من خلال اتباع أدلته التفكيرية التوجيهية بصرامة وإدراك أنه بحاجة للتعلم دومًا .

إن فرط الثقة يسبب الجهل ، والجهل بدوره يسبب الأخطاء . حيث نصبح مغرمين جدًا بمهارتنا حتى أننا نشكك في المعلومات التي تخبرنا التجربة أنه علينا عدم التشكيك بها . إننا نغمض أعيننا للحظة عن كل شيء نعرفه عن عدم التنظير قبل الحقائق ، ولا نستبق أنفسنا ، محققين بشكل أعمق وملاحظين بشكل أكثر حذرًا ، فنسترسل ببساطة حدسنا .

يستبدل فرط الثقة مكان التحري الديناميكي النشط بافتراضات سلبية حول قدرتنا أو الألفة البادية حول حالنا . وتنقل تقييمنا لما يقودنا إلى النجاح من العارض إلى الضروري . أنا ماهر بما فيه الكفاية حتى أنني أستطيع التغلب على البيئة بذات السهولة التي اعتدت عليها . كل شيء يعزى على قدرتي لا إلى حقيقة أن الأشياء المحيطة وجدت لتمنح مهاراتي الفرصة لتشرق . لذلك لن أعدل سلوكي .

يفشل هولز في أخذ احتمالية العوامل غير المعروفة في الدراما أو المكونات غير المعروفة في سيرة السيدة مونرو . إنه لا ينظر في احتمالية التمويه (شيء من النقطة العمياء للمحقق . وإذا تتذكر ، فإنه لم يأخذها بعين الاعتبار في قضية ذي الغرة الفضية ، ولا في قضية «الرجل ذو الشفة الملتوية» . لو أن هولز كان سيحصل على ذات الفائدة من إعادة قراءة مآثره كما نفعل ، فربما تعلم أنه كان

عرضة لهذا النوع من الخطأ .

لقد أظهرت العديد من الدراسات هذه العملية في الإجراءات . حيث أنه في إحدى الشروحات الكلاسيكية ، طلب من علماء نفس إكلينيكين إعطاء أحكام ثقة حول لمحة شخصية حيث تم إعطاؤهم تقرير حالة يتكون من أربعة أجزاء بناء على حالة سريرية فعلية ، وطلب منهم بعد كل قسم الإجابة عن سلسلة من الأسئلة حول شخصية المريض مثل أنماطه السلوكية واهتماماته وروده نحو الأحداث الحياتية . كما وطلب منهم تقييم ثقتهم بإجاباتهم . لوحظ أنه مع كل قسم زادت المعلومات حول القضية .

كلما تعلم علماء النفس بشكل أكبر ، ازدادت ثقتهم ، ولكن الدقة تظل مستقرة . وبالتالي فإن كافة الأطباء عدا اثنين أصبحوا مفرطي الثقة (بكلمات أخرى ، فاقت ثقتهم دقتهم) ، وبينما ارتفع مستوى الثقة من ٣٣٪ عند المرحلة الأولى إلى ٥٣٪ عند المرحلة الأخيرة ، فإن الدقة تآرجحت إلى ما دون ٢٨٪ (حيث كانت ال ٢٠٪ فرصة بالنظر إلى إعداد السؤال) .

إن فرط الثقة ترتبط غالبًا بشكل مباشر بهذا النوع من ضعف الأداء ، وفي بعض الأحيان بأخطاء جسيمة في إصدار الأحكام . (تخيل طبيبًا في بيئة غير تجريبية يثق كثيرًا بحكمه غير الدقيق . فهل من المحتمل أن يسعى للحصول على رأي ثاني أو أن ينصح مريضه للقيام بذلك؟) إن الأفراد مفرطو الثقة يثقون كثيرًا بقدراتهم الخاصة ، ويرفضون بمنتهى السهولة تلك التأثيرات التي لا يستطيعون التحكم بها ، ويقللون من شأن الآخرين ، مما يقودهم إلى التصرف بشكل أسوأ من المعتاد ، سواء أكان الأمر يتعلق بالتخبط بحل لغز جريمة أو تفويت فحص سريري .

يمكن ملاحظة التسلسل مرارًا وتكرارًا ، حتى خارج الظروف التجريبية وذلك حين تكون النقود والوظائف والمخرجات الشخصية على حافة الخطر . حيث كان أداء التجار مفرطي الثقة أسوأ من نظرائهم ذوي الثقة الأقل ، حيث أنهم يتاجرون بشكل أكبر ولكن عائداتهم تكون أقل . والمدراء التنفيذيون مفرطو الثقة بالغوفي تقييم شركاتهم وأجلوا الاكتتابات العامة مع وجود آثار سلبية لها . كما أنهم أكثر احتمالية للقيام بعمليات الاندماج بشكل عام ، وعمليات الاندماج غير المرغوب فيها بشكل خاص . أما المدراء مفرطو الثقة فقد تبين أنهم أساؤوا إلى عائدات شركاتهم ، كما وأن المحققين مفرطي الثقة أساؤوا إلى سجلاتهم الأصلية من خلال تجاوز تهنته النفس .

إن شيئًا عن النجاح لديه ميل لوضع حد لتلك العملية الأساسية جدًا من التعلم المستمر وغير المنتهي ، ما لم تتم مقاومة هذه النزعة بفعالية ومرة أخرى . لا يوجد شيء كالنصر ليجعلنا نتوقف عن إثارة التساؤلات وتحدي أنفسنا بالطريقة الضرورية للتفكير الهولمزي .

تعلم ملاحظة علامات فرط الثقة

ربما يكون أفضل علاج لفرط الثقة هو معرفة أكثر الأوقات مناسبة للهجوم . فهولمز يعرف كم أن النجاحات والتجارب السابقة مسؤولة عن التسبب بخطأ في التفكير . إنها تمامًا هذه المعرفة التي تدعه يلقي بالفخ للشيرير في قلب مآسي «كلب عائلة باسكريفيل» . عندما يعلم المشتبه به أن شارلوك هولمز وصل إلى مسرح الجريمة ، فإن واتسون يقلق من أن المعرفة ستجعل من اعتقاله الأمر الأكثر

صعوبة . حيث يخبر هولمز : «يؤسفني أنه رآك» . لكن هولمز ليس متأكدًا من أن ذلك أمر سيء ، فبقول : «وكذلك كنت أنا في البداية» . لكنه الآن يدرك ان المعرفة المتوفرة ربما تقوده إلى تدابير يائسة في الحال.. كغالبية المجرمين الأذكياء ، ربما يكون واثقًا جدًا بذكائه الخاص ويتخيل أنه خدعنا جميعًا» .

يدرك هولمز ان المجرم الناجح من المحتمل أن يقع ضحية لنجاحه . ويعرف كذلك كيف يحترس من الإشارة الحمراء للذكاء والتي تعتقد نفسها ذكية للغاية مقللة من شأن خصومها في الوقت الذي ترفع فيه من شأن قوته الخاصة . ويستعمل تلك المعرفة في إلقاء القبض على المتهمين في مواقف عديدة ، وليس في قاعة باسكرفيل فقط .

إن اكتشاف فرط الثقة ، أو العناصر التي تقود لذلك ، في الآخرين هي شيء واحد . أما تحديدها في أنفسنا فهو أمر مختلف تمامًا وأكثر صعوبة . ومن حسن حظنا أن علماء النفس أحرزوا تقدمًا في تحديد أين يكمن فرط الثقة غالبًا في الانتظار .

هناك أربع مجموعات من الظروف تميل لتكون سائدة . الأولى أن فرط الثقة شائع عند مواجهة الصعوبات ، على سبيل المثال عندما يتوجب علينا إصدار حكم على قضية حيث ليس هناك طريقة لمعرفة كافة الحقائق . ويسمى ذلك بالتأثير السهل-الصعب . إننا نميل لنكون أقل ثقة في المشاكل السهلة ومفرطي الثقة في المشاكل الصعبة . ويعني ذلك أننا نقلل من شأن قدرتنا على الأداء بشكل حسن عندما تشير كافة المؤشرات إلى النجاح ، كما أننا نبالغ في تقديرها عندما تصبح المؤشرات أقل رغبة بها ، فاشلين بذلك في التكيف بما فيه الكفاية مع التغير في الظروف الخارجية .

على سبيل المثال ، في شيء يعرف بمهمة الخيار ٥٠ (سي-٥٠) ، فإنه يتوجب على الأفراد الاختيار بين بديلين ثم الحديث عن مدى ثقتهم في اختيارهم بين (١-٥) وقد وجد الباحثون أن مع ارتفاع صعوبة إصدار الحكم ، يزداد عدم التطابق بين الثقة والدقة بشكل جوهري .

واحد من المجالات التي يسود فيها التأثير السهل-الصعب هو القيام بتنبؤات مستقبلية ، وهي مهمة ليس لها معنى إن لم تكن صعبة (أي أنها بطبيعة الحال مستحيلة) . لكن الاستحالة لا تمنع الناس من المحاولة ، ومن أن يصبحوا واثقين بزيادة في وجهات نظرهم وتجربتهم . فكر في البورصة ؛ من المستحيل التنبؤ فعليًا بحركة بورصة معينة . ربما تكون قد عايشت أو حتى تخصصت في شيء ما ، ولكنك مع ذلك تحاول التنبؤ بالمستقبل . إذن هل من المفاجئ بمكان أن ذات الناس الذين قد ضخموا النجاح عند وقت ما ضخموا الفشل أيضًا؟ كلما كنت أكثر نجاحًا ، كلما ازدادت احتمالية مساهمتك بقدراتك ، وهذا جزء هام من المعادلة في التنبؤات المستقبلية . (هذا الأمر صحيح فيما يتعلق بكافة أمور المقامرة والرهان ، ولكن سوق البورصة يجعل من الأسهل الاعتقاد بأن لديك حافة تجريبية داخلية) .

ثانيًا ، يزداد فرط الثقة مع الألفة . فلو كنت أقوم بشيء ما للمرة الأولى ، فمن المحتمل أن أكون حذرة . لكن إذا كنت أقوم به لمرات عديدة ، فإنني من المحتمل أن أثق بقدرتي وأصبح راضية عن نفسي ، حتى لو أن المشهد يجب أن يتغير . وحين نتعامل مع مهام معتادة ، فإننا نشعر نوعًا ما بالأمان ، معتقدين أنه ليس لدينا ذات الحاجة للحذر كنتلك التي نحتاجها حين نحاول شيئًا جديدًا أو لم

نراه من قبل . في مثال كلاسيكي ، وجدت إلين لانجر أن الناس كانوا أكثر احتمالية ليخضعوا لوهم السيطرة (جانب من فرط الثقة حيث تعتقد أنك تسيطر على البيئة لحد كبير يفوق سيطرتك الفعلية) إذا لعبوا اليانصيب الذين كان مألوفاً لهم في مقابل ذلك غير المألوف .

إن الأمر كتشكيل العادة الذي كنا نتحدث عنه . ففي كل مرة نكرر شيئاً ما ، نصبح أكثر تعوداً عليه وتصبح أفعالنا أكثر وأكثر تلقائية ، وبالتالي فإننا نكون أقل احتمالية لتخصيص التفكير أو الاعتبار المناسب لما نفعله . من غير المرجح أن يطبق هولمز نمط القناع الأصفر على قضاياها الأولى ، وهذا يخبر بأن القصة حصلت لاحقاً في مهنته ، ويبدو أنها تمثل قضية ابتزاز تقليدية عايش حالات مشابهة لها سابقاً . وهولمز يعرف الألفة جيداً ، على الأقل حين يتعلق الأمر بالآخرين . ففي «مغامرة المستأجر المقتنع» يصف تجربة زوجين قاما على إطعام أسد لفترة طويلة قائلاً : «كان قد شهد في التحقيق على وجود إشارات بأن الأسد خطير . لكن كالمعتاد ، ولدت الألفة ازدياداً ولم يتم الحصول على أي إشعار من ذلك» . كل ما كان على هولمز فعله هو تطبيق ذلك المنطق على نفسه .

ثالثاً ، يزداد فرط الثقة مع المعلومات . فإذا كنت أعرف أكثر عن شيء ما ، فإنني من المحتمل أن أعتقد أنه بإمكانني التعامل معه ، حتى لو كانت المعلومات الإضافية لا تضيف إلى معرفتي بطريقة فعالة . إن هذا هو ذات التأثير الذي لاحظناه سابقاً في الفصل مع الأطباء الذين كانوا يصرون حكماً على قضية . فكلما زادت المعلومات التي يملكونها حول الخلفية التي جاء منها المريض ، كلما كانوا أكثر ثقة بدقة التشخيص . بالنسبة لهولمز ، فإن لديه

تفصيل فوق الآخر عندما يسافر إلى نوربورج . لكن كافة التفاصيل تمت تصفيتها من وجهة نظر السيد مونرو الذي لم يكن مدركاً لتلك الأكثر أهمية من بينها . ومع ذلك يبدو كل شيء معقولاً بشكل لا يصدق . فنظرية هولمز تشمل بالتأكيد كافة الحقائق المعروفة . لكن هولمز لا يعاير لتلك الاحتمالية على الرغم من ضخامة المعلومات ، إلا أنها معلومات انتقائية . إنه يتيح للكم الهائل من المعلومات أن يطغى على ما يجب أن يكون نوعاً من الحذر . ذلك أنه يظل لا يعرف شيئاً من العامل الرئيسي الذي يمكنه تزويد المعلومات ذات المعنى ، وهو السيد مونرو . وكما دوماً ، الكم لا يعني النوعية .

أخيراً ، يزداد فرط الثقة مع الفعل . فحين ننخرط بشكل فعال ، نصبح أكثر ثقة بما نقوم به . في دراسة كلاسيكية أخرى ، وجدت لانجر أن الأفراد الذين ألقوا بعملة نقدية بأنفسهم ، مقارنة بمشاهدة شخص آخر يرميها ، كانوا أكثر ثقة بقدرتهم على تنبؤ الرأس من الذيل بدقة . على الرغم أنه من ناحية موضوعية ، فإن الاحتمالات لم تتغير . إضافة إلى ذلك ، الأشخاص الذين اختاروا بطاقة اليانصيب الخاصة بهم بأنفسهم كانوا أكثر ثقة بالحصول على نتيجة إيجابية من حين يسحب أحد آخر البطاقة لهم . وفي العالم الحقيقي تكون الآثار واضحة . لنأخذ حالة التجار مرة أخرى ، فكلما زادت تجارتهم ، كلما كانوا أكثر ثقة في قدرتهم على عقد صفقات تجارية رابحة . وبالتالي فإنهم غالباً ما يبالغون في التجارة ويضعفون أداءهم السابق .

ولكن قد أعذر من أنذر . إن الوعي بهذه العناصر يمكن أن يساعدك على مواجهتها . ويعود الأمر برمته إلى الرسالة في بداية الفصل ، أي أنه علينا مواصلة التعلم . إن أفضل ما يمكنك فعله هو

الاعتراف بأنك أيضاً ستتعثّر حتماً سواء بسبب الركود أو فرط الثقة . وفرط الثقة تخلق وهم الحركة بالمقارنة مع الركود المعتاد . لكن تلك الحركة لا تأخذك بالضرورة لأي مكان .

بينما تقترب قصة «الوجه الأصفر» من النهاية ، يكون لدى هولمز رسالة أخيرة لرفيقه ، حيث يقول : «واتسون ، إذا كان يدهشك أنني أفرط في ثقتي بقدرتي ، أو أولي اهتماماً لقضية ما أقل مما تستحقه ، فأرجوك أن تهمس في أذني «نوربوري» وسألتفت حقاً لك» كان هولمز محقاً في شيء واحد ؛ أنه كان لا ينبغي أن يفوت القضية لفترة طويلة . وحتى أفضلنا يحتاجون لتذكير بقدراتهم على خداع أنفسهم .

إلى الأخبار الجيدة الآن

إن الوقت ليس متأخراً على مواصلة التعلم حتى بعد توقفك . لقد افتتحنا الفصل بـ«الدائرة الحمراء» ؛ انتصار هولمز للتعليم اللامنتهي كان عام ١٩٠٢ . أما بالنسبة لسنة «الوجه الأصفر» حين تنتصر الثقة على التعليم الذي يتعرض له المحقق العظيم فهي ١٨٨٨، إنني أثير هذه الحقب الزمنية للإشارة إلى عنصر واضح نوعاً ما ولكنه مركزي في الدماغ البشري ، أننا لا نتوقف عن التعلم . فهولمز الذي تولى قضية مستأجر غامض وانتهى به المطاف متورطاً في ملجئة من الجماعات السرية وعصابات الجريمة الدولية (حيث أن ذلك هو معنى الحلقة الحمراء ؛ أي جريمة إيطالية سرية المرتبطة مع أفعال شريرة باسمها) لم يعد نفس هولمز الذي يرتكب هكذا أخطاء إهمال في «الوجه الأصفر» .

ربما يكون لدى هولمز عدد من النوربورين ، ولكنه اختار أن

يتعلم منهم ويجعل من نفسه مفكراً أفضل في العملية ؛ وصاحب دماغ متقن يبدو أكثر حدة من أي شيء آخر . ونحن أيضاً لا نتوقف عن التعلم سواء أعرفنا ذلك أم لا . ففي وقت «الحلقة الحمراء» كان هولمز يبلغ من العمر ثمانية وأربعين سنة . بالمعايير التقليدية ، ربما كنا نظنه غير قادر على القيام بأي تغيير جوهري عند تلك النقطة من حياته ، على الأقل عند المستوى الأساسي من الدماغ . حتى وقت قريب ، كانت مرحلة العشرينيات من العمر تعتبر العقد الأخير الذي يمكن لتغييرات جوهريّة عصبية أن تحدث ، وهي النقطة التي تكون عندها شبكتنا العصبية مكتملة . لكن هناك أدلة جديدة تشير إلى حقيقة مختلفة تماماً ، فالأمر لا يقتصر على كوننا نستطيع مواصلة التعلم فحسب ، بل إن هيكليّة أدمغتنا يمكن أن تتغير وتتطور بطرق أكثر تعقيداً لفترة أطول ، حتى عند عمر متقدم .

في إحدى الدراسات ، تم تعليم المراهقين التلاعب في ثلاث كرات على امتداد ثلاثة أشهر . وبعد ذلك تم فحص أدمغتهم وأدمغة أولئك الذين لم يحصلوا على التدريب عند ثلاثة نقاط زمنية ، وهي قبل بدء التدريب ، وحين وصلوا مرحلة إجادة اللعب بالكرات ، (مثل كونهم قادرين على الحفاظ على الروتين لثلاثين ثانية على الأقل ،) وبعد نقطة الإتقان بثلاثة أشهر ، وخلال هذا الوقت طلب منهم التوقف عن اللعب بالكرات . في البداية لم تكن هناك فروقات في المادة الرمادية بين المهرجين وغير المهرجين . ففي الوقت الذي وصل فيه المهرجون إلى المهارة ، حصل تغير ملحوظ واضح : ذلك أن مادتهم الرمادية ارتفعت على الصعيد الثنائي (مثلاً في كلا النصفين) في منتصف المنطقة الزمنية والفص الجداري الخلفي ، وهي منطقة مرتبطة

بالمعالجة والمعلومات البصرية المعقدة . لم يكن المهرجون يتعلمون فحسب ، لكن أدمغتهم كانت كذلك أيضاً . وكان التعلم على مستوى أكثر أساسية مما كان يعتقد سابقاً .

الأكثر من ذلك أن تلك التغييرات العصبية يمكن أن تحدث بشكل أسرع مما ندرك . عندما علم مجموعة من الباحثين مجموعة من المراهقين على تمييز فئات محددة حديثاً وأصناف مسماة للونين أخضر وأزرق على امتداد ساعتين (أخذوا أربعة ألوان يمكن الإخبار عنها بصرياً لا معجمياً وعينوا أسماء عشوائية لكل منها) فقد لاحظوا زيادة في حجم المادة الرمادية في مجال القشرة البصرية المعروفة لرؤية الألوان المتوسطة . وبالتالي ، ففي ساعتين فقط ، كان الدماغ يظهر نفسه مستقبلاً لمدخلات جديدة وللتدريب على مستوى هيكلي عميق .

حتى شيء كان ينظر إليه بشكل تقليدي على أنه اختصاص الشباب - القدرة على تعلم لغات جديدة- يواصل تغيير مشهد الدماغ من وقت متأخر من الحياة . عندما خضعت مجموعة من المراهقين لمساق مكثف لمدة تسعة شهور في اللغة الصينية الحديثة ، فإن الجزء الأبيض من أدمغتهم أعيد تنظيمه تدريجياً (كما تم قياسه شهرياً) في مناطق اللغة من القسم الأيسر من الدماغ ومثيلاتها في القسم الأيمن كما في النهاية الأمامية للجسم الثفني ؛ تلك الشبكة من الألياف العصبية التي تربط النصفين معاً والتي مرت علينا في النقاش حول مرضى الدماغ المنقسم .

فكر فقط في تغيير الروابط والذي يحدث في الحالات المتطرفة عندما يفقد شخص بصره أو يكون لديه أطراف صناعية أو يعاني من أي تغيير جوهري آخر في جسده . حيث تصبح مناطق كاملة

من الدماغ مستغلة في وظائف جديدة . فبالحصول لدينا أدمغة قادرة
تحصيل مآثر التعلم والتي لا تقل شيئاً عن المعجزة .
لكن هناك المزيد . يبدو واضحاً الآن أنه مع التطبيق والممارسة
باستطاعة الكبار إلغاء علامات التدهور المعرفي الذي حصل
مسبقاً . فكم من المدعش اعتبار ذلك حتى لو كنا كسولين طوال
حياتنا ، فباستطاعتنا القيام بفرق جوهري وعكس الضرر الذي تم
ارتكابه ، فقط إذا كررنا أنفسنا وتذكرنا دروس هولز الأكثر ديمومة .
هناك بطبيعة الحال جانب سلبي في كل ذلك . فإذا كانت
أدمغتنا تستطيع مواصلة التعلم -ومواصلة التغيير بينما نتعلم- طوال
حياتنا ، فإنها أيضاً تستطيع مواصلة عدم التعلم . فكر في هذا : في
دراسة الخفة تلك ، وبحلول موعد الفحص الثالث ، تناقص امتداد
الجزء الرمادي والذي كان أعلن عنه قبل ثلاثة شهور بشكل
واضح . وماذا عن كل ذلك التدريب؟ لقد بدأ بالانهيار على كافة
المستويات : الأداء والعصبية . ماذا يعني ذلك؟ إن أدمغتنا تتعلم
سواء أعرفنا ذلك أم لم نعرف . فإذا لم نقوي الروابط فإننا نفقدها .
ربما يتوقف تعليمنا إذا اخترنا ذلك ، ولكن أدمغتنا لن تفعل .
فدماغنا سيواصل الرد على قرارنا لكيفية استخدامه . والفرق ليس
فيما إذا كنا نتعلم أم لا ، لكن فيما نتعلمه وكيف . فنحن نستطيع
أن نتعلم كيف نكون سلبيين ، وكيف نتوقف بالتالي عن التعلم .
كما يمكننا تعلم أن نكون فضوليين وباحثين ونواصل تعليم أنفسنا
عن أشياء لم نعرف أننا بحاجة لمعرفة . وإذا اتبعنا نصيحة هولز
فإننا نعلم أدمغتنا أن تكون نشيطة . وإن لم نفعل وكنا قانعين
ونصل إلى نقطة محددة حيث نقرر أنها جيدة بما فيه الكفاية ، فإننا
نعلمها العكس .

الجزء الرابع:

علم وفن

معرفة الذات

الفصل السابع العلية الحيوية:

وضع كل شيء معاً

في الصفحات الافتتاحية من «كلب عائلة باسكرفيل»،
يدخل واتسون غرفة الجلوس في شارع بيكر-٢٢١ ب ليجد عصا
مشي تركها جيمس مورتييم . وعندما يستغل الفرصة لمحاولة تطبيق
منهج هولز ، ورؤيته ما يمكنه استنتاجه حول الطبيب من مظهر
عصاه ، يجد أن أفكاره تمت مقاطعتها من قبل صديقه .

يسأل هولز : «حسناً واتسون ، ما رأيك في ذلك؟»

وهنا يصدم واتسون . لقد كان هولز جالساً على طاولة الإفطار
وظهره محني . كيف عرف ما الذي كان يقوم أو يفكر به الطبيب؟
لا بد أنه يملك عينين في الجزء الخلفي من رأسه .

يقول هولز : «ليس تماماً ، فلدي على الأقل وعاء قهوة مصقول
جيداً ومطلي بالفضة أمامي . دعني أسمعك تعيد تركيب الرجل
من خلال فحص ذلك» .

يأخذ واتسون التحدي ببسالة محاولاً أفضل ما لديه لعكس
المنهج المعتاد لرفيقه . «أعتقد أن الدكتور مورتييمر رجل محترم
وناجح ، فمن عرفوه منحوه علامة التقدير هذه . وأعتقد أيضاً أن
الاحتمالية تدعم أن يكون ممارساً للمهنة يقوم بجزء كبير من زيارته
على القدمين» .

يبدو الجزء الأول مبدئيًا منطقيًا بما فيه الكفاية ، ولكن لماذا يستنتج واتسون الجزء الثاني؟ يقول : «لأن هذه العصا وإن كانت جميلة في الأصل ، إلا أنه تم الطرق بها كثيرًا حتى أننا لا أستوعب أن طبيبًا ممارسًا يمكن أن يحملها» .

يسر هولمز بذلك ، فيقول : «منطقي تمامًا وماذا أيضًا؟»
فيرد واتسون : «هناك أيضًا أصدقاء سي . سي . اتش . عليّ أن أخمن ذلك الشيء يرمز إلى الصيادين الذي ربما كان يقدم خدمات جراحية لأفرادهم فقدموا له بالمقابل هدية بسيطة» .

يجيب هولمز : «حقًا يا واتسون إنك تتفوق على نفسك» ثم يتابع مدح واتسون واصفًا إياه بالموصل للضوء والمحفز للعبقرية ، ومنهيًا أنشودة الشكر بقوله : «عليّ أن أعترف يا صديقي العزيز أنني مدين لك» .

هل تعلم واتسون الحيلة أخيرًا؟ هل أتقن عملية التفكير الخاصة بهولمز؟ حسنًا ، على الأقل للحظة فإنه يتمتع بالمجاملة حتى يعلق هولمز قائلاً بأن هناك مؤشرًا أو اثنين على الأقل يستطيعان تأييد أساس الاستنتاج .

يسأل واتسون بنوع من الاعتراف بأهمية الذات : «هل فاتني شيء؟ أعتقد أنني لم أتجاهل شيئًا ذي تبعات» .

فيرد هولمز : «ليس تمامًا . أخشى عزيزي واتسون أن غالبية استنتاجاتك كانت خاطئة . عندما قلت أنك حفرتني ، قصدت وبكل صراحة ، أنني بملاحظة أخطائك كنت أقاد إلى الحقيقة ليس الأمر أنك منخطئ تمامًا في هذا المثال . فالرجل حتمًا مارس للمهنة ويمشي مسافات جيدة» .

يأخذ واتسون ذلك ليفهم أنه كان محقًا . حسنًا ، فقد الآن

فهم هذه التفاصيل بدقة . لكن هل لا يزال محققاً إذا فشل في رؤية الصورة الأكبر؟

ليس بالنسبة إلى هولز . فهو يقترح على سبيل المثال أن سي . سي . اتش من المحتمل أن ترمز إلى Charing Cross Hospital أكثر من أي نوع من الصيد المحلي ، ومن هناك تنبع الاستنتاجات المتعددة والتي يتساءل واتسون عنها . يقول هولز : « أنت تعرف قوانيني ، طبقها » .

ومع ذلك الإقحام المشهور أو ذلك التحدي إذا شئت ، يعتمد هولز على عمله المبهر المنطقي الذي ينتهي بوصول الدكتور مورتيمر بنفسه متبوعاً مباشرة بالكلب مجعد الشعر والذي استنتج المحقق وجوده لتوه .

إن هذا الجواب السريع يجمع كافة عناصر المنهج العلمي معاً إلى التفكير الذي استكشفتنا في هذا الكتاب والذي يخدم كنقطة قفز شبه مثالية لنقاش كيفية جمع عناصر عملية التفكير معاً ، وكيف ان ذلك ممكن أن ينقص . فعصا المشي تلك توضح كلاً من كيفية التفكير السليم وكيف ان الشخص من الممكن أن يفشل في ذلك . وهي تمثل ذاك الخط الحاسم بين النظري والعملي ، بين معرفة كيف نفكر والممارسة الفعلية لذلك .

لقد لاحظ واتسون هولز في العمل عدة مرات ، ومع ذلك فعندما يتعلق الأمر بتطبيق العملية بنفسه ، يظل غير ناجحاً في ذلك . لماذا؟ وكيف يمكننا تحسين ذلك لأجله؟

١. اعرف نفسك وبيئتك

إننا نبدأ كما دوماً بالأساسيات . ما الذي نحضره بأنفسنا إلى

حالة ما؟ وكيف نقيم المشهد حتى قبل أن نبدأ بعملية الملاحظة؟
بالنسبة لواتسون ، يبدأ السؤال الذي في متناول الأيدي بعضا
المشي «قطعة سميكة من الخشب ، منفوخة الرأس ومن النوع الذي
يعرف بـ«محمي بينالج» ، وهي تمامًا كتلك العصا التي اعتاد
الممارس الكبير في العائلة حملها ؛ صلبة ووقورة» . ذلك الجزء الأول
جيد ، حيث أنه وصف للخصائص الخارجية للعصا . لكن انتبه
للجزء الثاني . هل تلك ملاحظة حقيقية أم أنها استنتاج؟

بالكاد بدأ واتسون في وصف العصا ، وتحيزاته الشخصية تغطي
على تصوراتهِ . كما وأن تجاربه الخاصة وماضيه ووجهات نظره
تشكل أفكاره دون إدراك ذلك . فالعصا ليست مجرد عصا ، فهي
تعود لممارس قديم من العائلة بكل الخصائص التي تترتب على تلك
الصلة . فالصورة المتشكلة فوراً لطبيب العائلة ستصبح كل حكم
سيصدره واتسون من الآن فصاعداً ، ولن تكون لديه فكرة بأنها
تفعل ذلك . في الحقيقة ، سيخفق حتى في اعتبار أن سي . سي .
اتش ربما ترمز لاسم مستشفى ، وهو شيء كان عليه أن يكون مدركاً
له باعتباره طبيباً .

إن هذا هو الإطار أو البداية اللاشعورية بكل مجدها . ومن
يعرف ما هي التحيزات والأفكار الشائعة الأخرى التي ستجمع من
زوايا عليّة دماغ واتسون؟ حتماً ليس هو . لكننا نستطيع معرفة شيء
واحد ، أن أية إرشادات أو قواعد ستؤثر على حكمه الفعلي من
المحتمل أن تكون جذورها متأصلة في تقييمه المبدي الطائش .

من ناحية أخرى ، يدرك هولمز أن هناك خطوة تسبق بدء
دماغك للعمل بأقصى إمكانياته . على العكس من واتسون ، فهو
لا يبدأ بالملاحظة دون إدراك ذلك ، ولكنه يقدر العملية من البداية

ويبدأ قبل العصا . وهو يستوعب الحالة كاملة ؛ الطيب والعصا وكل شيء قبل أن يبدأ بعمل ملاحظات مفصلة . ولفعل هذا فإنه يقوم بشيء أكثر ملأً مما يتخيله واتسون ؛ حيث ينظر في إبريق القهوة الفضي المصقول . إنه لا يحتاج لاستخدام طاقاته الاستنتاجية حيث يمكنه استخدام العاكس ، فلم يضيعها دون جدوى؟

لذا أيضاً علينا أن ننظر دائماً حولنا لرؤية إذا كان هناك مرآة جاهزة بالانتظار قبل أن نهبط دون وجود فكرة ثانية ، ثم نستخدمها لجرد الحالة كاملة بدلاً من جعل الدماغ ينطلق بنفسه بطيش والبدء بمسك من يعرف ماذا من عليتنا دون معرفتنا وتحكمنا .

إن تقييم بيئتنا يعني عدة أشياء بناء على الخيارات التي نتخذها . فبالنسبة لهولمز تقييم البيئة كان ملاحظة الغرفة وتصرفات واتسون وإبريق القهوة المتوفر بسهولة . أيًا كان ، نستطيع أن نرتاح مطمئنين أن الأمر يتطلب التوقف قليلاً قبل الغوص . فلا نستطيع أن ننسى النظر إلى محيطنا قبل البدء بالتصرف أيًا كان أو حتى قبل البدء في عملية التفكير الهولمزية . فبعد كل شيء يعد التوقف وإعطاء الرأي حول الموقف هو الخطوة الأولى في تلك العملية . إنها النقطة صفر من الملاحظة . فقبل البدء بجمع التفاصيل ، علينا معرفة أي التفاصيل التي سنقوم بجمعها .

تذكر ان التحفيز الواعي المحدد يهم كثيراً ، حيث علينا أن نضع أهدافنا قبل وقت . دعها تخبرنا كيف نتقدم وكيف نوظف مواردنا الإدراكية الثمينة . علينا أن نفكر بها بشكل كامل ، وأن ندونها ونتأكد أنها واضحة قدر الإمكان . إن هولمز لا يحتاج لأخذ الملاحظات ليتأكد ، ولكن غالبيتنا يحتاج لذلك على الأقل فيما يتعلق بالخيارات المهمة بحق . فهي تساعد في توضيح النقاط

المهمة قبل البدء في رحلة التفكير : ما الذي أريد إنجازاه؟ ماذا يعني ذلك لعملية التفكير المستقبلية؟ إن عدم النظر لا يعني بالضرورة عدم الإيجاد ، ولنجد ، علينا أولاً معرفة إلى أين ننظر .

٢. لاحظ بحذر وبشكل مدروس

عندما ينظر واتسون إلى العصا ، يلاحظ حجمها ووزنها الكبير . كما ويلاحظ القاع المضروب الذي هو إشارة لمشي مستمر في تضاريس صعبة . وأخيراً ينظر إلى النص سي . سي . إتش ويختتم بذلك ملاحظاته واثقاً كما العادة من أنه لم يفته شيء . أما هولمز من الناحية الأخرى فليس متأكداً تماماً . فبداية هو لا يحصر ملاحظاته على العصا كشيء مادي ، فبعد كل شيء إن الهدف الرئيسي هو معرفة معلومات عن الشخص الذي كان يملكها . فيخبر واتسون قائلاً : «لقد كان الشخص الذي ترك عصاه وليس بطاقة زيارته في غرفتك بعد الانتظار لساعة شارد الذهن» . لكن حتماً تم ترك العصا . إن واتسون يعرف ذلك بطبيعة الحال ، ولكنه في ذات الوقت لا يعرفه .

الأكثر من ذلك أن العصا تخلق سياقها الخاص وإصدارها الخاص من تاريخ مالكتها إذا شئت عبر ميزة النص الموجود عليها فبينما يقرأ واتسون الأحرف سي . سي . سي . إتش في ضوء تصوراته غير الواعية حول الطبيب الممارس فقط ، فإن هولمز يدرك أنه لا بد من ملاحظتها لوحدها دون أية افتراضات مسبقة . وفي ضوء ذلك ، تخبر قصتها . لماذا يمكن أن يتلقى طبيب عصا كهديّة؟ أو كما يقول هولمز : «أي المناسبات أكثر احتمالاً لتقديم هكذا شيء؟ متى يمكن لأصدقائه التجمع لإعطائه وعدداً بنيتهم الحسنة؟» تلك هي نقطة

الانطلاق التي توحى بها ملاحظة حقيقية للنص لا ملاحظة متميزة ، وتلك النقطة توحى بقصة خلفية يمكن الوصول إليها من خلال الاستنتاج الحذر . عن السياق جزء مدمج بالحالة ، وليس اكسسواراً يمكن أخذه أو تركه .

بالنسبة للعصا نفسها ، لم يكن الطبيب الجيد حذراً في ملاحظاته كما كان يجب أن يكون . فبداية لمجده يلقي نظرة سريعة لها ، بينما هولمز «يتفحصها لبضعة دقائق بعينه المجردة» . ثم يضع سيجارته في تصرفي يوحى بالحذر ، ويحمل العصا متوجهاً إلى النافذة . هناك ينظر لها مجدداً باستخدام عدسة محدبة» . وبالتالي فهو يفحصها من مسافة أقرب من زوايا ومنهجيات متعددة . إن منهجه ليس سريعاً كما واتسون ، ولكنه أكثر شمولية . وبينما ربما يكون صحيحاً أن هكذا حذر لن يعود بتفاصيل جديدة ، ولكنك لن تعرف ذلك مسبقاً . لذا إذا كنت تلاحظ بحق ، عليك ألا تنسى ذلك . (على الرغم من أن النافذة والعدسة المحدبة ربما تكون أمور مجازية ؛ إلا أنها توحى بدرجة من الفحص الأقرب ووقت الشك المطلق الذي تتم تضييته في تأمل المشكلة)

يلاحظ واتسون حجم العصا وقاعها الضعيف . هذا صحيح ، ولكنه يفشل في رؤية علامات أسنان واضحة في منتصفها . علامات أسنان على عصا؟ من الصعب أخذ تلك الملاحظة كتلميح على وجود كلب قام بحمل العصا ، وحملها غالباً وراء سيده (كما يفعل هولمز في حقيقة الأمر) . فذلك أيضاً جزء من الملاحظة والقصة الكاملة للدكتور مورتيمر . الأكثر من ذلك كما يشير هولمز إلى صديقه هو أن حجم فك الكلب واضح من المسافة بين العلامات جاعلاً من الممكن بمكان تصور أي أنواع الكلاب كان .

وذلك بطبيعة الحال يمكن أن يقفز بنا إلى الاستنتاج . لكنه لن يكون من الممكن بمكان على الإطلاق دون معرفة التفاصيل الضرورية وملاحظة فعاليتها الممكنة ذهنياً من أجل تحقيق هدفك الكلي .

٣. تخيل-تذكراء الفضاء

ربما لا تعتقد أنك تحتاج لذلك.

بعد الملاحظ يأتي ذلك الفضاء الإبداعي ؛ ذلك الوقت لعكس واستكشاف مدخلات ومخرجات عليتك والمسماة بالتخيل . إنها استراحة العقل تلك ، وتلك المشكلة ثلاثية الغليون ، وفاصل الكمان ذلك أو الأوبرا أو المقطوعة الموسيقية أو الرحلة إلى متحف الفنون ، ذلك المشي وذلك الذي يعرف ما الذي يجبرك على خطو خطوة للوراء من أية الموقف قبل أن تتقدم مرة أخرى .

علينا إعطاء واتسون بعض الفضل هنا . فليس لديه الوقت ليأخذ استراحة ذلك أن هولمز يضعه في الموقف مباشرة متحدثاً إياه لتطبيق أساليب المحقق من أجل استنتاج ما يمكنه استنتاجه حول تلميحات أن سي . سي . اتش ترمز إلى مستشفى بدلاً من نوع من أنواع الصيد .

لكن بإمكان واتسون القيام بشيء أقل تطرفاً ولكنه أكثر مناسبة لمشكلة أقل قدرًا من حل لغز جريمة كاملة . فبعد كل شيء ليس كل شيء مشكلة ثلاثية الغليون . فربما يكون من الكافي بمكان خطو خطوة مجازية إلى الوراء ، وإبعاد نفسك ذهنياً والتوقف وإعادة التشكيل وإعادة الدمج ضمن إطار زمني أقصر .

لكن واتسون لا يقوم بهكذا شيء . حتى أنه لا يعطي نفسه

الوقت للتفكير بعد أن يشجعه هولمز على القيام بذلك ، قائلاً إنه يمكنه فقط «استنتاج النهايات الواضحة» وليس رؤية شيء أكثر من ذلك .

بمقارنة المنهج الذي يأخذه كل من واتسون وهولمز ؛ فإن واتسون يذهب مباشرة لها ، أي من ملاحظة وزن وشكل العصا إلى صورة الطبيب الممارس القديم ، ومن سي . سي . اتش إلى شيء للصيد ، ومن الحلقة الحديدية المهترئة إلى طبيب ممارس يجوب البلاد . أما هولمز من الناحية الأخرى فيمضي وقتاً أطول بين ملاحظاته واستنتاجاته . تذكر أنه بداية يستمع لواتسون ثم يستكشف العصا ثم يتحدث مع واتسون مرة أخرى وأخيراً عندما يبدأ بإدراج استنتاجاته ، فلا يقوم بذلك على الفور . وبدلاً من ذلك يطرح على نفسه أسئلة توحى بعدد من الإجابات قبل أن يثبت على احتمالية . إنه ينظر إلى احتمالات وزوايا مختلفة - هل كان الدكتور مورتيمر في ممارسة راسخة في لندن؟ أم طبيباً منزلياً؟ أم طالباً؟ - ثم يأخذ الأكثر احتمالية في ضوء كل ملاحظاته السابقة . إنه لا يستنتج بل يعطي رأيه ويتلاعب بالخيارات المتاحة . إنه يتساءل ويفكر ثم يبدأ بتشكيل استنتاجاته .

٤ . استنتاج - فقط مما لاحظته لا شيء أكثر .

من عصا مشي إلى «رجل محترم كبير في السن ويعمل في المجال الطبي» و«طبيب ممارس يوم بالكثير من زيارته مشياً على الأقدام» و«قدم مساعدة جراحية» حصل مقابلها على العصا ، إذا كنت واتسون . ومن ذات العصا إلى طبيب منزلي ، «شاب تحت الثلاثين من عمره ، محبوب ، وغير طموح وشارد الذهن ومالك

كلب مفضل» - كلا كلب ذي شعر مجعد- حصل على العصا بمناسبة الانتقال من المستشفى إلى البلاد إذا كنت هولمز . ذات نقطة البداية ولكن استنتاجات مختلفة تمامًا (مع التقاطع الوحيد لممارس على مستوى البلاد ويمشي لمسافات طويلة) . كيف يختلف شخصان تمامًا عندما يواجهان ذات المشكلة؟

قام واتسون باستنتاجين صحيحين : أن العصا تعود لطبيب ممارس على مستوى البلاد وأن الممارس يقوم بالكثير من زيارته مشيًا على الاقدام . لكن لماذا كبير في السن ومحترم؟ من أين جاءت هذه الصورة لممارس العائلة الواعي والمخلص؟ ليس من أي ملاحظة فعلية . لقد جاءت من تصنيع لدماغ واتسون ، ومن ردة فعله المباشرة بأن العصا كانت تلك التي اعتاد الطبيب القديم الممارس في العائلة على حملها .

العصا بنفسها ليست شيئًا كذلك عدا عن كونها صلبة . إنها جسم يحمل علامات محددة . لكن بالنسبة لواتسون لديها قصة على الفور . لقد أثارت ذكريات لديها القليل من التذكر حول القضية التي في متناول الأيدي وبدلاً من ذلك تشتت أجزاء أثاث علية الدماغ التي فعلتها عمليات ذاكرة مرتبطة لا يكاد واتسون بنفسه يدركها . وينطبق الأمر ذاته على تعقب لمحلين . فقد أصبح واتسون مركزاً للغاية على طبيب الدولة القوي المتصور حتى أنه يبدو منطقيًا له بأن عصا المشي كانت هدية من عملية صيد قدم الدكتور مورتيمر مساعدة جراحية لأفرادها . في الحقيقة ليس لدى واتسون أية خطوات منطقية وجذرية لإظهار هذه الاستنتاجات . فهي نابعة من تركيزه الانتقائي والطبيب الموجود في خياله كرجل عائلة مطمئن وكبير في السن ، يمكن للدكتور مورتيمر أن يكون عضواً في

عملية تعقب محلية وجراحًا جاهز دومًا لتقديم مساعدته . لكن بطبيعة الحال فإن شخصًا بهذه المكانة يجب أن يكون جراحًا يخفق واتسون في ملاحظة رمز M.R.C.S (عضوية الكلية الملكية للجراحين) والمرفق لاسم مورتيمر ، وهو شيء سيشير له الرجل بنفسه لاحقًا في إطار تصحيح هولمز عندما يخاطبه بصفته طبيبًا . وهي إضافة تعطي تناقض المكانة التي افترضها مورتيمر في دماغ واتسون مفرط الحركة . ولا يدون أية ملاحظة ، كما ناقشنا ، حول حقيقة العصا التي تم تركها في غرفة الزيارة . إن ذاكرته في هذا المثال انتقائية بغفلة كما انتباهه . فبعد كل شيء ، لقد قرأ M.R.C.S عندما نظر للمرة الأولى إلى العصا . لقد كان هذا الرمز معتمًا تمامًا بالتفاصيل التي قدمها دماغه بناء على طبيعة العصا . وعر منذ البداية أن مالك العصا قد تركها مساء اليوم السابق ، ولكن ذلك أيضًا كان بالنسبة لدماغه كملاحظة أو حقيقة تستحق الملاحظة .

ومن ناحية أخرى ، تأتي ترجمة هولمز لما حصل من عملية تفكير مختلفة تمامًا وواعية لنفسها ومعلوماتها بشكل مطلق وتسعى لدمج كافة الأدلة وليس الأجزاء الانتقائية فقط ، ولا استخدام ذلك الدليل ككل بدلاً من التركيز على أجزاء محددة دون أخرى ، وتلوين بعضها بألوان مشرقة وأخرى بألوان شاحبة .

أولاً : عمر الرجل . يخبر هولمز واتسون بعد أن أقنع الطبيب بأن الاحتمال الأكبر لمعنى سي . سي . اتش هو مستشفى تشارنج كروس (فبعد كل شيء نحن نتحدث عن طبيب . فأليس من الأكثر منطقية أنه حصل على الهدية من المستشفى وليس من الصيد؟) يخبره بأنه لا يمكن أن يكون موظفًا في المستشفى مجرد أن

رجل متمرس في مهنته في لندن يمكن أن يشغل هكذا منصب ، وهكذا شخص لن ينجرف إلى البلاد» . (إننا نعرف طبعاً أن التوجه إلى البلاد الذي فعله الرجل ، بناء على مؤشرات العصا ، هي التي لاحظها واتسون) . الأمر عادل بما فيه الكفاية . فشخص أنشئ بشكل جيد يمكن بصعوبة أن يصل ويترك ما لم تكن هناك بعض الظروف غير المرئية لكن ليس هناك ظروف يمكن إدراكها من أدلة العصا ن حيث أن ذلك ليس تفسيراً يمكن اعتباره من الدليل المتوفر (وبالتالي فأخذها بعين الاعتبار من الممكن أن يتضمن المغالطة الدقيقة التي يرتكبها واتسون في خلق نسخته من الطبيب ، وهي قصة سردها الدماغ وليس بناء على ملاحظة موضوعية)

من إذن؟ يفسر هولمز الأمر كالتالي : «لو أنه كان في المستشفى وليس ضمن الفريق ، لكان طبيب منزلي أو طبيب عائلة . وقد غادر قبل خمس سنوات ، والتاريخ موجود على العصا . بالتالي فهو طبيب مارس يبلغ عمره اقل من ثلاثين سنة لاحظ أيضاً أنه بينما هولمز متيقن بشأن العمر - فبعد كل شيء ، فقد استهلك كافة خيارات مسماه السابق حتى ظل بديل منطقي واحد (تذكر أنه ربما تبقى العديد من التوضيحات التي يتم اختبارها واحداً بعد الآخر حتى يكون لواحد منها دعم مقنع) . إنه لا يذهب بعيداً كما واتسون في استلزام أن الرجل محط السؤال هو جراح ؛ فربما يكون طبيباً فقط . وليس هناك دليل للإشارة نحو أي من الاتجاهين ، وهولمز لا يستنتج قبل أن يقوده الدليل . ربما يكون ذلك خطأ كما عدم الاستنتاج بشكل كافٍ .

ماذا عن شخصية الرجل؟ يقول هولمز : «بالنسبة للصفات ، فإنني قلت على ما أتذكر «محبوب وغير طموح وشارد الذهن» . (إنه

يتذكر جيداً) كيف يمكن أن يكون قد استنتج هذه الصفات؟ يتضح أن واتسون لم يستنتج مجموعة الصفات هذه بالطريقة القديمة . يقول هولمز : «ربما تكون التجربة ، حيث أنه في هذا العالم الرجل المحبوب هو فقط الذي يحصل على التزكيات ، والشخص غير الطموح هو فقط وظيفة في لندن ويستبدلها بأخرى في البلاد ، وشخص شارد الذهن هو فقط من يترك عصاه في غرفة الزيارة بعد الانتظار لمدة ساعة» إن كل ميزة تتبع مباشرة من إحدى الملاحظات (التي تمت تنقيتها عبر الوقت وفضاء التخيل حتى ولو لبضعة دقائق) التي قام بها هولمز سابقاً .

إن الحقيقة الموضوعية هي اعتبار خيارات متعددة وتحديد أكثرها احتمالية دون وجود تفاصيل زائدة وفراغات يتم ملؤها بالتخيلات . وهنا يكون الاستنتاج العلمي بأفضل صورته .

وأخيراً ، لماذا يعطي هولمز الدكتور مورتيمر كلباً ونوع محدد من الكلاب؟ لقد ناقشنا سابقاً علامات أسنان الكلب والتي لم يلاحظها واتسون . لكن العلامات-أو بالأحرى المسافات بينها- محددة تماماً «عريضة جداً في رأيي بالنسبة لكلب وليست عريضة بما فيه الكفاية لكلب الدراواس» . ربما يكون هولمز قد وصل إلى كلب مجعد الشعر بنفسه متبعاً ذلك القطار المنطقي . لكن ليس لديه فرصة للقيام بذلك لان الكلب محط السؤال يظهر في تلك اللحظة إلى جانب مالكه . وهناك تأتي نهاية الأثر الاستنتاجي . لكن ألم يكن الأمر واضحاً بقدر ما مضى؟ ألم يجعلك تريد القول إنه أساسي؟ كيف لم أر ذلك بنفسني؟ إن ذلك تماماً هو الاستنتاج بأفضل صورته وما يقصد منه أن يفعل .

٥. تعلم من أخطائك تماماً كما من نجاحاتك

بملاحظة أخطاء واتسون في هذا المثال تحديداً ، يتعلم هولز أكثر عن هفوات عملية التفكير ؛ تلك اللحظات التي يكون عندها من السهل بمكان التيه ، وتحديداً في أي الاتجاهات يكمن الخط الخاطئ غالباً . من هذه المواجهة سيأخذ طاقة التفعيل النمطي والتأثير الهائل الذي يمكن لإطار أولي غير مناسب أن يفعله على الاستنتاجات اللاحقة ، كما الخطأ الذي يظهر عندما يفشل أحدهم في أخذ كل ملاحظة بعين الاعتبار ويركز بدلاً من ذلك على الملاحظات الأكثر حداثة وبتوء وتلك التي يمكن الوصول لها ، إن الأمر ليس أنه لا يعرف كلاً من هذه الأشياء ، ولكن كل مرة يكون الأمر تذكيراً وإعادة تعزيز وتوضيحاً جديداً في سياق مختلف يضمن عدم فساد معرفته .

وإذا كان واتسون يولي اهتماماً شديداً ، فإنه عليه أن يأخذ الأمور ذاتها ويتعلم من تصحيحات هولز من أجل تحديد تلك اللحظات التي أخطأ فيها ويتعلم كيف يكون على صواب في المرة القادمة . للأسف إنه يسلك الطريق الآخر مركزاً على جملة هولز أنه «ليس منخطئاً تماماً في مثاله» . فالرجل طبيب ممارس على مستوى البلاد بحق ، ويقطع مسافات لا بأس بها مشياً على الأقدام «فبدلاً من محاولة معرفة لماذا عرف هذين التفصيلين بدقة بينما فشل في معرفة التفاصيل الأخرى» ، يقول واتسون : «لقد كنت محقاً» . تاركاً فرصة التعلم ومركزاً بدلاً من ذلك على الملاحظات المتوفرة ، وبشكل انتقائي .

إن التعليم جيد ومفيد ، ولكنه يتطلب الحصول عليه من مستوى النظرية إلى الممارسة مراراً وتكراراً خشية أن يبدأ بتجميع

الغبار وترك ذلك الفاسد خارجًا ، وترتيب رائحة العلية التي ترك بابها مغلقًا لسنوات .

في أي وقت يتوفر لدينا الحافز لأخذ الأمر ببساطة ، سنتصرف بشكل جيد لنحضر للدماغ صورة شفرة الخلاقة الصدئة من «وادي الخوف» . سلسلة طويلة من الأسابيع المعقمة خلفنا ، وهنا أخيرًا شيء مناسب لتلك الطاقات المميزة التي تصبح ككافة الهدايا المميزة متعبة لصاحبها عندما لا يتم استخدامها . وتدريب أدمغتنا حتى على الأشياء غير المهمة سيساعد على الحفاظ عليها حادة للأمور الهامة .

الوقت للاحتفاظ بمفكرة

لنأخذ استراحة سريعة من قصة السيد مورتيمر . سأحدثكم عن صديقة مقربة لي وسأسميها إيمي ؛ تعاني من داء الشقيقة من فترة طويلة . ذات مرة ظنت أنها تموت ، ومرة أخرى ظنت أنها أصيبت بالفيروس العصبي الذي انتشر في الأرجاء . لقد تطلب الأمر منها سنوات حتى تعلمت تمييز العلامات الأولى للنوبة وتركض نحو أقرب غرفة مظلمة وتتناول جرعة من دواءها قبل أن تبدأ بنوبة إنني على وشك الموت ولي ألم في المعدة . لكن فعليًا كانت تستطيع التحكم بالأمر . حين كانت تصيبها نوبة الشقيقة عدة مرات في الأسبوع ، كانت تترك عملها والكتابة وكل شيء . وكان الوضع يسوء حين تصيبها النوبة في أوقات غير مناسبة عندما لا يكون لديها مكان مظلم أو دواء .

قبل نحو سنة ، توجهت إيمي إلى أطباء رعاية أولية . وخلال دردشة التعارف المعتادة ، تدمرت كما دومًا من الشقيقة . لكن بدلاً

من الإشارة برأسه للتعاطف ووصف جرعة إضافية من الدواء كما كان يفعل كل طبيب ، هذا الطبيب تحديداً سألها سؤالاً : «هل لديك مفكرة حول الشقيقة؟» .

كانت إيمي مرتبكة . هل كان يفترض أن تكتب من منظور الشقيقة؟ هل كان عليها أن تحاول أن ترى من خلال الألم وتصف أعراضها للأجيال القادمة؟ لا كان الأمر أكثر بساطة . لقد أعطاه الطبيب حزمة من الأوراق المطبوعة بحقول مثل وقت البدء/ النهاية ، علامات الحذر ، ساعات النوم ، ماذا أكلت في ذلك اليوم وغيرها . في كل مرة كانت تصيبها الشقيقة ، كان عليها تعبثها بشكل رجعي بأفضل ما لديها . وكان عليها فعل ذلك حتى يصير عندها حزمة أو نحوها منها .

هاتفنتي إيمي لاحقاً لتخبرني رأيها بشأن منهج الطبيب الجديد : إن التمرين برمته كان سخيفاً . لقد عرفت ما الذي سبب الشقيقة ، وأخبرتني بثقة . لقد كان التوتر والتغيرات في الطقس . لكنها قالت وضحكت ، وضحكت معها .

لم أكن لأخبر بالنتائج الآن لو أن النتائج لم تكن صادمة لكلانا . هل سبق وأن سبب الكافيين الشقيقة؟ لقد سأل الطبيب إيمي في محادثتهما الأولية إن كانت تتناول الكحول ، فهزت برأسها معترفة بأنها تتناولها . حتماً لا ، ليس هناك صلة أيًا كانت . لقد كان الشاي الأسود القوي ، خاصة في وقت لاحق من اليوم ، بشكل شبه دائم على قائمة ما تتناوله قبل النوبة . إنه أكثر من كونه كأساً من النبيذ ، بل لص دائم . ماذا عن ساعات النوم؟ بالتأكيد لم يكن ذلك مهماً ، لكن فعلياً كان . لقد كان عدد الساعات المدرجة على تلك الأيام . ماذا عن الجبنة؟ (الجبنة حقاً؟)

لقد كانت أيضاً على القائمة . ونعم لقد كانت محقة أيضاً ، فالتوتر والتغير في الطقس كانا بواعث مؤكدة .

إن إيمي لم تكن محقة بشكل كامل . لقد كانت مثل واتسون ، مصرة على أنها كانت محقة . وعندما كانت محقة فعلياً لحد ما فقط ، لم تلاحظ أي شيء آخر ، فكان هذان العاملان نتوءين . وهي لم تقم بالروابط التي كانت واضحة تماماً .

إن المعرفة هي مجرد جزء من المعركة بطبيعة الحال . فإيمي لا تزال تعاني من نوبات الشقيقة أكثر مما تحب . لكن على الأقل يمكنها التحكم ببعض العوامل المحفزة أكثر مما كان بإمكانها مسبقاً ويمكنها اكتشاف الأعراض السابقة أيضاً خاصة إذا قامت بشيء لا يجب عليها فعله كتناول الخمر والجبن في يوم ممطر . ثم يمكنها أحياناً عدم تناول الدواء قبل أن يصابها الصداع .

ليس الجميع يعاني من الشقيقة ، ولكن الجميع يقومون باختيارات وقرارات ، ويفكرون في المشاكل والورطات يومياً . لذا هنا ما أوصيه لتسريع تعلمنا ومساعدتنا على دمج كل تلك الخطوات التي أظهرها هولمز لنا : علينا مواصلة الاحتفاظ بمفكرة ، ولا أعني ذلك مجازياً . أنا أقصد ذلك فعلياً ، أي كتابة الأشياء كما كان على إيمي فعله مع الشقيقة ومحفزاتها .

عندما نتخذ خياراً أو نحل مشكلة أو نتوصل إلى قرار ، فيمكننا تسجيل العملية في مكان واحد . يمكننا هنا وضع قائمة من ملاحظتنا والتأكد من أننا نتذكرها عندما يحين الوقت . يمكننا أيضاً تضمين أفكارنا واستنتاجاتنا وخطوط التساؤل الممكنة الخاصة بنا والأشياء التي فتننا . لكننا نستطيع حتى القيام بخطوة إضافية ، أي تسجيل ما انتهى بنا المطاف لفعله . سواء أكانت لدينا أية

شكوك أو تحفظات أو اعتبرنا خيارات أخرى (وفي كل الحالات سنقوم بما هو جيد لنكون محددين ونقول ماذا كانت) . ثم يمكننا العودة لكل مُدخل لتسجيل كيفية تطوره . هل كنت سعيداً؟ هل تمنيت لو أنني قمت بشيء بشكل مختلف؟ هل هناك أي شيء واضح لي لم يكن سابقاً؟

لتلك الخيارات التي لم نكتب عنها أية ملاحظات أو قوائم ، يمكننا أن نحاول أفضل ما لدينا لوضع ما كان يجري خلال دماغنا في ذلك الوقت . ما الذي كنت أفكر فيه؟ ما الذي كنت أستند إليه في قراري؟ ما الذي كنت أشعر به عند تلك اللحظة؟ ماذا كان السياق (هل كنت متوتراً؟ منفِعلاً؟ كسولاً؟ هل كان يوماً منتظماً أم لا؟) من كان منخرطاً أيضاً؟ ماذا كانت الحصص؟ ماذا كان هدفي ومحفزي المبدئي؟ هل أنجزت ما أردت فعله؟ هل هناك ما شتتني؟ بكلمات أخرى ، علينا أن نحاول الإلمام بأكبر قدر ممكن من عملية التفكير ونتائجها .

ثم حين نكون قد جمعنا دزينة أو أكثر من المدخلات ، يمكننا البدء بالقراءة للوراء . في جلسة واحدة ، يمكننا النظر خلال الأمر بأكمله ؛ كل تلك الأفكار بشأن كل تلك القضايا غير ذات الصلة من البداية حتى النهاية . إن الاحتمالات أننا سنرى ذات الشيء الذي رأته إيمي حين أعادت قراءة مدخلات الشقيقة الخاصة بها ، أي أننا نقوم بذات الأخطاء الاعتيادية ونفكر بذات الطرق الاعتيادية ونقع فرائس لذات المفاتيح السياقية مراراً وتكراراً . ولا نرى ما هذه الأنماط الاعتيادية ؛ تماماً كما أن هولمز لا يدرك قلة الأهمية التي يمنحها للآخرين حين يتعلق الأمر بطاقة التنكر .

في الحقيقة ، إن تدوين الأشياء والاحتفاظ بسجل بالخطوات

التي تعتقد أنها لا تحتاج التتبع يمكن أن تكون عادة مفيدة بشكل لا يصدق حتى لأخبر الخبراء . في عام ٢٠٠٦ ، أطلق مجموعة من الأطباء دراسة رائدة ، حيث نجحوا في تقليل معدل التهابات مجرى الدم المرتبطة بالقسطرة -وهي عملية مكلفة وظاهرة من المحتمل أنها فتاكة تقدر حالاتها ب ٨٠٠٠٠٠٠ وحتى ٢٨ ألف وفاة سنويًا بما تكلفته ٢٥ ألف دولار للمريض الواحد - في وحدات العناية المكثفة في ميتشغان من نسبة ٢,٧ إصابات بين كل ١٠٠٠ مريض إلى صفر خلال ثلاثة أشهر . بعد ستة عشر وثمانية عشر شهرًا انخفض معدل الأساس لكل ١٠٠٠ من خط أساس ٧,٧ إلى ١,٤ . كيف كان هذا ممكنًا؟ وهل اكتشف الأطباء آلية معجزة جديدة؟

في الحقيقة ، لقد قاموا بشيء بسيط للغاية ، حيث وضعوا قائمة تدقيق مرجعية تتكون من خمسة بنود فقط بسيطة مثل غسل الأيدي والتأكد من تنظيف جلد المريض قبل إدخال أنبوب القسطرة . بطبيعة الحال لم يحتاج أحد وهكذا تذكيرات أساسية . ومع ذلك ، ومع وجود التذكيرات ، انخفض معدل الإصابة بشكل حاد إلى حوالي الصفر . (فكر في التضمين الطبيعي : قبل قائمة التدقيق ، بعض تلك الأشياء الواضحة لم يتم إنجازها أو لم يتم القيام بها بشكل منتظم)

بوضوح ، لا يهم كم نصح خبراء في شيء ما ، حيث يمكننا نسيان أبسط العناصر إذا نظرنا في الآثار المترتبة على مهامنا بغفلة بغض النظر عن مدى تحفزنا للنجاح . فأي شيء يحفز لحظة من الانعكاس الحريص ، سواء أكان قائمة تدقيق أو شيء آخر مختلف تمامًا ، يمكن أن يكون له أثر عميق على مقدرتنا على الحفاظ على

ذات المستوى العالي من الخبرة والنجاح الذي أوصلنا لهنالك لنبدأ به .

إن البشر متكيفون جداً . وكما أكدت مراراً وتكراراً ، فإن أدمغتنا يمكن أن تتشابك وتعيد التشابك لمدة طويلة . والخلايا التي تشتعل معاً تتشابك معاً . وإذا بدأت معاً في ارتباطات مختلفة وتكرار كافٍ فإن ذلك التشابك أيضاً سيتغير .

السبب الذي يجعلني أركز على الحاجة للممارسة هو أن الممارسة هي الشيء الوحيد الذي سيسمح لنا بتطبيق منهجية هولمز في الحياة الواقعية وفي المواقف التي تعد عاطفية أكثر من أية تجربة فكرية يمكنها اقتيادنا للاعتقاد بأمر ما . إننا نحتاج لتدريب أنفسنا ذهنياً على تلك اللحظات العاطفية وتلك الأوقات التي يكون فيها الطابق مكسور ضدنا . من السهل أن ننسى كم أن أدمغتنا سريعة في الإمساك بممرات معتادة حيث يكون هناك القليل من الوقت للتفكير أو التأكيد . لكن الأمر يعود لنا في تحديد أي الممرات سيكون .

من الصعب تطبيق منطق هولمز في تلك اللحظات الأكثر أهمية . وبالتالي فغن كل ما نستطيع فعله هو الممارسة حتى تصبح عاداتنا كذلك ، حتى أن أكثر الضواغط حدة ستجلب أنماط التفكير التي هملنا بجذ لإتقانها .

الفصل الثامن نحن بشر فقط

في أحد صباحات أيار عام ١٩٢٠ ، وصلت السيد إيدجار جاردنر رسالة من صديق ، وكان بداخلها صورتان صغيرتان . في إحداهما مجموعة مما بدا أنهن جنيات يرقصن على ضفة نبع بينما فتاة صغيرة تنظر إليهما . وفي الصورة الثانية كائن بأجنحة ، ربما يكون تمثالاً) جالس قرب يد فتاة أخرى .



كان جاردنر متصوفاً يؤمن أن معرفة الله يمكن تحقيقها من خلال النشوة الروحية والحدس المباشر أو علاقة شخصية خاصة (وهو انشطار شعبي عن الأفكار الشرقية حول التناسخ وإمكانية سفر الأرواح) . بدت الجنيات والتماثيل بعيدة عن أية حقيقة جربها خارج الكتب ، وحيث يمكن لشخص آخر أن يضحك ويرفض صوراً ورسائل . لقد كان يتمنى الغوص بعمق أكثر قليلاً . وبالتالي رد على صديقه متسائلاً إن كان بإمكانه الحصول على الصور قبل تجميعها .

عندما وصلت الصفائح ، سلمها جاردنر مباشرة للسيد هارولد نيلنغ ، وهو خبير تصوير فوق العادة . حيث كان قد قيل بأن لا تزييف يقوت السيد نيلنغ . ومع اقتراب فصل الصيف ، انتظر جاردنر حكم الخبير . هل كان من الممكن أن الصور كانت شيئاً يتعدى انطلاقة ذكية؟

مع نهاية تموز ، حصل جاردنر على الإجابة . حيث كتب نيلنغ : «إن هاتين الصورتين حقيقتان وغير مزورتين من ذوات التعرض الواحد . وهما عمل في الهواء الطلق ويظهران حركة في شخصيات الجنية وليس هناك أي أثر لعمل استوديو كالبطاقات أو الخلفيات السوداء او الشخصيات المطلية . برأيي إنهما صورتان مباشرتان غير متلاعب بهما» .

كان جاردنر منتشياً ، لكن لم يكن الجميع مقتنعون . فقد بدا الأمر برمته غير ممكن . ولكن هناك رجل سمع بما فيه الكفاية عن الموضوع ليتعقبه ، وهو السيد آرثر كونان دويل .

لم يكن كونان دويل شيئاً إن لم يكن دقيقاً . وفي ذلك ، على الأقل ، تولى منهجية الخلق الخاصة به على محمل الجد ، وبالتالي طلب المزيد من التحقق ، وهذه المرة من سلطة لا منازع لها في التصوير ، وهي شركة كوداك التي صنع الكاميرا التي استخدمت لالتقاط الصورة .

رفضت كوداك تقديم إقرار رسمي . قال الخبراء إن الصور أحادية التعرض ، وأنه ليس فيها علامات للتلاعب والتزوير . لكن بالنسبة لأصالتها ، يمكن اخذ ذلك خطوة بعيدة . فالصور يمكن ان تكون مزورة ، حتى لو لم تكن هناك إشارات على ذلك . وأياً كان فليس للجنيات وجود ، ولهذا فالصور ربما لا تكون حقيقية .

لقد نبذ كونان دويل ذلك الجزء الأخير كمنطق خاطئ . حجة دائرية إذا كان هناك ما هو كذلك . أما الجمل الأخرى فقد بدت منطقية بما فيه الكفاية . فليس هناك إشارات على التزوير ، الصورة من نوع التعرض الأحادي . لقد بدا الأمر مقنعاً خاصة عندما أضيف إلى إقرار نيلنغ . النتيجة السلبية الوحيدة التي قدمتها كوداك كانت محض افتراء . ومن أفضل من منشئ شخصية هولمز من يعرف بهذا؟

لقد تبقى جزء أخير من الدليل للتحقق منه . ماذا بالنسبة للفتاتين المصورتين؟ ما الدليل الذي يمكن أن يقدمانه سواء أكان داعماً أم مدينياً؟ للأسف ، كان السيد آرثر مغادراً في رحلة إلى استراليا ولا يمكن تأجيلها ، وبالتالي طلب من جاردنر أن يسافر بدلاً عنه إلى مكان التقاط الصور وهي بلدة صغيرة إلى الغرب من يوركشاير تسمى كوتنجلي من اجل التحدث مع العائلة محط السؤال .

في آب ١٩٢٠ قابل إدوارد جاردنر إلسي رايت وابنة عمها التي تصغرها بست سنوات فرانسيس جرفش للمرة الأولى . كانت قد التقطنا الصور قبل ثلاث سنوات عندما إلسي في السادسة عشرة وفرانسيس في العاشرة من العمر . لم يصدق والداهما قصة الجنيات ، ولا قررتا توثيقها فكانت الصور هي النتيجة

بدا لجاردنر أن الفتاتين متواضعتان وصادقتان . وكانت جيدتا التربية ، ولم يسعيا لتحقيق عوائد شخصية فرفضتا كل ما عرض عليهما من أجل الحصول على الصور . حتى أنهما طلبتا إخفاء اسميهما حين تعرض الصور على العامة . ورغم أن السيد رايت (والد إلسي) ظل مشككاً وقال بأن الصور لا تتجاوز كونها مزحة صبيانية ،

إلا أن السيد جاردنر كان مقتنعاً أن هاتين الصورتين كانتا حقيقتين . هاتان الفتاتان لم تكونا تكذبان . ولدى عودته إلى لندن ، أرسل تقريراً لكونان دويل . حتى الآن يبدو كل شيء مرتبطاً معاً .

قرر كونان دويل أنه لا تزال هناك حاجة لمزيد من الأدلة . فالتجارب العلمية بعد كل شيء يجب أن تعاد وتكرر إذا كانت نتائجها سارية المفعول . لذا سافر جاردنر مرة أخرى إلى البلدة وهذه المرة مع كاميرتين ودرزنتين من صفائح التصوير الخاصة التي لا يمكن الاستعاضة عنها دون لفت الانتباه إلى التغيير . وتركها مع الفتاتين مع توجيهات لالتقاط الجنيات مرة أخرى ، مع تفضيل أن يكون ذلك في يوم مشرق حيث يكون الضوء جيداً .

لم يكن خائب الأمل . وفي أول الخريف وصلته ثلاث صور إضافية ظهرت فيها الجنيات ، وكانت صفائح التصوير هي الصفائح الأصلية التي أعطاها للفتاتين ، ولم يجد أي دليل على حدوث تزوير .

كان آرثر كونان دويل مقتنعاً ، ووافق الخبراء (على الرغم انهم لم يقدموا إقراراً رسمياً) ، فجرت الإعادة بيسر ، وبلدت الفتاتان جديرتين بالثقة .

في كانون الأول ، نشر آرثر كونان دويل الصور الأصلية مع عملية التحقق التي حدثت منها في مجلة ستراند وهي الناشر لهولمز بنفسه . كان العنوان «الجنيات صُوِّرت : حدث من صنع العصر» . وبعد سنتين ، أطلق كتاباً أسماه «مجيء الجنيات» حيث توسع فيه في تحريره الأولي وتضمن تعزيزات إضافية حول وجود الجنيات من المستبصر السيد جيفري هودسون وكان دويل قد اتخذ قراره ولن يغيره .



كيف أخفق كونان دويل في اختبار التفكير الهولزي؟ ما الذي قاد هكذا شخص ذكي ليستنتج أن الجنيات موجودة ببساطة لأن خبيراً أكد بأن الصور حقيقية؟

لقد بذل السيد آرثر الكثير من الجهد ليؤكد صحة الصور حتى أنه لم يتوقف لطرح سؤال واضح لماذا لم يسأل أحد فيما إذا كانت الجنيات مصنعة بسهولة؟ يمكننا بسهولة الاتفاق مع المنطق بأنه ربما يبدو من غير المحتمل بالنسبة لفتاتين في العاشرة والسادسة عشرة من أعمارهما تزييف صور يمكن أن تربك الخبراء ، ولكن ماذا عن فبركة جنية؟ انظر إلى الصور في الصفحات السابقة يبدو من الواضح أنها لا يمكن أن تكون حقيقية . فهل تبدو هذه الجنيات حية بالنسبة لك؟ ام أنها تمثل قواطع ورقية بغض النظر عن مدى إتقان صنعها؟ لماذا تجدها من تباينات مختلفة؟ لماذا لا تتحرك

أجنحتها؟ لماذا لم يبقى أحد مع الفتاتين ليرى الجنيات بنفسه؟
كان على كونان دويل أن يخوض في التحري حين تعلق الأمر
بالفتاتين محط السؤال . ولو أنه قام بذلك لاكتشف لأن إلسي
كانت فنانة ماهرة وحدث وأن عملت في أستوديو تصوير . ولربما
اكتشف أيضاً كتاباً نشر في عام ١٩١٥ تحمل صورته تشابهاً غريباً في
الجنيات التي ظهرت في كاميرا الصور الأصلية .

إن هولمز بالتأكيد لم يكن ليقتاد بسهولة بصور كوتنجلي . هل
يمكن أن يكون للجنيات وكلاء من البشر ربما يساعدها في الوصول
إلى الكاميرا وإخراجها إلى حيز الوجود؟ كان يمكن أن يكون ذلك
هو سؤاله الأول ، فغير المحتمل ليس مستحيلاً ، لكنه يتطلب قدرًا
كبيراً من الأدلة . ويبدو واضحاً تماماً أن ذلك كان شيئاً لم يقدمه
السيد آرثر كونان دويل . لماذا؟ كما سنرى ، إننا عندما نريد فعلاً أن
نؤمن بشيء ، فإننا نصبح أقل شكاً وفضولاً سامحين للدليل بأن يمر
بتدقيق أقل مما نعترف به لظاهرة ما لا نريد تصديقها . بكلمات
أخرى ، إننا لا نطلب الكثير من الإثبات . وبالنسبة لكونان دويل
فإن وجود الجنيات كان مجرد مثال .

عندما نتخذ قراراً ، فغنا نقرر ضمن سياق المعرفة المتوفر لنا في
اللحظة وليس بأثر رجعي . وضمن ذلك السياق ، يمكن ان يكون
من الصعب بمكان موازنة انفتاح الدماغ الضروري مع ما يمر عن
العقلانية بالنظر إلى سياق الوقت . كما أننا يمكن أن ننخدع
بالتصديق بأن الجنيات-أو نسختنا منها-حقيقية . كل ما يتطلبه
الأمر هو البيئة الصحيحة والمحفز السليم . فكر في ذلك قبل أن تقفز
على الحكم على حماقة كونان دويل (شيء أتمنى أن تكون أقل ميلاً
للقيام به قبل نهاية الفصل) .

أغمض عينيك وتخيل نمرًا يستلقي على مساحة من العشب الأخضر تحت الشمس ويلق كفيه . ومع ثأوب كسول يقلب على ظهره . وهناك حفيف على الجانب . ربما تكون الرياح ، لكن النمر يتوتر . وفي الحال يجثم على الأربع ويقوس ظهره واضعًا رأسه بين كتفيه على شكل قوس .

هل ترى ذلك؟ كيف يبدو الأمر؟ ما لون فروه؟ هل لديه خطوط؟ ما لونها؟ ماذا بالنسبة للعينين والوجه؟ هل هناك شوارب؟ ماذا عن نسيج الفراء؟ هل رأيت أسنانه عندما فتح فمه؟

إذا كنت كغالبية الناس ، فإن نمرك برتقالي بخطوط سوداء قائمة على وجهه وجانبيه . ربما تكون قد تذكرت إضافة بقع بيضاء على الوجه والبطن والرقبة . وربما لم تفعل ذلك وكان نمرك أحادي اللون . ربما كانت عيون نمرك سوداء وربما زرقاء . كلا الاحتمالين وارد . ربما رأيت قواطع مقصوصة وربما لم تفعل .

لكن هناك تفصيل ثابت للجميع تقريبًا . شيء لم يكنه نمرك هو أن أي لون مسيطر عدا ذلك البرتقالي يبدو شيئًا بين الأحمر والسكري . من المحتمل أنه لم يكن النمر الأبيض النادر ، ذلك المخلوق الذي يشبه الأمهق والذي سبب بياض فروه جين متحي مزدوج نادرًا ما يحصل حتى أن الخبراء قدروا حدوثه الطبيعي بواحد من بين كل عشرة آلاف نمرك . (في الحقيقة أنها ليست مهق على الإطلاق . تسمى الحالة «ليوسزم» وتؤدي إلى الحد من كافة أصباغ الجلد وليس الميلانين فقط . وليس من المرجح أن يكون نمركًا أسود وإلا عرف بالنمر أسود الجلد . إن ذلك التلوين المعين - لا شوارب ولا تدرج ، ومجرد فراء سوداء-تسببه حالة من تعدد

الأشكال تؤدي إلى طفرة تحدد بشكل رئيسي فيما إذا كان المعطف سيتم ربطه ، وهي عملية معتادة لتلوين كل شعرة) كلا النوعين غير شائع ولا يبدو أي منهما نمر عادي كالذي توحى به الكلمة للدماغ . ومع ذلك فإن هذه النمور الثلاثة هي أفراد من ذات النوع ؛ نمور دجلة .

الآن أغمض عينيك وتخيل حيوانًا آخر ؛ أخطبوط مقلد في قاع المحيط بالقرب من بعض الشعاب المرجانية . الماء أزرق ضبابي وبالقرب تمر مجموعة من الأسماك .

تحيرت؟ هنا بعض المساعدة . يبلغ طول هذا الأخطبوط حوالي قدمين ، ولديه خطوط أو بقع بنية وبيضاء . يمكن أن ينسخ ما يزيد على الخمسة عشر حيوان بحري ، ويمكن أن يظهر بشكل قنديل البحر «الأسد ماني» الذي تسبب في العددي من الضحايا بشكل واضح لهولمز الحائر . ويمكن أن يأخذ شكل ثعبان البحر أو سمك على شكل ورقة أو شيء يمثل ديكًا روميًا بأقدام بشرية . ويمكنه تغيير لونه وشكله وحجمه في لحظة . بكلمات أخرى ، من شبه المستحيل تخيله كشيء واحد . إنه حيوان لا يعد ولا يحصى في ذات الوقت ، ولا يمكنك الإشارة له عند أية نقطة .

الآن سأخبرك شيئًا إضافيًا . واحد من تلك الحيوانات المذكورة في الفقرات السابقة لا يوجد فعليًا . ربما يكون حقيقيًا ذات يوم ، لكن حتى الآن فهو أسطورة . أي الحيوانات المذكورة ذاك؟ هل هو النمر البرتقالي؟ أم النمر الأبيض؟ أم النمر الأسود؟ أم الأخطبوط المقلد؟

الإجابة هي النمر الأسود . فبينما يبدو الأمر معقولاً من الناحية الوراثية - وما نعرفه عن توارث النمر يؤكد أن ذلك ممكن

فرضياً- إلا أنه لم يسبق أبداً وشوهد هكذا نمر . لقد كان هناك ادعاءات وأمثلة تضليلية مثل (ذي الشوارب السمكة جداً والتي تعطي انطباعاً باسوداد الجلد) . لقد كان هناك نمور بنية بخطوط داكنة ، ونمور سوداء انتهى بها الأمر لتكون فهود سوداء- وهي أكثر مصادر الارتباك شيوعاً . ولكن لم يكن هناك أبداً نمر أسود على الإطلاق .

ومع ذلك فإن الاحتمال أنه لا يزال لديك صعوبة في الاعتقاد بوجوده . بالطبع أراد الناس للنمور السوداء أن تكون موجودة منذ قرون . فهناك وحوش سوداء تظهر في أسطورة فيتنامية وكانت موضوع العديد من الجوائز حتى أن أحدها قدم هدية من ملك جاوة إلى نابليون (وللأسف كان نمرًا) . وذلك منطقي ، حيث أنها تتلاءم مع النمط العام للحيوانات الذي نتوقع أنه حقيقي . وعلى أي حال ، لماذا لا؟

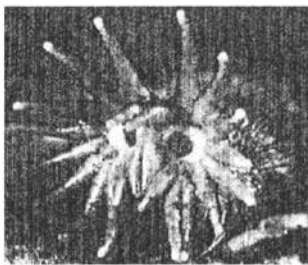
إن الأخطبوط المقلد ، من ناحية أخرى ، كان في الواقع مادة أسطورية حتى فترة ليست بالبعيدة . وتم اكتشافه عام ١٩٩٨ من مجموعة من الصيادين قبالة سواحل اندونيسيا . كان التقرير غريباً للغاية ويبدو غير منطقي حتى أن الأمر استغرق ساعات من أخذ اللقطات لإقناع العلماء المشككين بأن المخلوق كان حقيقياً . وبعد كل شيء ، بينما تعد المحاكاة أمراً شائعاً في مملكة الحيوانات ، فإنه لم يحدث مسبقاً وأن كان نوع من الحيوانات قادراً على اتخاذ مظاهر متعددة ، ولم يحدث وأن اتخذ الأخطبوط مظهر حيوان آخر .

إن النقطة أنه من السهل بمكان الانخداع بسياق على ما يبدو انه علمي إلى التفكير بشيء حقيقي حين لا يكون كذلك . وكلما زادت الأعداد المتوفرة لنا والتفاصيل التي نراها وكلما زاد ما نقرأ من

كلمات علمية مثل الميلانية بدلاً من الأسود ، وأغوطي وغير أغوطي بدلاً من مندمج او صلب ، كلما زادت احتمالية اعتقادنا بأن الشيء الموصوف حقيقي . وعلى العكس ، من السهل جداً الاعتقاد لأن هناك شيئاً بدا غير ممكن أو متعارضاً لأنه لم يسبق وأن تمت مشاهدته أو اكتشافه ، فإنه غير موجود

تصور للحظة ان صور كوتنجلي أظهرت الفتاتين مع حشرة لم يسبق أبداً وأن تمت مشاهدتها . ماذا لو على سبيل المثال كانت الصور للفتاتين مع هذه الحشرة؟

مجرد تين مصغر . في الحقيقة بالنسبة للإندونيسيين هو سحلية منزلقة . ولكن هل كان أحدهم في عصر كونان كويل في بريطانيا حكيماً بما فيه الكفاية لمعرفة ذلك؟



انه كائن من الخيال العميق المظلم ، وشيء من كتاب رعب ، ولكن هل هو حقيقي؟ (في الحقيقة ، الخلد نجمي الأنف وجد في شرقي كندا بالكاد يمكن الحصول على معلومات عنه حتى في أيام ما قبل الانترنت ناهيك عن العصر الفيكتوري) .

أو حتى بالنظر إلى أي عدد من الحيوانات التي بدت غريبة قبل عدة قرون ، وبعضها يبدو غريبًا حتى اليوم . هل كانت هذه الحيوانات سيجرى عليها ذات العبء لأجل الإثبات أم أن انعدام التزييف الواضح في الصورة مان كافيًا؟ إن ما نعتقده بشأن العالم - وعبء الإثبات الذي نحتاجه لقبول شيء على أنه حقيقة- يتغير باستمرار . إن هذه الاعتقادات ليست هي تمامًا المعلومات التي في عليا أدمغتنا ، وهي ليست ملاحظات بحتة ، لكنها شيء يلون كل خطوة من عملية حل المشكلة . إن ما نعتقد انه ممكن أو معقول يشكل افتراضاتنا الرئيسية فيما يتعلق بكيف نصيغ الأسئلة ونتفحصها . وكما سنرى ، فإن كونان دويل كان ميالاً للإيمان بإمكانية وجود الجنيات . لقد أرادها أن تكون حقيقية . وميله هذا شكل بدوره حدسه فيما يتعلق بصور كوتنجلي ، وذلك صنع الفرق في إخفاقه في الرؤية من خلالها على الرغم من أنه تصرف بناء على ما اعتقد أنه دقة متناهية في محاولة تأسيس صحتها .

إن الحدس يلون كيف نشرح البيانات . فأشياء محددة «تبدو» أكثر معقولة من أشياء أخرى ، وعلى الجانب المقابل أشياء محددة لا تبدو معقولة ، بغض النظر عن كم الأدلة المتوفرة لدعمها . إنه التحيز التأكيدي (والكثير من التحيزات الأخرى في ذلك : وهم الصلاحية والفهم ، وقانون الأعداد الصغيرة ، والترسيخ والتمثيل كلها معًا) مرة أخرى .

يلخص عالم النفس جوناثان هايدت المشكلة في «العقل الصالح» حين يكتب : «إننا رهيبون في البحث عن أدلة تتحدى معتقداتنا الخاصة . لكن أشخاص آخرون يقومون بهذا المعروف لأجلنا ، تمامًا كما أننا جيدون في إيجاد الأخطاء في اعتقادات الآخرين» . من السهل جدًا لغالبيتنا أن يكتشفوا العيوب في الجنيات لأنه ليس لدينا أوتاد عاطفية فيما يتعلق بحقيقتها المحتملة . لكن خذ شيئًا يمسنًا شخصيًا حيث تكون سمعتنا على المحك ، فهل سيظل الأمر بسيطًا؟

من السهل أن نخبر أدمغتنا قصصًا عما هو كائن ، ومن السهل أيضًا إخبارها قصصًا عما هو ليس كائن . يعتمد الأمر على تحفيزنا . حتى أننا ربما نعتقد أن الجنيات تبدو بعيدة كل البعد عن كائن من العمق كالأخطبوط المقلد ، بغض النظر عن القدر الذي ربما يبدو عنده الأمر صعبًا لفهم هكذا كائن . فبعد كل شيء ، نحن نعرف أن هناك أخطبوط ، ونعرف أن هناك أصنافًا من الكائنات يتم اكتشافها كل يوم بعضها يبدو غريبًا بعض الشيء . والجنيات ، من ناحية أخرى ، تتحدى كل فهم منطقي لدينا حول كيفية سير العالم ، وهنا حيث يتدخل السياق .

استهتار العقل؟

لم يكن كونان دويل مستهترًا في إثبات أصالة صور كوتنجلي . إنه لم يجمع ذات الأدلة الصارمة التي طلبها لتحريره . (وهنا علينا أن نتذكر أن السيد آرثر لم يكن أخرجًا حين تعلق الأمر بذلك النوع من الأشياء . وكما ستذكر ، كان له دور فعال في تطهير اسم اثنين من المتهمين ظلمًا بارتكاب جرائم قتل وهما جورج إيديلجي

وأوسكار سلاتر). وقد توجه بالسؤال إلى أفضل خبراء التصوير الذين عرفهم. كما وحاول المحاكاة نوعاً ما. هل كان من الصعب للغاية الاعتقاد بأن فتاتين تبلغان من العمر العاشرة والسادسة عشرة لم تكونا قادرتين على إتقان ذلك النوع من الخبرة التقنية التي اقترحت كوسيلة لإثبات خطأ صفائح الصور.

نما يساعدنا على فهم حوافز كونان دويل بوضوح هو محاولتنا لرؤية الصور كما رآها هو ومعاصريه. تذكر أن هذا كان قبل عصر كاميرات الديجتال والفوتوشوب وتحرير الصور حيث يمكن لأي شخص عمل أي شيء يمكن تخيله بطريقة أكثر إقناعاً من جنيات كوتنجلي. بالعودة إلى ذلك الوقت، كان التصوير فناً جديداً نسبياً، وكان صناعة ثقيلة ويستهلك الكثير من الوقت وكذلك مصدر تحدي من الناحية التقنية. لم يكن شيئاً يمكن لأي أحد فعله، ناهيك عن التلاعب بطريقة مقنعة. عندما ننظر إلى الصور اليوم، نراها بعيون مختلفة عن تلك التي كانت هام ١٩٢٠. فلدينا معايير مختلفة، وقد نمت لدينا أمثلة مختلفة. كان هناك وقت اعتبرت فيه الصورة دليلاً قاطعاً من الصعب تبديله. ومن شبه المستحيل النظر إلى الوراء وإدراك قدر التغيير الحاصل وكيف بدا العالم.

لكن مع ذلك، لقد واجهت جنيات كوتنجلي محدداً رئيسياً واحداً اتضح فيما بعد لكونان دويل أنه لا يمكن التغلب عليه. فالجنيات لا توجد ولا يمكن أن توجد. وقاماً كما أشار موظف كوداك للسيد آرثر: «الدليل لا يهم أيّاً كان. فالجنيات كائنات من صنع الخيال لا الحقيقة».

إن منظورنا الخاص لما هو ممكن وغير ممكن في الحقيقة يؤثر على

كيفية رؤيتنا للأدلة المتطابقة . لكن ذلك المنظور يتغير بمرور الوقت وبالتالي فإن الدليل الذي ربما كان ذات وقت غير ذي معنى ربما يصبح يحمل الكثير من المعنى . فكر في كم الأفكار التي بدت غريبة حين وضعت لأول مرة حيث بدت مستحيلة ولا يمكن أن تكون حقيقية مثل دائرية الأرض ودورانها حول الشمس وأن الكون مخلوق من شيء لا يمكننا رؤيته . ولا تنسى أن الأشياء السحرية تواصل حدوثها حولنا . حيث أن كونان دويل من عصر تحولت فيه الأشياء من غير المرئية وبالتالي غير موجودة إلى مرئية وظاهرة . إن الأشياء غير المرئية التي لم يكن أحد اشتبه بوجودها في حقيقة الأمر موجودة .

في ذلك السياق ، هل من الجنون أن أرثر كونان دويل أصبح روحانياً؟ عندما اعتنق فكرته الروحانية رسمياً عام ١٩١٨ ، كان بالكاد وحيداً في اعتقاده أو معرفته . فالروحانية بنفسها ، في حين أنها لا تسود ، لديها داعمون رئيسيون في كل مكان . فقد شعر ويليام جيمس بأنه كان من المهم للتخصص الجديد من علم النفس أن يختبر إمكانيات البحث العقلي كاتباً : «حتى الآن ، بالكاد بدأ سطح الحقائق المسمى بالروحي أن يחדش لأهداف علمية . ومن خلال اتباع هذه الحقائق أصبحت مقتنعاً أن أعظم الانتصارات العلمية للجيل القادم سيتم إنجازها» . لقد ظن أن الجانب الروحي هو مستقبل المعرفة في القرن ، والطريق نحو الأمام ، ليس لعلم النفس فقط ، بل لكافة الانتصارات العلمية .

هذا ما ورد عن الرجل الذي يعتبر أبو علم النفس الحديث . ناهيك عن بعض الأسماء الأخرى لأشخاص في صفوف علم النفس المجتمعي ، مثل الفيزيولوجي وعالم التشريح المقارن ويليام

كاربنتر الذي تضمن عمله كتابات مؤثرة عن علم الأعصاب المقارن ، والفلكي الشهير وعالم الرياضيات سيمون نيوكومب ، وعالم الطبيعة ألفرد راسل والاس الذي اقترح نظرية التطور بشكل متزامن مع تشارلز داروين ، والكيميائي والفيزيائي ويليام كروكس مكتشف عناصر جديدة ومنهجيات جديدة لدراساتها ، وعالم الطبيعيات أولفر لودج الذي كان مشاركاً في تطوير التلفزيون اللاسلكي ، والطبيب النفسي جوستاف ثيودور فيشر مؤسس واحدة من أكثر المناطق العلمية دقة في مجال البحث النفسي ، وعالم النفس البدني وعالم الوظائفية شارل ريشه الذي حصل على جائزة نوبل لعمله على الحساسية المفرطة ، والقائمة تطول .

هل ذهبنا بعيداً كثيراً اليوم؟ في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٤ ، أمن ٧٨٪ من الناس بالملائكة . بالنسبة للملكة الروحانية ، فكر في التالي : في عام ٢٠١١ ، نشر داريل بيم بحثاً في مجلة «الشخصية وعلم النفس الاجتماعي» التي تعد واحدة من أكثر المنشورات تأثيراً في المجال . وبيم هذا واحد من كبار الأخصائيين في علم النفس الحديث ، صنع اسمه بنظرية تزعم أننا نرى حالاتنا العاطفية والعقلية بقدر ما نفعل الأخرى من خلال النظر إلى إشارات مادية . وكان موضوع بحث بريم إثبات وجود تصور خارج الحواس . حيث قال بأن الكائنات البشرية يمكن أن ترى المستقبل . في إحدى الدراسات على سبيل المثال ، شاهد طلاب جامعة كورنيل ستارتين على شاشة ، وكان عليهم أن يقولوا أيها تخفي صورة . بعد أن قالوا إجاباتهم ، تم فتح الستائر وأراهم الباحث مكان الصورة .

ربما تتساءل عن الفكرة من وراء إظهار موقع بعد أن قمت

باختيارك . يقول بيم أننا لو كنا قادرين على رؤية حتى القليل من المستقبل ، فسنكون قادرين بأثر رجعي على استخدام المعلومات للقيام بخيارات أفضل من المتوسطة في الحاضر .

يحصل أفضل من ذلك أيضاً . كان هناك نوعان من الصور : الصور المحايدة ، وتلك التي تظهر مشاهد مثيرة . بتقدير بيم ، كان هناك احتمالية أن نكون أفضل في رؤية المستقبل إذا كان يستحق الرؤية (غمزة ، غمزة ، دفع ، دفع) . إذا كان محققاً ، فإننا سنكون أفضل من الخمسين-خمسين، الذين تم التنبؤ بأنهم سيحزرون الصورة . تعجبوا وانظروا ، لقد تراوحت معدلات الصور المثيرة حول ٥٣٪ . وبكلمات عالم النفس جوناثان سكولر (أحد مراجعي المقالة) «أؤمن حقاً أن هذا النوع من النتائج من باحث قدير وحذر يستحق أن يعرض علنياً» . إن الأمر أصعب مما نعتقد لترك أرض الجنيات وعالم الروحانيات وراءنا . إنه الشيء الأكثر صعوبة للقيام به حين يتعلق الأمر بشيء نريد الإيمان به .

لقد أثار عمل بيم ذات صيحات «أزمة الانضباط» التي ظهرت مع الاعتناق الفعلي لويليام جيمس للروحانية قبل ما يزيد عن مئة عام . في الحقيقة ، إنها تسمى هكذا بذات القضية التي تحمل في طياتها الدراسة . وهي حالة نادرة من التنفيذ التي تظهر في وقت واحد .

لم يتغير الكثير . ما عدا أنه الآن بدلاً من تسميات البحث النفسي والروحانية صارت تسمى تخاطر وإدراك فوق حسي (على الجانب الآخر ، كم عدد الناس الذين يرفضون تصديق نتائج ستانلي ملغرام حول الرضوخ والذي أظهرت أن غالبية الناس سيقدمون مستويات قاتلة من الصدمة حين يطلب منهم القيام

بذلك مع معرفتهم الكاملة بما يقومون به حتى حين يواجهونها؟
من الصعب التغلب على غرائزنا أياً كانت الطريق التي نسلكها .
فالأمر يتطلب جهداً مدركاً من الإرادة .

يشكل السياق حدسنا . وذلك السياق يستنير بالعالم الذي
نعيش فيه ، وبالتالي يمكن أن يكون نقطة عمياء كما فعل مع كونان
دويل وجنياتة . ولكن مع وجود الذهن يمكننا أن نسعى جاهدين
لإيجاد توازن بين فحص حدسنا والبقاء منفتحين . يمكننا بعدها
القيام بأفضل أحكامنا بالمعلومات المتوفرة لدينا لا أكثر ولكن أيضاً
بفهمنا أن الوقت كفيلاً بتغيير شكل ولون تلك المعلومة .

هل يمكننا إذن حقاً لوم التزام كونان دويل بقصص الجنيات؟
ففي ظل إنجلترا الفيكتورية حيث كانت قصص الجنيات تملأ كتب
قصص الأطفال (ليس أقلها بيتر بيل لصديق السيد آرثر جي . ام .
باري) حيث كان حتى الفيزيائيون وعلماء النفس والكيمياء والفلك
كانوا على استعداد لضمان أنه ربما يكون هناك شيء من هذا
القبيل . فهل كان ذلك بعيداً؟ بعد كل شيء ، لقد كان بشراً
مثلنا .

لن نعرف ذلك على الإطلاق . إن أكثر ما بوسعنا فعله هو
تذكر تعاليم هولمز وتطبيقها بصدق ، وتذكر أن يقظة الذهن واحدة
منها ، ومن هنا جاءت مقولة (أو مسلمة كما يسميها في «مغامرة
خطط بروس بارتينغتون») «حين تفشل كافة الاحتمالات الأخرى ،
فإن ما يتبقى وإن كان غير محتمل لا بد وأن يكون الحقيقة» .

لكن كيف نقوم بهذا في الممارسة؟ كيف نذهب إلى ما وراء
الفهم النظري لهذه الحاجة للتوازن والانفتاح ونطبقها بشكل عملي
في الحالات التي ربما لا يكون لدينا الكثير من الوقت لتأمل

احكامنا كما نقوم بمتعة القراءة؟

يعود كل هذا إلى البداية . إلى العقلية الاعتيادية التي نصقلها
والى الهيكلية التي نحاول الحفاظ عليها لعلية دماغنا أيا كانت .

عقلية الصياد

إن واحدة من صور شارلوك هولمز والتي تتكرر غالبًا في
القصص هي صورة شارلوك الصياد ، المفترس الجاهز دومًا للإمساك
بفريسته القادمة حين يظهر أنه يتسكع بهدوء في الظل . ذلك
المهاجم المتنبه اليقظ لأبسط الأنشطة حتى بينما بندقيته على
ركبتيه خلال استراحة الظهيرة .

فكر في وصف واتسون لرفيقه في «مغامرة القدم الشيطانية»

«يدرك شخص الطاقة الملتهبة والتي تقوم عليها بلغمية مزاج
هولمز الخارجية عندما يرى التغير المفاجئ الذي حصل له من لحظة
دخوله الشقة القاتلة . في إحدى اللحظات كان متوترًا ويقظًا ،
وكانت عيناه تلمعان ، ووجهه ساكن ، وكانت أطرافه ترتجف بشدة .
حيث كان كل العالم ككلب صيد محطم يرسم غلافًا» .

إنها الصورة الكاملة حقًا ، فليس هناك طاقة تم هدرها دون
فائدة ، ولكن هناك حالة يقظة دومًا من الانتباه تجعلك جاهزًا
للتصرف بمجرد إشعارك بذلك . سواء أكان الموقف صيادًا لمح أسدًا أو
أسد لمح غزالة أو كلب صيد ثعالب أحس بوجود ثعلب بالقرب
وتنبه جسمه حديثًا للمطاردة . في رمز الصياد ، تظهر كافة سمات
التفكير التي يلخصها شارلوك هولمز معًا ضمن إطار واحد مرتب .
وفي حصاد تلك الذهنية وفي كل مبادئها ، نقترّب من القدرة على
ممارسة ما فهمناه نظريًا . فعقل الصياد يجسد عناصر تفكير هولمز

والتي ربما تبتعد عنا . وتعلم استخدام تلك العقلية بانتظام يمكن أن يذكرنا بمبادئ ربما نكون قد انزلت منا .

الانتباه المستعد دوماً

أن تكون صياداً لا يعني دائماً أن تصطاد . إنه يعني أن تكون دائماً جاهزاً للمواصلة يقطاً حين تضمن الظروف ذلك ، وليس تبذير طاقتك دون حاجة حين لا تضمن الظروف ذلك . وهو يعني أن تكون متفهماً للإشارات التي تحتاج الحضور ، وتعرف أيها تتجاهل . وكما يعرف أي صياد جيد ، فإنك تحتاج لتجميع مواردك للحظات المهمة .

إن خمول هولز - ذلك الخارجي اللمفي الذي ربما يشير لدى الآخرين إلى حزن أو اكتئاب أو كسل - يتم حسابه . فلا شيء حامل بشأنه . في تلك اللحظات الخادعة من التكاسل ، تُكبت طاقته في علية دماغه متداولة فيها ومطلة على الزوايا ، مستجمعة قوتها من أجل أن تقفز إلى التركيز حين يطلب منها ذلك . في بعض الأحيان يرفض المحقق تناول الطعام لأنه لا يريد سحب الدم من أفكاره . يقول هولز لواتسون في «مغامرة حجر المازارين» حين يطلب منه واتسون تناول بعض الطعام : «تحسن الأعضاء عند تجويعها . كطبيب ، عليك عزيزي واتسون أن تعترف بأن ما تكسبه عملية الهضم لديك في طريق إمداد الدم يفقد الكثير منه إلى الدماغ . أنا دماغ يا واتسون وبقيتي مجرد ملحقات . لذلك عليّ أخذ الدماغ بعين الاعتبار»

إننا لا نستطيع أن ننسى أن انتباهنا-وقدراتنا الإدراكية بشكل أوسع-هي جزء من مجموعة محدودة من شأنها أن تجف إن لم تتم

إدارتها بالشكل الصحيح وتجديدها بانتظام . وبالتالي علينا توظيف مواردنا الانتباهية بشكل واع وانتقائي . كن على استعداد للانقضاض عندما يظهر ذلك النمر ، والتوتر حين يجمل النسيم رائحة الثعلب . فذات النسيم الذي يعد بالنسبة إلى أنف اقل انتباهاً من أنفك لا يعني شيئاً سوى زهور ربيعية متفتحة . اعرف متى تنخرط ومتى تنسحب ومتى تضع شيئاً خارج الموضوع تماماً

الملاءمة البيئية

يعرف الصياد ما اللعبة التي يلعبها في عملية الصيد ، ويعدل منهجه بناء على ذلك . فبعد كل شيء ، من الصعب اصطياد ثعلب مقارنة بالنمر ، والتعال مع إطلاق النار على حجل كما مطاردة غزال . ما لم تكن راض عن صيد ذات النوع من الفريسة مراراً وتكراراً ، عليك ان تتعلم كيف تتلاءم مع الظروف وتعديل سلاحك ومنهجك وسلوكك بناء على ما تمليه المحددة .

تماماً كما أن نهاية لعبة الصيد ذاتها دائماً - وهي قتل الفريسة- فإن هدف هولز دائماً هو الحصول على المعلومات التي ستقوده للشك . ومع ذلك في كيفية اختلاف منهج هولز بناء على الشخص الذي يتعامل معه ، أي الفريسة المحددة التي في متناول الأيدي . حيث أنه يقرأ الشخص ويمضي بناء على ذلك .

في «مغامرة الجوهرة الزرقاء» ، يتعجب واتسون من قدرة هولز على الحصول على المعلومات . ويوضح هولز كيف كان قادراً على القيام بذلك قائلاً : «حين ترى رجلاً بشوارب كتلك ونقود تخرج من محفظته ، فإنك دائماً سترأه» قائلاً : «أجرؤ على القول إنني لو وضعت مئة يورو أمامه فإنه لن يعطيني المعلومات الكاملة التي تم

استخلاصها منه من خلال فكرة أنه كان يراهنني» .

قارن هذا التكتيك مع ذلك الذي تم توظيفه في «علامة الأربعة» عندما يقرر هولمز تعلم تفاصيل إطلاق شفق البخار . حيث يخبر واتسون قائلاً : «إن الشيء الرئيسي بخصوص الناس من ذلك النوع هو عدم السماح لهم بالاعتقاد بأن معلوماتهم يمكن أن تكون مفيدة لك . إذا قمت بذلك فإنهم سيصمتون فوراً ويصيرون كالمحار . أما إذا استمعت لهم تحت الاحتجاج فإنك من المحتمل أن تحصل على ما تريد» .

إنك لا ترشو أحدهم ممن يظن نفسه أعلى منه . ولكنك تقترب منه برهان إذا رأيت إشارات الرهان لدى هذا الشخص . إنك لا تتمسك بكل كلمة مع شخص لا يريد إعطاء معلومات لأي أحد . لكن تدعهم يثرثرون وتظاهر بالاندماج معهم إذا كنت ترى أي ميل لديهم للشرثرة . إن كل شخص مختلف عن غيره ، وكل حالة تتطلب منهجاً خاصاً . وبالتالي فالصياد المهمل هو ذلك الذي يتوجه لصيد النمر مستخدماً ذات البندقية التي يستخدمها لإطلاق النار الدراج . لا يوجد شيء بمقاس واحد يناسبها جميعاً . فما إن تتوفر لديك الأدوات تستطيع استخدامها مستخدماً سلطتك ولا تستخدم مطرقة حيث يوجد صنوبر خفيف . هناك وقت للطرق الواضحة ، ووقت للطرق غير التقليدية ، والصيد يعرف أيها يستخدم ومتى .

التكيف

سيتكيف الصياد عندما تتغير ظروفه بطريقة غير متوقعة . فماذا لو كنت خارجاً لصيد البط وشاهدت غزالاً في المنطقة

القريبة؟ ربما يقول البعض «لا شكراً» ، ولكن الكثيرين سيتكيفون مع التحدي مستغلين الفرصة للحصول على فريسة أكثر قيمة . فكر في «مغامرة دير المزرعة» حين يقرر هولمز في اللحظة الأخيرة ألا يتخلى عن المشتبه به للشرطة البريطانية ، ويقول لواتسون : «لا . لا يمكنني القيام بذلك . فبمجرد أن يتم تنفيذ الاعتقال لن يحميه شيء على وجه الأرض . حدث مرة أو اثنتين في حياتي المهنية وأن شعرت بأنني سبب الضرر باكتشافي للمجرم . لقد تعلمت الحذر الآن ، وتلاعبت بقانون لندن أكثر من فعلي بوعبي . دعنا نعرف المزيد قبل أن نتصرف» .

إنك لا تتبع بشكل غير واعي ذات التصرفات المخططة مسبقاً والتي حددتها ، فالظروف تتغير وتغيرها يتغير المنهج . عليك التفكير قبل التوجه للتصرف أو الحكم على شخص . فالجميع يرتكب أخطاء ، ولكن بعضها ربما لا تكون كبيرة حين تؤخذ في سياق الوقت والحالة . (فبعد كل شيء لن نتخذ خياراً إذا لم نعتقد انه الخيار السليم في لحظة ما) . وإذا قررت مواصلة سلوك ذات الطريق رغم التغيير ، فإنك على الأقل ستختار المدعو بالطريق غير المثالي عن وعي ، وعن معرفة كاملة بسبب قيامك به . وستعلم أن تعرف دائماً القليل قبل أن تتصرف . وكما يصيغها ويليام جيمس : «إننا جميعاً ، علماء وغير علماء ، نعيش على طائرة مائلة من السداجة . تنطلق الطائرة باتجاه واحد برجل واحد ، وبطريقة أخرى في بلد آخر ، وربما يكون الذي لم تنحني طائرته هو أول من يلقي حجراً» .

يعرف الصياد أماكن ضعفه . وإذا كان لديه جانب أعمى فإنه يطلب من أحدهم تغطيته أو يتأكد من أنه ليس مكشوفًا إذا لم يوجد من يقوم بذلك . وإذا كان يميل إلى التخطي فهو يعرف ذلك أيضًا . أيًا كانت الإعاقة عليه أن يأخذها بعين الاعتبار إذا أراد أن يخرج ناجحًا من عملية الصيد .

في «اختفاء السيدة فرانسيس كارفاكس» يدرك هولمز مكان اختفاء السيدة المذكورة فقط عندما كان الوقت متأخرًا جدًا لإنقاذ حياتها . فيقول لواتسون عندما يعودان إلى المنزل : «عزيزي واتسون ، عليك الاهتمام بإضافة القضية إلى سجلاتك ، حيث يمكن أن تكون مثالاً على ذلك الكسوف المؤقت الذي يمكن أن يتعرض له أكثر الأدمغة توازنًا . فهذه الزلات شائعة بين جميع البشر ، والشخص الأعظم هو ذلك الذي يستطيع التعرف عليها وإصلاحها . وبسبب هذا الائتمان المعدل يمكنني ربما أن أقوم ببعض الادعاءات» .

لا بد وأن يخطئ الصياد قبل أن يدرك أن تكمن نقاط ضعفه . والفرق بين الصياد الناجح وغير الناجح ليس نقص الأخطاء ، إنما الاعتراف بالأخطاء ، والقدرة على التعلم منها ومنع حدوثها في المستقبل . علينا معرفة محدداتنا من أجل التغلب عليها ، ومعرفة أننا عرضة للخطأ ورؤية الأخطاء التي نراها في أفكار وأفعال الآخرين في أفكارنا وأفعالنا أيضًا . إذا لم نفعل ذلك فسنؤمن بالجنيات أو لا نؤمن بها على الإطلاق حتى لو أشارت العلامات إلى الحاجة لاعتبارات أكثر انفتاحًا .

يعرف الصياد متى يهدئ دماغه . فإذا سمح لنفسه دائماً أن تأخذ كل شيء بمجرد الأخذ ، فإن حواسه ستصبح مزدحمة وستفقد حدتها . وستفقد مقدرتها على التركيز على الإشارات الهامة وتصفية تلك الأقل أهمية . لأجل ذلك النوع من اليقظة ، تعد لحظات العزلة ضرورية .

يقوم واتسون بهذه النقطة باختصار في «كلب عائلة باسكرفيل» عندما يطلب هولمز تركه وحيداً . وصديقه لا يتذمر ، حيث يكتب : «عرفت أن تلك العزلة ضرورية جداً لصديقي في ساعات التركيز الذهني المكثف والتي قست خلالها كل جزء من الدليل وبنى نظريات بديلة ووازن واحدة مع الأخرى ، واتخذ قراره فيما يتعلق بأي النقاط ضرورية وأيها غير مادية» .

إن العالم مكان مشتت لن يهدأ ولن يتركك وحيداً من تلقاء نفسه . على الصياد أن يسعى لعزلته الخاصة وفضائه الذي يفكر فيه في تكتيكاته المختلفة ومناهجه وتصرفاته السابقة وخططه المستقبلية . وبدون ذلك الصمت في بعض الأحيان ، يكون هناك أمل ضئيل في تحقيق مطاردة ناجحة .

اليقظة المستمرة

والأهم من ذلك كله أن الصياد لا يخذل حارسه أبداً حتى عندما يعتقد بأنه لا يوجد نمر بكامل قواه الذهنية يمكنه الخروج في شمس الظهيرة . من يعرف ، ربما يكون ذلك اليوم هو الذي يتم فيه رصد النمر الأسود ، والذي ربما تكون لديه عادات صيد مختلفة عن تلك التي تعودت عليها . (أليس تمويهاً مختلفاً؟ أليس من المنطقي

أنه يمكن الاقتراب منه بطريقة مختلفة تماماً؟) كما يحذر هولمز مراراً وتكراراً ، إن أقل الجرائم تميزاً هو أكثرها صعوبة في أغلب الأحيان . لا شيء يولد التراخي كالروتين ومظاهر الحياة الاعتيادية . ولا شيء يقتل اليقظة كالمكان الشائع . ولا شيء يقتل الصياد الماهر كالتراخي المتولد من ذلك النجاح ، والنقيض هو ما يمكن النجاح . لا تكن الصياد الذي أضاع فريسته لأنه اعتقد أنه أسقطها بشكل جيد حتى استسلم للروتين والتصرف الطائش . ابقَ يقظاً فيما يتعلق بكيفية تطبيقك للقوانين ، ولا توقف التفكير . إن الأمر كاللحظة التي قال فيها واتسون في «وادي الخوف» : «إننا أميل للتفكير» فقاطعه هولمز : «عليّ القيام بذلك» .

هل يمكن أن تكون هناك صورة أكثر مناسبة لذلك الوعي للدماغ الذي هو ذروة المنهج الهولزي في التفكير؟ الدماغ ، أولاً وقبل كل شيء ، وفيه وعي الصياد . ذلك الصياد الذي لا يميل إلى التفكير فقط ، ولكنه يقوم بذلك دائماً . إن تنبيه الذهن لا يبدأ أو ينتهي مع بدء كل مطاردة وبداية كل مشروع جديد أو عملية تفكير ، ولكنها حالة دائمة وحضور للدماغ تم التحضير له جيداً حتى حين يستقر ليلاً .

إن تعلم التفكير كالصياد سيقطع شوطاً طويلاً نحو التأكد من أننا لا نعني أنفسنا حيال التناقضات الواضحة لأرض الجنيتات حين تحديق في وجوهنا . علينا ألا نستبعدها ، ولكن أن نكون حذرين ونعرف أنه حتى لو أردنا حقاً أن نكون مكتشفي الدليل الحقيقي الأول على وجودها ، فإن ذلك الدليل ربما لا يزال موجوداً في المستقبل أو غير موجود على الإطلاق . في كلا الحالتين ، يجب أن نعامل الأدلة بحدة . وأن نطبق ذلك الموقف نفسه على الآخرين ومعتقداتهم .

إن الطريقة التي ترى بها نفسك تهم . انظر لنفسك كصياد في حياتك وربما تجد نفسك أكثر قدرة على الصيد بشكل سليم إن جاز التعبير . سواء اخترت اعتبار وجود الجنيات أو عدم فعل ذلك ، فإن الصياد الذي بداخلك سيقوم بها عن إدراك ، ولن تكون غير محضر لذلك .

في عام ١٩٨٣ ، انتهت قصة جنيات كوتنجلي حين مرت أكثر من ستين سنة على ظهور الصور ، حيث اعترفت فرانسيس البالغة من العمر ستة وسبعون عامًا أن الصور كانت مزيفة ، أو على الأقل أربعة منها كانت كذلك . لقد كانت الجنيات من صنع ابنة عمها تم تثبيتها بواسطة دبابيس في المشهد ، وما الزر الذي اعتقد كونان دويل بأنه شاهده على الجنية في النسخة الأصلية إلا ذلك الزر . أما الصورة الأخيرة فكانت أصلية ، هكذا قالت فرانسيس .

بعد أسبوعين ، تأتي إلسي بنفسها وأكدت صحة كلام فرانسيس بعد صمت طويل . لقد رسمت الجنيات بلون بني داكن على لوح ثم لونها بألوان مائية بينما كان والداها خارج المنزل . ثم ثبتتها بالأرض بالدبابيس . أما أشكال الجنيات فقد تم الحصول عليها من كتاب «هدية ماري» الذي يعود لعام ١٩١٥ . ولكن هل كانت تلك الصورة الأخيرة التي احتفظت بها فرانسيس حقيقية؟ لم تكن فرانسيس هناك كما أخبرت إلسي . «إنني فخورة جدًا بتلك الصورة ، فقد صنعت بأداتي وكان عليّ انتظار أن يكون الطقس جيدًا لأخذها . لن أبوح بسرّها حتى الصفحة الأخيرة من كتابي» .

للأسف لم يكتب الكتاب . فقد توفيت فرانسيس عام ١٩٨٦ وتبعها إلسي بعد عامين . حتى هذا اليوم لا يزال هناك من يؤمنون

أن الصورة الخامسة كانت أصلية ، وجنيات كوتنجلي رفضت أن تموت .

لكن ربما ، ربما فقط ، أن كونان دويل الصياد كان قد هرب إلى ذات المصير . فلو أنه أخذ نفسه والبنتين بشكل أكثر نقدًا ، فربما كان تعلم من أخطائه . ربما يكون كونان آرثر دويل روحانيًا ، لكن روحانيته أخفقت في أخذ لو صفحة واحدة من شارلوك هولمز غير قابلة للتفاوض لأخذها ، وهي يقظة الذهن .

يكتب ويستون هيو اودن عن هولمز :

«إن مواقفه تجاه الناس والتقنيات التي يستخدمها للملاحظة والاستنتاج هي للكيميائيين أو الفيزيائيين . وإذا اختار الكائنات الحية بدلاً من الأشياء غير الحية لمواده ، فذلك لأن تفحص غير الحي سهل لأنه لا يمكن أن يكون كاذبًا . بينما البشر يمكن أن يكذبوا ، وبالتالي فإنه عند التعامل معهم يجب أن تكون الملاحظة ضعفي الحدة والمنطق والصرامة» .

لقد قدر السيد آرثر كونان دويل عددًا قليلاً من الأشياء كما قدر البطولة . ولكنه أخفق في إدراك أن الحيوانات التي كان يصطادها كانت كالبشر الذين خلق شخصياتهم . لم يكن حادًا ولا منطقيًا ولا صارمًا ضعفين . ولكنه ربما كان ، بمساعدة صغيرة من الذهنية التي خلقها بنفسه لمحققه الخاص ، شخص لم ينسى أن الكائنات البشرية يمكن أن تكذب ، وأن كل شخص معرض للخطأ بما في ذلك نحن .

لم يستطع كونان دويل أن يعرف إلى أين كان العلم ينطلق . لقد قام بأفضل ما لديه ضمن المقاييس التي وضعها لنفسه والتي يمكنني أن أضيف بان ظلت حتى يومنا هذا . على خلاف التنبؤات

الوثيقة التي يطرحها ويليام جيمس ، فإن معرفتنا حول القوى غير المرئية التي تقود حياتنا لا تزال عالقة منذ حوالي عام ١٩٠٠ عندما يتعلق الأمر بشرح الأمور النفسية منها .

لكن الامر أعظم من كل من شارلوك هولمز أو كونان دويل أو تلك المسألة ، أو ويليام جيمس أو داريل بيم . إننا محدودون بمعرفتنا وبالسياق ، ونقوم بما هو جيد لتذكر ذلك فقط لأننا لا نستطيع فهم شيء لا يجعلها كذلك ، ولأننا نخرب الأمور بسبب نقص المعرفة لا يعني أننا لا نستطيع مواصلة التعلم . عندما يتعلق الأمر بالدماغ نصبح جميعًا صيادين .

الخاتمة

كان وولتر ميشيل في التاسعة من عمره عندما التحق برياض الأطفال . إن الأمر ليس أن والديه كانا مهملين في تدريسه ، ولكن كل ما في الأمر أنه لم يستطع تحدث الإنجليزية . في عام ١٩٤٠ وصلت عائلته إلى بروكلين ، وكانوا واحدة من العائلات اليهودية القليلة التي كانت محظوظة للهروب من فيينا في أعقاب الاحتلال النازي في ربيع ١٩٣٨ وارتبط ذلك بالحظ والتبصر . حيث اكتشفوا شهادة الجنسية الأمريكية تعود لجدته لأمه والذي توفي منذ فترة طويلة . من الواضح أنه حصل عليها بينما كان يعمل في نيويورك حوالي عام ١٩٠٠ قبل العودة مرة أخرى إلى أوروبا .

لكن اسأل من الدكتور ميشيل أن يتذكر ذكرياته الأولى ، فتكون الاحتمالات بأن أول ما سيتحدث عنه هو ليس كيف داس شباب هتلر حذاءه الجديد على أرصفة فيينا ، ولا كيف سحب والده ورجال يهود آخرين من منازلهم وأجبروا على السير في الطرقات مرتدين بيجامات وحاملين أغصان بأيديهم في موكب بدائي قام به النازيون في محاكاة ساخرة للتقاليد اليهودية للترحيب بالربيع . (كان والده يعاني من الشلل ولا يمكنه المشي دون عصا ، وبالتالي كان على ميشيل الصغير أن يشاهد بينما كان يتأرجح من جانب لآخر في الموكب) ، ولا الرحلة من فيينا والوقت الذي أمضاه في لندن في غرفة لعمه ، والرحلة إلى الولايات المتحدة عند اندلاع الحرب .

بدلاً من ذلك فإن ما يتذكره هو أيامه الأولى في صف الروضة حين كان بالكاد يتحدث كلمة بالإنجليزية وخضع لاختبار الذكاء . ليس من المفاجئ أنه لم يبلي بلاء حسناً ، حيث كان في ثقافة غريبة وينحضع لاختبار بلغة غريبة . ولكن معلمه كانت متفاجئة ، أو أنها أخبرته بذلك . حيث أخبرته كم خابت آمالها من ذلك . أفليس من المفترض أن يكون الأجانب أذكياء؟ لقد توقعت الأفضل منه .

كانت كارول دويك على الجانب الآخر من القصة . حيث أنها عندما كانت في الصف السادس ، وبالصدفة في بروكلين ، خضعت لاختبار ذكاء إضافة لطلاب صفها . ثم شرعت المعلمة بالقيام بشيء كان بالكاد مألوفاً في ذلك الوقت وإن كان يشير الدهشة في عصرنا الحالي : حيث رتبت الطلاب حسب النتيجة ، حيث تم وضع الطلاب الأذكياء بالقرب من المعلمين ، والطلاب الأقل حظاً من الذكاء أبعد وأبعد . كان الترتيب غير قابل للتغيير ، وأولئك الطلاب الذين تم إقصاؤهم لم يكن يسمح لهم بالقيام بواجبات مدرسية رئيسية كغسل السبورة أو رفع العلم أمام مجلس المدرسة . وكان يتم تذكيرهم بشكل دائم أن معدل الذكاء لديهم لا يرقى إلى المستوى المطلوب .

دويك بنفسها كانت من المحظوظين ، حيث كانت تجلس في المقعد الأول ، وكانت علاماتها أعلى من كل زملائها في الصف . ومع ذلك كان هناك شيئاً خاطئاً . لقد عرفت أن اختباراً إضافياً واحداً سيجعلها أقل ذكاء . فهل يمكن أن يكون الأمر في غاية البساطة هكذا أن تحصل على نتيجة مرتفعة ليسجل ذكاءك على أنه جيد؟

بعد سنوات ، وجد كل من وولتر ميشيل وكارول دويك

نفسيهما في هيئة التدريس في جامعة كولومبيا . (حتى كتابة هذا ، ميشيل لا يزال هناك بينما انتقلت دويك إلى ستانفورد) . لقد أصبح كلاهما لاعباً رئيسياً في البحوث الاجتماعية وبحوث علم النفس (على الرغم من أن ميشيل يكبرها بستة عشر عاماً) ، وقد عزا كلاهما تحديد مساراتهما المهنية إلى ذلك الاختبار المبكر ، كما أنه كان مسؤولاً عن زغبتهما في عمل أبحاث على ما يفترض أنه أشياء ثابتة كالصفات الشخصية والذكاء ، أشياء يمكن قياسها باختبار بسيط ، لكنه مع ذلك يحدد مستقبلك .

كان من السهل جداً رؤية كيف أن دويك قد وصلت إلى قمة الإنجاز الأكاديمي تلك . فبعد كل شيء ، لقد كانت الأذكي ، لكن ماذا عن ميشيل؟ كيف يمكن لشخص وضعه معدل ذكائه في آخر الصف أن يصبح واحداً من المشاهير في علم النفس في القرن العشرين وله منهجه الخاص المختلف تماماً في البحث في الشخصية وقياسها؟ كان هناك شيء خاطئ ، ولم يكن الخطأ بالتأكيد يتعلق بذكاء ميشيل أو مساره المهني .

إن شارلوك هولمز صياد يعرف أنه لا يوجد شيء صعب جداً لإتقانه . في الحقيقة ، كلما ازدادت صعوبة الشيء ، كلما كان أفضل . وربما يكمن في ذلك جزء كبير من نجاحه وفشل واتسون في اتباع خطواته . أتذكر ذلك المشهد من «مغامرات مدرسة الدير» حيث تخلى واتسون عن الأمل في معرفة ما الذي جرى للطالب والمعلم المفقودين؟

يخبر هولمز قائلاً: «إنني عند نهاية فطنتي» ..

لكن هولمز لن يكون لديه أيًا من ذلك . «توت توت . لقد حللنا مشاكل أسوأ»

أو فكر في رد هولز على واتسون حين يعلن الأخير رسالة مشفرة «ما وراء قدرة القوة البشرية على الاختراق» .

يجيب هولز : «ربما هناك نقاط فرت من فكرك الميكافيلي» . لكن موقف واتسون لا يساعد . حيث يوجهه قائلاً : «دعنا نتابع المشكلة في ضوء المنطق الخالص» . ويتابع بشكل طبيعي لفك شيفرات المذكرة .

بطريقة ما ، لقد عنف واتسون نفسه في كلا الحالتين قبل أن يبدأ . حيث أنه بإعلانه أنه في نهاية فطنته وتعليم شيء على أنه يفوق القدرات البشرية يكون قد أغلق دماغه أمام احتمالية النجاح . وتلك العقلية كما يتضح هي ما يهم فعلاً وهي شيء غير ملموس ولا يمكن قياسه يتعدى رقمًا يتم إنجازه في اختبار .

على مدى سنوات ، كانت كارول دويك تقوم بأبحاث على ما يفصل «توت توت» لهولز من نهاية فطنة واتسون . وكان بحثها يقوم على افتراضين رئيسيين ، أن معدل الذكاء لا يمكن أن يكون الطريقة الوحيدة لقياس الذكاء ، وربما تكون هناك المزيد من الجهود لمفهوم الذكاء ذلك أكثر مما هو واضح للعيان .

بناء على دويك ، هناك نظريتان رئيسيتان حول الذكاء : التدريجي والوجودي . إذا كنت منظرًا تدريجيًا ، فإنك تعتقد أن الذكاء سلس . وإذا عملت بجد أكبر ، فستصبح اذكى . بكلمات أخرى ، فأنت تستبعد فكرة أن شيئًا ما ربما يتجاوز القدرة البشرية على الاختراق . أنت تعتقد أن العلامة الأصلية لولتر ميشيل في اختبار الذكاء ليست مجرد شيء لا يجب أن يكون سببًا لخيبة الأمل لكن له تأثير هام على قدرته الفعلية وأدائه اللاحق .

من الناحية الأخرى ، لو كنت منظرًا وجوديًا فإنك تؤمن أن

الذكاء ثابت ، ومهما حاولت فستظل ذكيًا (أو لا) كما كنت مسبقًا . إنه فقط حظك الأصلي ، وكان هذا موقع معلمة دويك في الصف السادس ومعلمة ميشيل في الروضة . وذلك يعني أنك ما إن أكون في الخلف حتى تلصق هناك ، ولا يوجد ما بوسعك فعله . للأسف إنه الحظ .

في سياق بحثها ، وجدت دويك أمرًا مثيرًا وهو أن ما ينجزه أحدهم خاصة في ردة الفعل نحو الفشل يعتمد إلى حد كبير على أي الاعتقادين يتبنى . فالمنظر التدريجي يرى الفشل فرصة للتعلم ، بينما المنظر الوجودي فيرى الفشل كعيب شخصي محبط لا يمكن تداركه . وبالتالي فإنه بينما ربما يأخذ الأول شيئًا بعيدًا عن التجربة لتطبيقه على الحالات المستقبلية ، فإن الأخير أكثر احتمالاً لأن يزيلها تمامًا . لذا فغن طريقة تفكيرنا بالعالم وأنفسنا يمكن أن يغير كيف نتعلم وماذا نعرف .

في دراسة حديثة ، قرر مجموعة من علماء النفس رؤية فيما إذا كانت ردة الفعل الفارقة هذه سلوكية ببساطة ، أو إذا كانت أعمق من ذلك إلى مستوى أداء الدماغ . قاس الباحثون إمكانات ذات صلة بالاستجابة للحدث - إشارات كهربائية عصبية تنتج إما من سبب داخلي أو خارجي - في أدمغة طلاب جامعة أثناء مشاركتهم في مهمة بسيطة . أظهرت للطلاب مجموعة من خمسة حروف وطلب منها تحديد الحرف الأوسط بسرعة . وهذه الحروف يمكن أن تكون ذاتها مثل م م م م م أو مختلفة مثل م م م م م م م م م

بينما كانت دقة الأداء عالية بشكل عام حيث وصلت إلى حوالي ٩١٪ ، فإن المعايير المحددة كانت صعبة حتى أن الجميع ارتكبوا أخطاء . لكن ما اختلف فيه الأفراد كان في كيفية تجاوبهم

هم وأخطائهم مع الأخطاء . حيث أن أولئك الذين كانت عقليتهم تدرجية المجزوا بشكل أفضل في محاكمات الأخطاء من ذوي العقلية الوجودية .

ما معنى ذلك إذن؟ يبدو من البيانات أن نمو العقلية ، حيث تؤمن أن الذكاء يمكن أن يتحسن ، تفسح المجال لاستجابة أكثر في التكيف مع الأخطاء ، ليس سلوكيًا فقط بل وعصبيًا أيضًا . كلما أمن شخص بالتحسن ، كلما اتسعت إشارة الدماغ التي تعكس توزيعًا واعيًا من الاهتمام بالأخطاء . وكلما كبرت الإشارة العصبية كلما كان الأداء اللاحق أفضل . إن تلك الوسطية توحى بأن الأفراد مع نظرية تدرجية للذكاء قيد يكونون في الواقع أفضل في الرصد الذاتي وأنظمة السيطرة على المستوى العصبي الأساسي . حيث أن أدمغتهم أفضل في مراقبتها ، وأخطاء مولدة ذاتيًا في تعديل سلوكهم وفقًا لذلك . إنها مسألة تحسن خطأ على خط الوعي وملاحظة الأخطاء عند حدوثها وتصحيحها مباشرة .

إن الطريقة التي تتصرف بها أدمغتنا حساسة بشكل لا نهائي لطريقة تفكيرنا ، والأمر لا يتعلق بالتعلم . حتى شيء نظري مثل الإيمان بالإرادة الحرة يمكن أن يغير تجاوب أدمغتنا (إذا لم نؤمن بذلك ، فإن أدمغتنا ستصبح أكثر كسلًا في تحضيرها) . ومن النظريات العامة إلى الآليات المحددة ، لدينا قدرة غريبة على التأثير على كيفية عمل أدمغتنا وكيف ننجز ونتصرف ونتفاعل . إذا كنا نظن أنفسنا قادرين على التعلم ، فإننا سنتعلم . وإذا كنا نعتقد أن مصيرنا الفشل ، فإننا سنفشل ليس سلوكيًا فقط ، ولكن على المستوى الأساسي للعصب .

لكن الذهنية ليست محددة سلفًا كما أن الذكاء ليس

احتكاريًا ومحددًا منذ الولادة . يمكننا أن نتعلم ونتحسن ونغير منهجنا الاعتيادي نحو العالم . خذ مثال تهديد الصورة النمطية ، وهو مثال يظهر فيه أن نظرة الآخرين لنا-أو ما نظنه نظرتهم-يؤثر على كيفية تصرفنا على مستوى اللاوعي كما العوامل الرئيسية . فأن تكون عضواً مختلفاً في مجموعة (على سبيل المثال امرأة وحيدة بين رجال) يمكن أن يزيد إدراك الذات ويؤثر على الأداء سلبياً . وحين يتوجب عليك كتابة عرقك أو جنسك قبل الخضوع لامتحان يؤثر سلبياً على علامات الرياضيات للإناث والعلامات الكلية للأقليات . كان أداء نساء آسيويات في امتحان رياضيات أفضل عندما أبرزت هويتهم الأسيوية ، بينما كانت أسوأ عندما أبرزت هوية جنسهن . ينجز الرجال البيض بشكل أسوأ في المهام الرياضية عندما يعتقدون أن أداءهم مبني على قدرة طبيعية ، والرجال السود عندما تم إخبارهم أنه مبني على الذكاء الرياضي . لكن تدخلاً بسيطاً يمكن أن يساعد . فالنساء اللواتي أعطين أمثلة على نجاح النساء في الحقول العلمية والتقنية لا يجربن تأثيرات الأداء السلبي في اختبارات الرياضيات . وطلاب الجامعة الذين تعرضوا لنظريات دويك حول الذكاء-خاصة النظرية التدريجية-كانت علاماتهم أعلى وتعرفوا أكثر على العملية الأكاديمية في نهاية الفصل . في إحدى الدراسات ، حقق الطلاب الذين كتبوا عن الفعالية الشخصية لقيمة قائمة بذاتها (كالعلاقات العائلية أو الاهتمامات الموسيقية) لثلاث أو خمس مرات خلال السنة الدراسية معدلات تراكمية أعلى بأربع وعشرين بالمئة من النقاط أعلى من الذين كتبوا عن مواضيع محايدة . وأظهر الطلاب الأفريقيون الأمريكيون أصحاب الأداء المنخفض تحسن نسبته واحد

وأربعين بالمئة نقطة بالمتوسط . إضافة إلى ذلك ، انخفض معدل المعالجة من ١٨٪ إلى ٥٪ .

ما هي عقليتك حين يتعلق الأمر بك؟ إذا لم تدرك ما لديك فلن يكون بمقدورك القيام بأي شيء لمكافحة التأثيرات التي تأتي معه عندما تكون هذه الأشياء ضدك . كما يحصل مع النمطيات السلبية التي تعيق الأداء ، ولا تستطيع الاستفادة من الفوائد عندما تكون لصالحك (كما يمكن أن يحدث إذا كنت تفعل أنماط مرتبطة بشكل إيجابي) . إن ما نؤمن به ، إلى حد كبير ، هو ما نحن عليه . إنه عالم كياني ذاك الذي يراه واتسون عندما يعلن هزيمته . أي أبيض وأسود ، أو تعرف أو لا تعرف . وإذا كنت تصطدم بشيء يبدو صعباً للغاية ، فإنك قد تحاول وقد لا تفعل خشية أن تخرج نفسك . بالنسبة لهولمز ، كل شيء تدريجي ، فلا يمكنك أن تعرف ما سبق إن لم تجرب . وكل تحدي هو فرصة لتعلم شيء جديد وتوسعة آفاقك وتحسين قدراتك وإضافة المزيد من الأدوات لعلية دماغك من أجل الاستخدام المستقبلي . فبينما علية دماغ واتسون جامدة ، فإن علية دماغ هولمز حيوية .

إن أدمغتنا لا تتوقف عن تطوير روابط جديدة وتشذيب غير المستعملة . وهي لا تتوقف عن النمو بشكل أقوى في تلك المجالات التي نقويها مثل العضلة التي واجهتنا في الصفحات الأولى من الكتاب والتي تزداد قوتها مع الاستعمال وتضمهر مع عدم الاستخدام ، وهي التي يمكن تدريبها على أداء بطولات في مجال القوة كنا نظنها غير ممكنة .

كيف تشك في القدرة التحويلية للدماغ حين يتعلق الأمر بشيء كالتفكير في متى يكون قادراً على إنجاز مواهب من كافة

الأنواع لدى أشخاص لم يسبق لهم وأن اعتقدوا بأن لديهم هذه المواهب؟ خذ حالة الفنان أوف . حيث أنه بدأ بالرسم ، كان فيزيائياً في منتصف العمر لم يسبق له أبداً وأن رسم . لم يكن متأكداً من كيفية تعلمه الرسم ، ولكنه تعلمه ، وواصل طريقه حتى صار يبيع لوحاته في كثير من دول العالم .

وأنا ماري روبرستون موسى والمعروفة بالجددة موسى لم تبدأ بالرسم حتى وصلت الخامسة والسبعين . وصارت تتم مقارنتها ببيتر بروغل في موهبتها الفنية . في عام ٢٠٠٦ ، تم بيع لوحاتها «تخلية معطلة» بمليون ومئتي ألف دولار .

وفاتسلاف هافيل كان كاتب وكاتب مسرحيات حتى صار مركز حركة المعارضة التشيكية ثم أول رئيس ما بعد الشيوعية في تشيكوسلوفاكيا حين كان في الثالثة والخمسين من عمره .

وريتشارد آدم لم ينشر «غرق سفينة المياه» حتى وصل الثانية والخمسين من عمره . لم يكن يفكر في نفسه ككاتب ، والكتاب الذي بيعت منه أكثر من خمسين مليون نسخة جاء من قصة رواها لبناته

أما هارلين ساندرز والمعروف بالكولونيل ساندر فلم يبدأ شركة كنتاكي حتى الخامسة والستين ، لكنه واصل جهوده حتى صار واحداً من أشهر رجال الأعمال في عصره .

والرامي السويدي أوسكار سفان نافس في أول ألعاب أولمبية في عام ١٩٠٨ حين كان في الستين من عمره . لقد ربح ميداليتين ذهبيتين وميدالية برونزية ، وعندما بلغ من العمر الثانية والسبعين أصبح أكبر لاعب أولمبي وأقدم حاصل على الميداليات في التاريخ بعد حصوله على الميدالية البرونزية عام ١٩٢٠ . القائمة تطول

والأمثلة متنوع والإنجازات تنتشر على جميع أنحاء الخريطة .
وأجل ، هناك الهولمزيون الذين لديهم ملكة التفكير الواضح من
مرحلة مبكرة والذين لا يتوجب عليهم التغيير بعد سنوات من
العادات السيئة . لكن لا تنسى أن هولمز بنفسه كان عليه تدريب
نفسه . لذلك علينا أن نعمل لتحقيق هذا الهدف ولكن مع توخي
الحذر ، فالدماغ البشري شيء مميز .

كما يتضح ، فإن أفكار هولمز يمكن تطبيقها على غالبية
الأشياء . فهي تتعلق بالمواقف والعقلية وعادات التفكير والنهج
الدائم الذي تطوره للعالم ، أما التطبيق بحد ذاته فهو أقل أهمية .
إذا استفدت شيئاً واحداً من هذا الكتاب ، فيجب أن يكون
هذا : إن الدماغ الأكثر قوة هو الدماغ الهادئ . إنه الدماغ الحاضر
والعاكس والواعي لأفكاره وحالته . إنه عادة ليس متعدد المهام ،
وحين يكون ذلك فإنه لهدف .

ربما تكون الرسالة قد وصلت . فعدد حديث من نيويورك تايمز
تحدث عن ممارسة جديدة وهي القرفصاء أثناء كتابة الرسائل
النصية ؛ أي البقاء في السيارات الموقوفة من أجل الانخراط في
كتابة الرسائل النصية والبريد الإلكتروني وتغريدات تويتر أو أي
شيء بدلاً من قيادة السيارة لإخلاء أماكن لوقوف السيارات . ربما
تثير الممارسة غضب الأشخاص الذين يبحثون عن أماكن ، لكنها
تظهر وعياً متزايداً بأن القيام بأي شيء أثناء القيادة ربما لا يكون
الفكرة الأفضل . «إنه الوقت لقتل تعدد المهام» . كان هذا عنوان في
المدونة المعروفة «٩٩٪» .

نستطيع أخذ صخب عالمنا باعتباره عاملاً مقيداً وعذراً لعدم
امتلاكنا ذات حضور الدماغ الذي يملكه هولمز . فبعد كل شيء ، لم

يتعرض لقصف الإعلام والتكنولوجيا والوتيرة المحمومة للحياة المعاصرة . لقد كان الأمر أكثر سهولة عنده . كلما زاد جهدنا ، كلما زادت عائداتنا وكان الانتقال في العادات من الطيش إلى الوعي أكثر سهولة .

يمكننا أيضاً تبني التكنولوجيا باعتبارها نعمة غير متوقعة كان هولز سيكون سعيداً جداً لو امتلكها . فكر في هذا : أظهرت دراسة حديثة أنه عندما يكون الناس مساعدون للتفكير بأجهزة الكمبيوتر أو عندما يتوقعون إمكانية الوصول إلى المعلومات مستقبلاً ، فإنهم يكونوا أقل قدرة على تذكر المعلومات . ولكنهم - وهذا الأمر الأساسي - يكونوا أكثر قدرة على تذكر أين وكيف سجدوا المعلومات عند نقطة لاحقة .

في العصر الرقمي ، لا تخضع عليات أدمغتنا إلى ذات المحددات التي خضع لها هولز وواتسون . لقد وسعنا مساحتنا التخزينية بقدرة ظاهرية لم تكن متصورة في وقت كونان دويل . وتلك الإضافة تمثل فرصة مثيرة للاهتمام . حيث يمكننا تخزين «ضوضاء» يمكن أن تكون مفيدة في المستقبل ، ونعرف تماماً كيف نصلها حين تستدعي الحاجة . إذا لم نكن متأكدين فيما إذا كان شيء ما يستحق مكاناً أساسياً في العلية ، فإننا لا نحتاج للتخلص منه كل ما نحتاج فعله هو تذكر أننا قمنا بتخزينه للاستخدام المستقبلي الممكن . ولكن تأتي مع الفرصة الحاجة للحذر . فربما نميل للتخزين خارج عليات أدمغتنا ما يجب أن يكون في داخلها فعلياً . وعملية التنظيم (ما الذي نحتفظ به وما الذي نرميه) تصبح صعبة بشكل متزايد .

لدى هولز نظام الإيداع الخاص به . ولدينا جوجل وويكبيديا

وكتب ومقالات وقصص من قرون خلت حتى يومنا هذا ، وجميعها تقريباً جاهزة لاستخدامنا . كما وأن لدينا ملفاتنا الرقمية الخاصة .
إننا لا نتذكر كل ما نتعرض له ، وعلينا ألا نسعى لذلك . إننا نحتاج بدلاً من ذلك لتعلم فن الإشراف على علياتنا أفضل من أي وقت مضى . إذا قمنا بذلك فإن حدودنا تتوسع بطرق لم يسبق لها مثيل . لكن إذا سمحنا لأنفسنا بالتورط في مستنقع تدفق المعلومات ، وخرزنا الأشياء غير ذات الصلة بدلاً من التي يجب تخزينها في المساحة التخزينية المحصورة ، فإن العصر الرقمي يمكن أن يكون ضاراً .

إن عالمنا يتغير ، ولدينا موارد أكثر مما يكون هولز قد تخيله . أما حدود عليات أدمغتنا فقد تغيرت ، وتوسعت وزادت قطاع الممكن . لذا علينا أن نسعى لتكون مدركين لهذا التغيير وإلى الاستفادة من التحول بدلاً من جعله يستفيد منا . يعود ذلك إلى مفهوم الانتباه والحضور ويقظة الذهن والعقلية والتحفيز التي ترافقنا خلال حياتنا . لن نكون مثاليين ، لكن يمكننا أن نقترّب من عيوبنا بانتباه وبالتالي جعلها تجعل منا مفكرين أكثر قدرة على المدى البعيد .
يتعجب هولز في «مغامرة موت المحقق» قائلاً : «كم غريب أن يحكم الدماغُ الدماغَ» . سيكون هذا الأمر دوماً ولكننا نستطيع التحسن في فهم العملية ومنحها مدخلاتنا .

شكر وتقدير

هناك الكثير من الأشخاص الاستثنائيين الذين ساهموا في خروج هذا الكتاب إلى النور والذين لا يكفيهم فصل كامل آخر للحديث عن فضلهم . إننا لست معروفة دائماً بالإيجاز لأشكرهم جميعاً كما يجب . إنني ممتنة حقاً لكل من دعمني ووجهني خلال الكتاب ، وإلى عائلتي وأصدقائي الرائعين . إنني أحبكم جميعاً ، ولم أكن لأبدأ ولا أنهي هذا الكتاب بدون دعمكم . ولكل العلماء والباحثين ومحبي شارلوك هولمز الذين ساعدوا في توجيهي على مدى الدرب ، شكراً كبيرة لمساعدتكم وخبرتكم غير المنتهية .

أريد ان أشكر ستيفن بنكر تحديداً ؛ صديقي الرائع الذي لم يكن أناانياً في مشاركة وقته وحكمته معي لما يقارب العشر سنوات . لقد كانت كتبه السبب الذي جعلني أقرر دراسة علم النفس ، وبسبب دعمه انا هنا . وريتشارد بانيك الذي ساعدني في رعاية المشروع من بدايته حتى محطاته الأخيرة ، والذي كانت نصائحه ودعمه المستمر ضروريين للانطلاق والاستمرار . وإلى كاترين فاز التي آمنت بما أكتب من البداية ، وظلت مصدراً للتشجيع على مدى سنوات . وكذلك ليسلي لينجر التي كان اهتمامها في عملي على موضوع شارلوك هولمز وشارع بيكر ٢٢١ ب ضرورياً لرحلتي .

وكيل أعمالني المدهش سيث فيشمان يستحق التقدير الدائم .

وأنا محظوظة لكونه إلى جانبي . شكراً لبقية الفريق في شركة جيرنيرت . وشكراً خاصة ل ربيكا جاردنر وويل روبرت . المحرران الرائعان كيفين دوفتن وويندي وولف أخرجنا النص من اللاوجود إلى النور في أقل من سنة ، وهو ما ظننته مستحيلاً كما وأني ممتنة لبقية الفريق في فاينكنج ، خاصة بين تشونغ وباتريكا نيكولاس وفيرونيكسا و برينتي روس . شكراً ل نيك دافيس لتحريره الرائع ، وللجميع لإيمانهم بهذا المشروع .

بدأ هذا الكتاب كسلسلة من المقالات في مجلات ، فشكراً لبيتر هوبكنز وفكتوريا براون والجميع في المجلتين لمنحي المجال والحرية لاكتشاف هذه الأفكار كما أردت .

هناك الكثيرون ممن لم أدرجهم كان لهم الفضل في خروج هذا الكتاب إلى الوجود ولكن أود توجيه شكر خاص لعدد منهم وهم وولتر ميشيل ، وإليزابيث جرينسبان ، وليندسي فاي ، وتشارلي روز وهارفي مانسفلد ، وجوني لي ، وساندرا أبسون ، وميج وولترز ، وميريديث كافيل ، وأليسون لورينتزن - واميليا ليستر ، ولسلي جاميسون وشوت أوتو ، وسكوت هولر ، وميشيل ديردا ، وشارا زافال وجونا ليفين .

أخيراً أشكر زوجي جوف والذي لم يكن لشيء من هذا أن يخرج إلى حيز الوجود . أحبك ، وأنا محظوظة جداً لأنك في حياتي

مكتبة الرمحي أحمد

telegram @ktabpdf

الفهرس

- 5 كلمة المترجمة
9 المقدمة
- 19 الجزء الأول: فهم نفسك
21 الفصل الأول : المنهج العلمي للدماغ
45 الفصل الثاني : علية الدماغ : ما هي؟
- 95 الجزء الثاني:: من الملاحظة إلى التخيل
97 الفصل الثالث : التخزين في علية الدماغ
163 الفصل الرابع : استكشاف علية الدماغ
- 223 الجزء الثالث: فن الاستنتاج
225 الفصل الخامس : التنقل في علية الدماغ :
265 الفصل السادس : الحفاظ على علية الدماغ :
- 295 الجزء الرابع: علم وفن، معرفة الذات
297 الفصل السابع : العلية الحيوية
317 الفصل الثامن : نحن بشر فقط
- 345 الخاتمة
357 شكر وتقدير

العقل المدبر

MARIA KONNIKOVA

إن التفاصيل ليست بأهمية الفكرة العامة. فبعض الأشياء يتم تخزينها، وبعضها الآخر يتم التخلص منها قبل وصولها على الدماغ الرئيسية. أما ما يتم تخزينه فيتم تنظيمه بناء على نظام ترابطي، حيث يقرر دماغك المكان الأفضل لذكرى معينة. لكن إذا كنت تعتقد أنك ستسترجع نسخة طبق الأصل مما قمت بتخزينه، فأنت مخطئ. فالمحتويات تنتقل وتتغير ويعاد تشكيلها مع كل هزة للصندوق الذي تم تخزينها فيه. على سبيل المثال، ضع كتابك المفضل من الطفولة. إن لم تكن حذراً، ربما تكون الصورة التي تريد رؤيتها عندما تسترجعه قد أفسدها الماء. أو ارم عددًا من البومات الصور هناك، حينها ربما تختلط الصور معاً بحيث تندمج صور رحلة ما مع صور رحلة أخرى. أما إذا كنت تصل إلى جسم ما في كثير من الأحيان، فإن الغبار لا يتراكم عليه. حيث يظل في المقدمة جاهزاً للمُستك القادمة (ومع ذلك من يعرف ما الذي قد يأخذه معه في رحلته القادمة نحو الخارج). أما إن أبقيته غير ملموس، فسيترجع أكثر فأكثر حتى يصير ركاماً، وربما يتم إقصاؤه من خلال حركة مفاجئة في جواره. وإذا ما نسيت شيئاً ما لفترة طويلة، فإنه بحلول الوقت الذي تذهب فيه للبحث عنه، ربما يكون قد ضاع في مكان لا يمكنك الوصول إليه. إنه حتماً لا يزال في مكان ما، ربما في قاع صندوق في زاوية مظلمة ربما لا تجده فيها مجدداً.